

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

المدرسة العليا للأساتذة في الآداب والعلوم والعلوم الإنسانية الشيخ مبارك بن محمد إبراهيم

الميلي. الجزائر - بوزريعة

قسم الفلسفة

خطاب الحرب عند فلاسفة عصر العقل

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه علوم في تخصص: الفلسفة السياسية

إشراف:

أ.د. عمار الطالبي

إعداد الطالب:

يونس حشلاف

لجنة المناقشة:

أ.د. / عبد القادر بليمان.....رئيسا

أ.د./عمار الطالبي مشرفا ومقررا

أ.د./يمينة شيكوعضوا مناقشا

د / سليمة قايدعضوا مناقشا

د / أحمد باجي.....عضوا مناقشا

د/ أمال علاوشيش.....عضوا مناقشا

السنة الجامعية 2020/2019

شكر وتقدير

الحمد لله حمدا كثيرا، والصلاة والسلام على سيد الخلق محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وأشكر الله الذي منى علي بنعمه وأمدني بالقوة والأسباب لإكمال هذه الأطروحة.

يسعدني أن أتقدم بأسمى عبارات الشكر والعرفان والتقدير لأستاذي الفاضل الدكتور **عمار الطالبی**، الذي له الفضل في إتمام هذا البحث، والذي تكرم بالإشراف عليه ومتابعته في كافة مراحلها، فهو مشكور على صبره ورعايته وتوجيهاته المنهجية وملاحظاته العلمية القيمة، والصادرة عن أول الحاصلين على شهادة الدكتوراه في تخصص الفلسفة في الجزائر، فله مني تحية تقدير وإجلال.

كما لا يفوتني أن أتقدم بالشكر لكل من علمني في كل المراحل والأطوار، وأخص بالذكر أساتذة المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة فهم من أنار دربي في مرحل الليسانس والماجستير والدكتوراه.

والشكر موصول لأعضاء لجنة المناقشة على تفضلهم بقبول مناقشة هذه
الأطروحة.

والحمد لله دائماً وأبداً

الإهداء

إلى روح والدي رحمه الله،

إلى روح عمي الدكتور حشلاف عثمان رحمه الله،

إلى أمي أمد الله في عمرها، إلى أخي عزالدين،

إلى زوجتي وأخواتي وبناتي،

إلى كل من شجعتني وساعدني في إتمام هذه الأطروحة.

مقدمة:

مقدمة:

تشكل مواضيع مثل أسس الدولة وأشكال الحكومات وأصول القوانين ومبادئها محور الفلسفة السياسية، والتي تبحث كذلك في المبادئ والحجج التي يمكن الاستناد إليها من أجل الدفاع ودعم اتجاه سياسي ما أو انتقاده، سواء تجسد واقعيًا في شكل نظام سياسي قائم أو بقي مجرد نظرية، وقد تبحث الفلسفة السياسية مسائل أبعد من هذه المواضيع، فتهتم بإيجاد مسوغات أهداف وجود الدولة والسلطة وامتلاك القوة والنفوذ، على أنه تبقى أهمية المسائل المطروحة للبحث والنقاش متوقفة على الأوضاع - وخاصة السياسية - التي يعيشها الفيلسوف، وعلى البيئة التي تظهر فيها هذه الأفكار الفلسفية السياسية، وقدرة هذه الأخيرة على معالجة هذه الأوضاع وتقديم الحلول المناسبة لها.

لعل هذا الأمر هو أحد الأسباب التي جعلت مواضيع الفلسفة السياسية ظرفية، تتغير حسب تغير الحقب التي مر بها الفكر الفلسفي، فاليونان في العهد السقراطي وما تلاه شهدت تحولات في نظم الحكم وثورات واضطرابات وحالة عدم استقرار نتيجة الحروب الداخلية بين المدن اليونانية خاصة مثل حرب البلوبونيزية (404 ق م - 431 ق م) بين أثينا وإسبرطة، وحروب أخرى خارجية ضد الفرس والقرطاجيين، هذا

الوضع هو الذي دفع الفلاسفة إلى تحليل الأنظمة السياسية المتبعة في مختلف المدن والدول، والمقارنة بينها من أجل إيجاد الحكم الفاضل أو الأمتثل لدولهم، وبناء المدينة أو الجمهورية المثالية، وهو ما تجسد في صورة أعمال أفلاطون وأرسطو وشيشرون، كما أدت الصراعات بين السلطة الدينية والسلطة المدنية التي ميزت العصور الوسطى المسيحية في أوروبا إلى الكثير من الحروب والثورات في هذه القارة، وهي الأوضاع نفسها التي ألهمت نيقولا ميكيافيلي، وتوماس هوبز، وجون لوك، وجان جاك روسو، وغراتيوس وغيرهم ضرورة بحث وتشخيص الأسباب التي أوجدت هذه الصراعات وتقديم الحلول التي يعتقد كل فيلسوف أنها تمثل الحل الأنسب للقضاء على هذه الحروب أو تهدئتها.

هذه التحولات في خطاب الفلسفة السياسية والناجمة عن اهتمامها بالظواهر المرتبطة بالحياة المشتركة أدى إلى جعل المشكلة الرئيسية في الفلسفة السياسية الحديثة تتمحور حول مشكلة الطاعة الشرعية، وهو ما يفرض على فلاسفة السياسة تقديم تصور يقضي على توازي السلطة الدينية والسلطة السياسية أو المدنية، وجعلها في تراتبية تخضع إحداهما للأخرى، والأمر عينه نجده في الفلسفة السياسية المعاصرة خاصة في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، حيث أصبحت الفلسفة السياسية تدور حول مبدأ أساسي وهو السعي للإجابة عن التساؤل التالي : كيف يمكن أن نضع حدًا للصراعات والحروب؟ هكذا تكون حالة الحرب بمثابة النموذج بالنسبة إلى النظريات السياسية المعاصرة من خلال محاولة التحكم فيها، إذًا فأثر مشكلة الحروب واضح في الفلسفة السياسية المعاصرة، حتى الحرب الباردة كان لها دور

في إثراء مواضيع الفكر السياسي، حيث عادت الحاجة إلى البحث في تصورات عرفت فلسفات سياسية سابقة مثل تصور الحرية، وتصور العدل ووضعها في قوالب فكرية جديدة.

وعليه، فالفلسفة السياسية فلسفة نقدية، ويتجلى ذلك في ظرفيتها وظيفية مواضيعها بحكم أنها تعتبر من وجهة نظر عامة على أنها تفكير في الدولة، أي إنها وسيلة لاكتساب المسوغات الشرعية لوجود الدولة وأفعالها ومن أهمها فعل الحرب، والتراث الفلسفي السياسي يثبت لنا صحة هذه الرؤية، إذ لم يرتبط فقط بالبيئة السياسية التي ظهر فيها، بل ارتبط كذلك بأسماء فلاسفة طبعوا كل عصر من العصور بأفكارهم، وعلى الرغم من قوة الطرح وريانة الفكر وحصافة البحث التي تميّز كل فيلسوف منهم، إلا أنهم كانوا عرضة للنقد من طرف الفلاسفة الذين جاؤوا من بعدهم، فأفلاطون وأرسطو وشيشرون هم بالتأكيد أسماء لها ثقلها في الفلسفة السياسية إلا أنهم كانوا عرضة للنقد من قبل ميكيافيلي وهوبز مثلاً، بحجة أن الفلسفة السياسية التي يحملها التراث اليوناني والروماني قد أخفقت في قيادة البشر نحو السلام، وذلك يعود إلى أن هدف فلاسفة اليونان كان بعيداً عن الواقع، فهم أقاموا مذاهبهم في الفلسفة السياسية بغية الارتقاء بالإنسان لبلوغ حياة فاضلة وبناء مجتمع فاضل.

باختصار نقول إنهم وضعوا تصورات مثالية لدول مثالية كذلك، فقد كان ميكيافيلي وتوماس هوبز والكثير ممن أعقبهما أكثر واقعية، وأسسوا أفكارهم على مبدأ يرفض جعل كمال الإنسان هدفاً للحياة السياسية، وركزوا في مقابل ذلك على

الأهداف التي يسعى إليها معظم الناس والتي يحتمل أن تتحقق في الواقع، وأهم هذه المسائل الواقعية التي سعوا إلى معالجتها في الفلسفة السياسية الحديثة والمعاصرة نذكر إشكالية تأسيس الطاعة والشرعية، وإشكالية الحد من الصراعات والحروب في العالم، وهذه الإشكاليات لها علاقة مباشرة بموضوع بحثنا الذي سنحاول تحديد تصور نخبة من فلاسفة العصر العقل كما سماه ستيوارت هامبشير¹ في كتابه الذي يحمل عنوان **عصر العقل و جون هرمان راندال**² في كتابه **تكوين العقل الحديث**، هذا العصر الذي يشمل عصر النهضة والعصر الحديث، لذلك ارتأينا أن نركز في بحثنا هذا على آراء كل من نيقولا ميكيافيلي وتوماس هوبز وجون جاك روسو حول موضوع الحرب والذي لا يمكن معالجته بمعزل عن مفهوم آخر يتماهى معه وهو مفهوم القوة، هذه العناصر الفكرية تشكل الكلمات المفتاحية الأساسية للإشكالية العامة لهذا البحث والتي رأينا صياغتها على النحو التالي:

ما هي الأسس الفلسفية التي يقوم عليها خطاب الحرب عند فلاسفة عصر العقل؟

نتفرع عن هذه الإشكالية الرئيسية التساؤلات التالية:

1- ماهي الحرب وما علاقتها بمفهوم القوة وتوازنها؟

1- السير ستيوارت هامبشير **Stuart Hampshire**، فيلسوف وناقد إنجليزي، ولد بإنجلترا في 01 أكتوبر 1914، وتوفي بالمملكة المتحدة بتاريخ: 13 جوان 2004، مارس التدريس بجامعة أكسفورد وله العديد من المؤلفات منها: الفكر والفعل، العدالة هي الصراع، البراءة والتجربة، حرية الفرد، عصر العقل، هذا الأخير هو ما استوحينا منه جزء من عنوان هذه الرسالة.

2- **جون هرمان راندال John Herman Randoll** أستاذ وفيلسوف أمريكي ولد في الولايات المتحدة الأمريكية بتاريخ: 14 فيفري 1899، وتوفي بمدينة نيويورك في 01 ديسمبر 1980، مارس تدريس الفلسفة في جامعة كولومبيا من مؤلفاته كتاب **تكوين العقل الحديث**.

2- ماهي الموضوعات التي حمل عليها فلاسفة عصر العقل موضوع الحرب؟

3- كيف قارب كل من ميكيافيلي وتوماس هوبز وجون جاك روسو فكرة الحرب؟ أو بعبارة أدق كيف سوغ هؤلاء الفلاسفة موقفهم من الحرب؟

4- فيما يتجلى دور العقل في تصوراتهم للحرب؟

5- هل توجد إلى جانب العقل عناصر أخرى لها دور في تصورات ميكيافيلي وتوماس هوبز وجون جاك روسو للحرب؟

لمعالجة هذه الإشكالية العامة والتساؤلات المتفرعة عنها اعتمدنا على المنهج التحليلي من خلال تحليل آراء الفلاسفة بخصوص فكريتي الحرب والقوة والأفكار الأخرى الواردة في هذا البحث، كما اعتمدنا على المنهج التاريخي بالعودة إلى أهم المراجع والمصادر المتخصصة في موضوعنا، بالإضافة إلى المنهج المقارن الذي قمنا باستخدامه لإبراز عناصر التشابه والاختلاف بين الفلاسفة في طرح تصوراتهم حول موضوع الحرب، وهو منهج اعتمده هؤلاء الفلاسفة في مؤلفاتهم وأعمالهم الفلسفية التي تطرقوا فيها لمسألة الحرب.

إن اعتماد هذه المناهج في بحثنا قد فرض علينا طريقة في عرض الأفكار لا تخضع دائماً لتسلسل زمني، بل يتبع تدرجاً تظهر أهميته من خلال فلاسفة متباعين ومتعارضين أو على الأقل مختلفين في نظرتهم للحرب، هذه النظرة التي فرضتها عليهم ابتكارات مفهومية ومواجهات مذهبية ونسقية وحتى الظروف

الاجتماعية والسياسية لكل فيلسوف، لذا يمكن ملاحظة أننا لم نحترم التسلسل الزمني في عرض بعض الأفكار خاصة في الفصل الأول من الأطروحة.

وعليه قسمنا خطوات بحثنا كالتالي: مقدمة تنتهي بطرح إشكالية البحث وثلاثة فصول وخاتمة، وقد تناولنا في الفصل الأول الذي عنوانه بتماهي القوة والحرب ثلاثة مفاهيم أساسية في بحثنا، وهي مفهوم الحرب ومفهوم القوة ومفهوم توازن القوى في العلاقات الدولية، وقد مهدنا لهذا الفصل بمدخل حول كيفية بناء المفاهيم وأهميتها البحثية. أما الفصل الثاني والذي وسماه بعنوان نهضة فن الحرب عند نيقولا ميكيافيلي فقد قسمناه إلى مبحثين، المبحث الأول عرضنا فيه الخلفية النظرية والعملية لفكر ميكيافيلي، والمبحث الثاني قدمنا فيه تصور ميكيافيلي للحرب، أما الفصل الثالث فقد خصصناه لفلسفة العقد الاجتماعي بشقيه التجريبي والعقلاني لهذا جاء عنوانه الحرب عند فلاسفة العقد الاجتماعي، ويشتمل على مبحثين كذلك، المبحث الأول تناولنا فيه تصور توماس هوبز للحرب، والمبحث الثاني تطرقنا فيه للنقد الذي قدمه روسو لطرح توماس هوبز والبدل الذي قدمه روسو حول تصور الحرب، وقد خصصنا الخاتمة لعرض أهم نتائج البحث والمسائل البحثية العالقة التي يمكن أن تكون مواضيع أخرى للبحث في المستقبل، أما المفاهيم والمصطلحات والمراجع المثبتة في نهاية الأطروحة فهي دعوة للقارئ الراغب في بحث هذه المواضيع وفق منظور جديد، حيث يمكن أن تكون عاملا مساعدا له.

في الأخير تجدر الإشارة إلى أننا أثناء إنجازنا لهذا العمل قد واجهنا بعض العسوبات التي تطلبت منا جهداً فكرياً إضافياً، وأهم هذه الصعوبات تتمثل في كون الكثير من المراجع والمصادر التي تعالج موضوع الحرب هي مصادر تاريخية وعسكرية ذات صبغة ممارستية وواقعية، هذا ما أجبرنا على بذل المزيد من الجهد قصد تجريد محتواها وقراءتها قراءة فلسفية تتلاءم وطبيعة تخصصنا ومضمون الأطروحة.

الفصل الأول:

تماهي القوّة والحرب.

الفصل الأول: تماهي القوّة والحرب

مدخل: في صناعة المفاهيم وأهميتها البحثية

ركز أغلب من كتب حول مكانة المفاهيم والمقاربة المفاهيمية وأهميتها في البحث الفلسفي، على الطرح الذي قدمه المفكر الفرنسي **جيل دولوز** (1925-1995م) حين اعتبر الفلسفة هي « الحقل المعرفي القائم على إبداع المفاهيم»¹، وعلى محاولة توضيح وبيان الفروق الموجودة بين المفهوم والمصطلحات الأخرى كالفكرة والتصور والتمثل، وهذا وفق ما تفرضه طبيعة كل بحث موضوعه، لكن في هذا المقام نرى ضرورة العودة إلى ما نبه إليه الفيلسوف الإنجليزي **توماس هوبز** (1632م-1704 م) في كتابه **اللفيathan**، ونقصد ربطه بين العبيثية* الطاغية في المؤلفات والكتب الفلسفية مع غياب عنصر هام في استدلالات الفلاسفة والمتمثل في ضرورة البدء «من تعريفات التسميات التي سوف يستخدمها أو شروحها»²، وإذا لم ينكر **هوبز** أنه استوحى هذه

1- جيل دولوز، فليكس غتاري، **ماهي الفلسفة**، ترجمة: مطاع الصفدي، المركز الثقافي العربي، الدار

البيضاء، الطبعة الأولى، 1997، ص 30.

2- توماس هوبز، **اللفيathan**، ترجمة: ديانا حرب وبشرى صعب، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبوظبي، الطبعة الأولى، 2011، ص 55.

الفكرة من المفكر الروماني **ماركوس تيلوسشيشرون** (106-43 ق م) فإنه قد لاحظ أن هذا المنهج لم يكن مستخدماً في زمنه إلا في علم الهندسة، وإلى هذا المنهج يمكن أن تعزى النتائج الأكيدة بشكل قاطع في هذا المجال - وهو يتطابق هنا مع **رينيهديكارت** (1596-1650م) في مسألة يقينية العلم الرياضي - ولقد كانت دعوة **توماس هوبز** للفلسفة تتمثل في اتباع المنهج الهندسي في البحث بالانتقال من تحديد التسميات إلى التأكيدات عن طريق ربط هذه التسميات بعضها ببعض الآخر «ومن ثم إلى القياسات المتعلقة بالموضوع قيد البحث وهذا ما يسميه البشر علماً»¹، فالعلم يتكون أساساً من كلمات معقولة ومجردة من كل إلتباس، وهذا بفضل التعريفات الدقيقة لهذه الكلمات حسب هوبز.

فإذا كان من شروط العلم توفره على موضوع ومنهج وغاية أو أهداف خاصة به، فإنه لا بد له كذلك من لغة خاصة، وتعلمه يقتضي تعلم لغته الخاصة هذه، لغرض القدرة على التواصل بين المشتغلين بالعلم نفسه، على اعتبار أن اللغة هي نسق من العلامات يمكن إتخاذها كوسيلة للتواصل، والعلامة قد تكون رمزاً أو كلمة أو إشارة تحمل دلالة معينة.

والمفهوم باعتباره أحد رموز اللغة العلمية المتخصصة يضع الباحث أمام حتمية وضع وتحديد مجموعة من المفاهيم الضرورية في موضوع بحثه، والتي تمثل الوحدات البنائية الأساسية للنظام المعرفي والمنطقي الذي يسعى الباحث إلى تحقيقه في شكل عمل علمي أو ما نسميه بالبحث، ويمكن لنا فهم ماسبق ذكره بالعودة إلى تعريف المفهوم. فمن الناحية الفلسفية المفهوم هو «تصور ذهني عام ومجرد عن الموجودات، سواء كانت في الذهن أم أعياناً في الواقع»²، ونجد **محمد عليالتهانوي** في موسوعته

1- المرجع السابق، ص 55.

2- محمد سبيلا، دفاعاً عن العقل والحداثة، سلسلة الزمن، العدد 39، الرباط، 2003، ص 128.

كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم يرى أن «المفهوم ما يمكن تصوره، وهو عند المنطقيين ما حصل في العقل سواء بالقوة أم بالفعل، والمفهوم والمعنى متحدان بالذات، فإن كليهما هو الصورة الحاصلة في العقل، وهما مختلفان باعتبار القصد والحصول، فمن حيث الصورة مقصودة باللفظ سميت معنى، ومن حيث أنها حاصلة في العقل سميت بالمفهوم»¹؛ فمن الواضح إذن أن محل المفهوم هو العقل الذي به تكون عملية الفهم والتحليل والاستدلال والاستنتاج وجل العمليات الذهنية التي يقوم بها الباحث في نشاطه العلمي.

يستفاد كذلك من قول **التهانوي** الارتباط الدائم بين المفهوم والمعنى أو الدلالة التي تمنحها للألفاظ والأشياء، أي إن المفاهيم من الناحية الموضوعية تحمل مضامين واحدة ودقيقة، ودلالات لا تختلف باختلاف من يستخدمها من العلماء والمفكرين، هذه المضامين هي السمات والخصائص الجوهرية التي تميز الأشياء أو الألفاظ عن بعضها البعض، وعليه فإننا عندما نقوم بتحديد مفهوم معين لا بد من التركيز على بيان جملة خصائصه التي تميزه عن باقي المفاهيم الأخرى وما يشترك فيه من خصائص مع باقي المفاهيم.

إن اتسام المفاهيم بالرمزية والتجريد والدقة والقدرة على تحديد الخصائص الجوهرية للأشياء، يكسبها مجموعة من الخصائص المشتركة بين جميع المفاهيم، وهي ما يمكن ذكره فيما يلي:

• **التمييز:** فالمفهوم هو عبارة عن تصنيف للأشياء التي يتم التمييز بينها وفق مجموعة من العناصر المشتركة.

1- محمد علي التهانوي، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، الجزء الثاني، تحقيق: علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1996، ص 1716.

• **التعميم والشمولية:** فالمفهوم لا ينطبق على شيء واقعي واحد، بل على مجموعة من الأشياء أو الظواهر التي يمكن أن تحدث في الواقع بطرائق مختلفة

- **الثبات:** ويعني أن المفاهيم تتغير بسرعة أقل بكثير من تغير الحقائق العلمية.
- **الربط:** تساعد المفاهيم على ربط الكثير من الحقائق فيما بينها.

تجدر الملاحظة أنه يجب التركيز أثناء صياغة المفهوم على الخصائص الأساسية، أو العمل على إظهار العلاقة بين مفهومين أو أكثر، أو بالربط بين فكرتين أو مصطلحين لتشكيل مفهوم واحد وجديد، يختلف عنها مثل مصطلح الحرب العادلة، أي الربط بين فكرة الحرب وفكرة العدل.

تكسب الخصائص السابقة الذكر المفاهيم القدرة على أداء وظائف بحثية حددها كل من شاقا فرانكفورت ناشيمار ودافيد ناشيمارفي كتابهما طرق البحث في العلوم الاجتماعية، نلخصها فيما يأتي:

الوظيفة الأولى هي **التواصل** الذي أشرنا إليه سابقا، ويتمثل في القدرة على إيصال نتائج البحث والاستفادة من النتائج التي توصلت إليها الدراسات السابقة في المجال نفسه، هذا ما يضمن نقل واستمرار المعرفة من الأجيال السابقة إلى الأجيال اللاحقة من جهة، ويضمن نمو هذه المعرفة الإنسانية من خلال الوصول إلى اكتشاف حقائق جديدة من جهة أخرى، وعليه فإن وظيفة التواصل هي عامل مهم في إنتاج الفهم المشترك للظواهر المدروسة.

الوظيفة البحثية الثانية للمفهوم هي إعطاء الباحث طريقة خاصة لرؤية موضوع البحث أو منظور تبدو من خلاله مختلف العلاقات التي تربط أجزاء الظاهرة المدروسة، وهو ما يكسب هذه الظاهرة انسجاما وانتظاما لا يمكن إدراكهما قبل

صياغة مفاهيمها الخاصة وإعطائها طابعا رمزيا، فهذه الوظيفة البحثية للمفهوم تجعله يقوم مقام الحواس والتجربة والإدراك المباشر للظاهرة المدروسة.

الوظيفة الثالثة التي يؤديها المفهوم خلال عملية البحث هي تصنيف الظواهر وتعميم الخصائص والتجارب والملاحظات على الظواهر المتشابهة، وهذا باعتبار أن الظاهرة لا تتكرر في حدوثها الواقعي بالطريقة نفسها، لذلك لا بد من السعي لتجاوز ما هو مختلف وغير متكرر في حدوث ظاهرة معينة في الواقع، فعملية التجاوز هذه هي التي تمكن الباحث من استخراج ما هو معقول مما هو منظور في الواقع وبذلك يصل إلى صياغة فكرة مجردة عن الظاهرة.

رابعا وأخيرا، يقوم المفهوم بوظيفة تفسير الظواهر وإعطاء الباحث القدرة على التنبؤ بها، لأن المفاهيم تشكل العناصر الرئيسية للنظرية العلمية التي تفسر الظواهر وتنبأ بها، فكل نظرية إذا ما حللناها نجد أنها تتشكل من مجموعة من مفاهيم، فهي مضمون النظرية وخواصها، على سبيل المثال النظرية الاقتصادية الليبرالية تتكون أساسا من مفهومي العرض والطلب¹.

جدير بالذكر هنا أن هذه الوظائف البحثية للمفهوم تتطابق مع أهداف العلم التي ذكرها موريس أنجرس في كتابه **منهجية البحث في العلوم الإنسانية**، والمتمثلة في الفهم والتفسير والتصنيف والتنبؤ.

1- شاقا فرانكفورت ناشيماز، دافيد ناشيماز، طرائق البحث في العلوم الاجتماعية، ترجمة: ليلي الطويل، دار بتر للنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى، 2004، ص 40.

فمن الواضح أن الباحث لكي يستفيد من الوظائف البحثية للمفهوم لابد عليه أولاً أن يقوم بضبط وتحديد المفهوم أو تعريفه، ذلك يكسبه الدقة والوضوح اللذين يحتاج الباحث إليهما في بحثه، ويمكن أن نميز بين نوعين من التعاريف:

1- التعاريف الإجرائية: وهي تلك التعاريف التي تعطي المفهوم المرجعية التجريبية، أي مجموعة الإجراءات العملية التي تصف الأنشطة التي يحتاجها الباحث لتأسيس الوجود التجريبي للظاهرة التي يتم وصفها من خلال المفهوم¹، هذه التعاريف يستفيد منها أكثر الباحث الناشط في العلوم التي تعتمد على الدراسات الميدانية.

2- التعاريف النظرية: هي تلك التي تصف المفاهيم باستخدام مفاهيم أخرى، فكل تعريف لمفهوم ما يحتاج إلى استخدام مفاهيم أخرى هي بدورها تحتاج إلى تعاريف²، ويستمر الباحث في هذه العملية إلى أن يصل في بحثه إلى نقطة معينة يستخدم فيها مصطلحات أولية لا تحتاج إلى تعريف، هذه التعاريف تستوجب بعض الشروط:

- أولها أن تكون جامعة ومانعة أي «أن يظهر التعريف الخصائص الفريدة لما يتم تعريفه بحيث يتضمن كل الحالات التي يغطيها»³، ويستبعد كل الحالات الأخرى.

- ثانياً، يجب ألا يكون التعريف دائرياً، أي إنه لا يشكل دوراً بحيث لا يتضمن التعريف أي عنصر من الشيء المراد تعريفه، كقولنا في تعريف القوة أنها الخاصية التي يشترك فيها الأقوياء.

- ثالثاً، أن يصاغ التعريف بشكل إيجابي وليس بالسلب، أي سلب الصفات السلبية عليه، مثل تعريف الذكاء: لا لون له ولا شكل.

1 - المرجع نفسه، ص 45.

2- المرجع السابق، ص 42.

3 - المرجع السابق، ص 43.

في الأخير، وكمخلص لما سبق ذكره، نقول بأن البحث النظري له ثلاث مستويات مختلفة على الباحث أن يمر عليها في بحثه، فالمستوى الأول هو المستوى المفاهيمي، وفيه يتم تعيين أهم المفاهيم الخاصة ببحثه أو ما يسمى بمفاتيح البحث، والمستوى الثاني يسمى بالعناصر المفاهيمية، وهي تلك المفاهيم التي تشكل المفهوم الأساسي للبحث، والمستوى الثالث، وهو التعاريف المفاهيمية التي توضح الخصائص الفريدة لما يتم تعريفه.

المبحث الأول: الحرب.

1- لغة:

جاء في لسان العرب، الحرب نقيض السلم، وتقال كذلك ضد ل: أمان، أمن، تفاهم، تحاب، توافق، سكينة، سلام، صلح، هدنة، وهي لفظة مؤنثة، وأصلها الصنعة كأنها مُقَاتَلَةٌ حَرْبٌ، وهذا قول السيرافي¹ فيها²، وتحمل الحرب على معنى القتل أو الهرج، وجمعها حروب، ويقال وقعت بينهم الحرب، وبها تقسم البلدان إلى دار الحرب ويقصد بها بلاد المشركين الذين لا صلح بينهم وبين المسلمين، ودار سلام وهي البلاد المسلمة.

1- هو أبو الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافي المكنى أبو سعيد السيرافي عاش ما بين 284هـ و368هـ الموافق لـ 897م و979م، أصله من مدينة سيراف ببلاد الفرس عاش ببغداد فتولى فيها نيابة القضاء وفيها توفي، هو نحوي وعالم بالأدب كان معتزليا ومن أتباع المذهب الحنفي في الفقه، اشتغل في بداية حياته على نسخ الكتب، له عدة مؤلفات منها: الإقناع في النحو، أخبار النحويين البصريين، صنعة الشعر، شرح كتاب سيبويه.

2- ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، د ط ، د ت ، ص 303.

ومصدر الحرب: حَرَبَ، فهي قتال ونزال بين فئتين، وحاربه مُحَارِبَةٌ
وَحِرَابًا أي قاتله، وتَحَارَبُوا واحتربوا، ورجل مُحْرَبٌ شديد الحرب شجاع¹،
والحِرَابَةُ: الكثيرة السِّلْبِ، والحَرَبُ بالتحريك أن يُسَلب الرجل ماله.

ذكرت الحرب في القرآن الكريم في عدة مواضع وجاءت معانيها
متباينة كذلك، ففي قوله تعالى: «فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم
فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون»، معنى الحرب فيه هو القتل، وفي قوله
تعالى: «إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله»² جاءت بمعنى المعصية، أما في
قوله تعالى: «كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فسادا والله لا يحب
المفسدين»³ فمعنى الحرب فيه هو إثارة الفتنة وتدبير المكائد⁴.

1- غالبا ما يربط العرب بين الحرب والشجاعة التي تفهم على أنها تعني الإقدام على الحرب ومخاطرها
والاستهانة بالموت وطلبها في ميدان المعركة، وقد اعتبروا ذلك من أسباب الوقاية والنجاة بالنفس وليس
مهلكا لها، فقد جاء في كتاب عيون الأخبار لعبد الله بن قتيبة أن العرب تقول: الشجاع مَوْقَى، أي من
الوقاية، ونقل لنا قول الخنساء في المعنى نفسه:

نُهين النفوس وهون النفوس يوم الكريهة أوقى لها

ومثلها قول أبي بكر الصديق لخالد بن الوليد: احرص على الموت توهب لك الحياة.

أنظر: عبد الله بن قتيبة، عيون الأخبار، الحرب والفروسية، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي،
سورية، دمشق، 1977، ص 74، 75، 77.

2- الآية 33 من سورة المائدة.

3- الآية 64 من سورة المائدة.

4- أنظر: ابن منظور، لسان العرب، 303، 304،

أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، المجلد الأول، دار الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى،
2008، ص 547،

- ابراهيم مصطفى، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، 2011، 1972، ص 164.

أما في اللغات الأجنبية، فقد جاء معنى الحرب في اللغة الفرنسية على أنها قتال منظم ودموي بين الدول أو بين الأحزاب، وهي ضد السلم¹، بهذا يكون القاموس الفرنسي قد أبرز دور العقل في ظاهرة الحرب حين وصفها بأنها قتال منظم أي أنها تقوم على التخطيط لكيفية استغلال الوسائل والتنسيق بينها لتحقيق الهدف المسطر، وبالتالي فهي قتال واع بالأهداف والوسائل التي يستخدمها، كما أنها قتال أي عنف جماعي.

في اللغة الانجليزية نجد معنى الحرب قد ورد في قاموس أكسفورد على عدة معانٍ، فتارة يحمل معناها على المدة التي يستمر فيها القتال العسكري فتسمى هذه الفترة بزمان الحرب، وتارة أخرى هي الصراع القوي بين مجموعة من الناس على مناطق من نفوذ معينة، وتارة ثالثة هي الاقتتال بين البلدان أو المجموعات المختلفة داخل البلد الواحد²، ونلفت الانتباه إلى ما قدمه القاموس الانجليزي من إضافة إلى معاني الحرب، فهو قد حملها كما قلنا على الفترة الزمنية التي يستمر فيها القتال وسماها بزمان الحرب، كما ربط بين الحرب والاستخدام المفرط للقوة في الصراع بين الدول، زد على هذا أنه جعل للحرب هدفا وحدده في المصالح أو النفوذ، وفي الأخير أوحى إلى بعض الأسباب المؤدية للحرب وهي الاختلافات الموجودة بين المجموعات المنضوية تحت سلطة دولة واحدة، هذه الاختلافات يمكن أن نفهمها على أنها اختلافات عرقية أو دينية أو لغوية أو غير ذلك.

1- **Pluri dictionnaire La Rousse**, Librairie Larousse, Paris, première, édition, 1977, P 644.

2- Art War, **Oxford Dictionary**, oxford university press, oxford, first published, 1999, p829.

تبعاً لهذا فإن معاني الحرب من الناحية اللغوية هي القتال سواء كان قتالاً فردياً أم قتالاً جماعياً، والهرج، والنزال، والسلب كسلب المال أو سلب النفس، والمعصية، والفتنة، والمكيدة، والصراع الدولي على المصالح، والقتال المنظم والدموي، وتحمل على فترة استمرار القتال، وتقال ضد الأمان، والأمن، والتفاهم، والتحاب، والتوافق، والسكينة، والسلام، والسلم، والصلح، والهدنة، فالحرب من الناحية اللغوية تقال ضد العديد من المفاهيم الدالة على إعمال العقل والتحلي بما تمليه الحكمة.

لا يفوتنا كذلك أن نذكر التصنيفات التي قدمتها المعاجم اللغوية للحرب، فمعجم اللغة العربية المعاصرة قد صنفها كما يلي:

- حرب الاستنزاف: عرفها على أنها مناوشات حربية غير متصلة بقصد استهلاك قوى العدو وإفناء موارده.
- حرب إعلامية: هي حرب تقام بين أجهزة الإعلام في الدول المتنازعة.
- الحرب الأهلية أو الطائفية: صراع مسلح يقع بين أبناء الوطن الواحد.
- حرب الأعصاب أو الحرب النفسية: تهدف إلى إرباك وإنقاص الروح المعنوية للعدو.
- الحرب الجرثومية: حرب تستخدم الجراثيم المؤذية كالبكتريا والفيروسات.
- حرب وقائية: هي حرب يدعى مثيروها أنها حرب دفاعية ويريدون بها حماية بلادهم من الغزو.¹

وردت تصنيفات أخرى في القاموس الفرنسي لاروس Larousse تعتبر قريبة من التصنيفات التي سبق ذكرها، فبالإضافة إلى الحرب الأهلية والحرب

1- أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ص 1356.

النفسية التي ذكرت في معجم اللغة العربية المعاصرة يذكر القاموس الفرنسي أنماط أخرى من الحروب وهي:

- الحرب الباردة: هي حالة علاقات دولية تتميز بسياسة عداء ثابت لتكتلات متخاصمة دون أن تتخذ شكل نزاع مسلح، وهي حالة تحدد العلاقات بين الاتحاد السوفياتي والعالم الغربي في النصف الثاني من القرن العشرين.
- الحرب المقدسة والحرب الدينية: هي حرب تخاض باسم الدين مثل الحروب الصليبية¹.

الملاحظ هنا وبشكل واضح هو أن هذه التصنيفات التي تقدمها المعاجم اللغوية للحرب يمكن اختصارها واختزالها في بعض الفئات وذلك حسب العناصر المتلائمة مع بعضها البعض أو المتقاربة، فالفئة الأولى اعتمدت على عنصر الوسائل أو الأسلحة المستخدمة في الحرب، وتضم الحرب الباردة والحرب المقدسة أو الدينية والحرب الإعلامية والحرب الجرثومية والحرب النووية، والفئة الثانية قائمة على عنصر الأطراف المشاركة في القتال أو الصراع مثل الحرب الطائفية أو الأهلية والحرب العالمية والحرب القائمة بين دولتين أو أكثر، والفئة الثالثة يجمعها عنصر ثالث هو الأهداف التي تحرك الحرب مثل الحرب الوقائية والحرب النفسية وحرب الاستنزاف.

2- اصطلاحا:

1- **Pluri dictionnaire La Rousse**, Librairie Larousse, Paris, première, édition, 1977, P 644.

جاء المعنى الاصطلاحي للحرب متباينا بين مختلف المعاجم والموسوعات الاصطلاحية المتخصصة وهذا حسب تباين التخصصات، فالحرب كمصطلح قد اهتم به واشتغل عليه علماء السياسية ورجال القانون والفلاسفة وعلماء الاجتماع وفقهاء الدين وخاصة المعنيون مباشرة بالحرب وهم العسكريون وبالتدقيق الاستراتيجيون، ومن أجل بلوغ صياغة مفهوم اصطلاحي للحرب وتحديد معناها من كل الجوانب نرى ضرورة التطرق لمختلف الزوايا التي تمالنظر منها إلى ظاهرة الحرب بحيث نقدم نموذجا لمفهوم الحرب عند كل فئة من الفئات التي سبق ذكرها ونؤجل الحديث عن مفهوم الحرب عند الفلاسفة إلى الفصول القادمة.

2-1 - الحرب عند علماء الاستراتيجية:

يمكن اعتماد مفهوم الحرب عند الجنرال كارل فون كلاوزوفيتز¹ (1780- 1831 م) كنموذج للمفهوم عند علماء الاستراتيجية

1- هو كارل فون كلاوزوفيتز Carl Van Clausewitz ولد بتاريخ 01 جوان 1780م في مدينة ماغديبورغ الألمانية و توفي في 16 نوفمبر 1831م بمرض الكوليرا، هو جنرال ومؤرخ ألماني بروسي التحق بالجيش في سن مبكرة للتأهيل كضابط بأكاديمية في برلين، وهناك أظهر إمكانيات كبيرة وعين ضابطا معاوناً للأمير أوجست أمير بروسيا، شارك في العديد من الحملات العسكرية مثل حملة فيينا عام 1806م أين اعتقل ، وبعد إطلاق سراحه اشتغل في هيئة الأركان البروسية و اشترك في إعادة تشكيل الجيش، ثم تولى التعليم العسكري، واشترك في حرب نابليون ضد روسيا رغم اعتراضه على التحالف مع فرنسا، وبعدها عاد إلى بلاده وتولى منصب رئيس أركان الحرب في إحدى جيوش ألمانيا، ثم عين مديراً لإداريا لأكاديمية كريجر، وفي عام 1831م تولى قيادة أركان الجيش البروسي المكلف بمراقبة التمرد البولوني إلا أنه لم يستمر طويلاً في منصبه هذا بسبب المرض وتوفي في 16 نوفمبر 1831م بداء

العسكرية بحكم أنه عسكري عرف الحرب في الميدان وهو رجل علم ألف العديد من الكتب في الموضوع وأهمها كتابه «**عن الحرب**» والذي يعرف فيه الحرب بقوله: «فالحرب ليست في النهاية سوى مبارزة على نطاق واسع، وإن بوسع ما لا يحصى من المبارزات أن تصنع حرباً، إلا أن صورتها ككل يمكن أن تتشكل بتصور اثنين من المتصارعين، يسعى كل منهما وبفعل قوته المادية لإجبار خصمه على الخضوع لمشيئته، وغايته الآنية إلقاء خصمه أرضاً لجعله عاجزاً عن إبداء أية مقاومة، وهكذا فالحرب عمل من أعمال القوة لإجبار العدو على تنفيذ مشيئتنا»¹، إن التدقيق في تعريف كلاوزوفيتز للحرب والعمل على تفكيكه يظهر لنا مختلف العناصر التي تدخل في بنية تصوره للحرب كإستراتيجية²، فالحرب في نظر هذا

الكوليرا، كتب كلاوزوفيتز في العديد من المجالات كالتاريخ العسكري والفلسفة والسياسة والنظريات الحربية، وتبقى أهم مؤلفاته هو كتابه الموسوم بعنوان **عن الحرب**.

1- كارل فون كلاوزوفيتز، **عن الحرب**، ترجمة: سليم شاكراً الإمامي، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، 1998م، ص 103.

2- **الاستراتيجية** : هي مفهوم يستخدم في الكثير من المجالات التي تستوجب التخطيط الدقيق لما ينبغي انجازه على المدى المتوسط والبعيد مثل المجال الاقتصادي والسياسي وحتى التربوي، ولكن في الغالب يكون مدلولها عسكري، لأنها توجي إلى الاستخدام الحربي، هذا الاستخدام غرضه وضع الخطط الحربية والإعداد للحرب من كل الجوانب قبل وقوعها، أو رسم خطة لحماية الدولة من أي هجوم محتمل، وهذا ما جعل الاستراتيجية تصنف ضمن الفنون العسكرية الذي يهدف إلى تهيئة كل الظروف المناسبة لتعامل مع كل ما يمكن أن ينتج عن حالة حرب، ونجد **أندري غلوكسمان** في كتابه **خطاب الحرب** يجعل من الاستراتيجية تتعامل مع ما لا يكون عسكرياً خالصاً، بل تقوم على أساس معادلة السياسي والعسكري ، فالاستراتيجية عنده هي الالتزام بالهدف وفقاً للغاية التي يسندها المرء للحرب، أي أنها تصنع خطة الحرب وتعلق على الهدف المعني سلسلة من الإجراءات التي من المحتمل أن تحققها.

تتشكل الاستراتيجية عند **غلوكسمان** من الفضاء أو المكان و الوقت والأسلحة، يرى فيما يخص المكان أن الخريطة الاستراتيجية ليست الإقليم الجغرافي فقط، فخطة الحرب تستخدم الانكسارات الميدانية في ميدان المعركة وفقاً لمتطلباتها الخاصة، فمفهوم الحرب هو الذي يحدّد الوحدة والعمق واتجاه الفضاء الاستراتيجي، أما فيما يخص عنصر الوقت فهو يعتبره شكلاً استراتيجياً أكثر أهمية من الفضاء أو المكان ، فالحرب لا تتكون من طرفة واحدة دون مدة أو أمد، ويعتقد أنه استراتيجياً يتم تحديد هذه المدة من خلال عمل المدافع، والعنصر الأخير وهو الأسلحة، يرى أن مفهوم الحرب لا يحدد فقط شكل المعركة بل يحدد كذلك الوسائل،

الاستراتيجي الألماني لها ماهية وطبيعة، ولها منشئ معين ودوافع، وتسعى لهدف وغاية وتتهج خطة محددة وتستعين بوسائل وهذا ما يجعل لها مضمونا، كما أن للحرب مركزا عند كلاوزوفيتز ولها نتائج مثل غيرها من الظواهر الاجتماعية، بيد أنه يركز على أن هذه العناصر في جملتها تتلون بصبغة سياسية كما سيتبين لنا لاحقا.

الحرب هي صراع ومبارزة وقاتل بين الأفراد والدول، وهي - أي الحرب- عمل بالغ الخطورة¹، وحقيقة الحرب أو ماهيتها حسب كلاوزوفيتز تكمن فيما بين مخاطرها الهينة إلى الوحشية القاسية²، لهذا قد نعتبر بعض الصراعات أنها خارج إطار الحروب بحكم أن المخاطر التي يخوضها المتصارعون تبدو هينة مقارنة

ويوضح تاريخ التسلح جميع الاكتشافات الفنية في الأسلحة والتنظيم والتكتيكات ومبادئ استخدام القوات في المعركة.

- André GLUCKSMANN, Le Discours De La Guerre, édition de l'herne; paris ; France ;1974.p 73.74.78 .

ونجد في تراثنا الفكري الإسلامي أفكار تتطابق مع ما ذكره أندري غلوكسمان في موضوع عناصر الاستراتيجية، ونذكر هنا أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان المالقي المولود في عام 1381م صاحب كتاب الشهب اللامعة في السياسة النافعة، يذكر في باب سياسة الحروب وتديريها، أنه يلزم أمير الجيش عشرة أشياء، فالأمر الثاني يخص المكان ويرى أن يتخير لهم موضع نزولهم لمحاربة عدوهم، وذلك بأن يكون أوطأ الأرض...، أحرسها أكتافا وأطرافا، ليكون أعون لهم على المنازلة وأقوى لهم على المرابطة، ويذكر في الأمر الخامس ترتيب الجيش في مصاف الحرب والعويل وفي كل جهة على من يراه كفنا لها، كما أنه لم يغفل على مسألة الوقت إذ يذكر أن أفضل أوقات الحرب آخر النهار وينقل عن سبقه أن العجم قالت آخر الحرب ما استطعت، فإن لم تجد بدا فاجعل ذلك في آخر النهار، واضح للقارئ تطابق العناصر التي ركز كلاهما عليها وهي المكان والوقت و وسائل الحرب.

أبي القاسم ابن رضوان المالقي، الشهب اللامعة في السياسة النافعة، تحقيق: علي سامي النشار، مصر، دار السلام للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، عام 2007م، ص 360،361،362،363،364.

1- كلاوزوفيتز، عن الحرب، ص 104.

2- المصدر نفسه، ص 104.

بتلك السائدة في الحروب الكبرى والناجمة عن كون كلا طرفي الحرب مجبرين على الاستخدام الأقصى للقوة دون أي شعور بالندم ودون أن يأبه لسفك الدماء الذي سينجم عن ذلك، والسبب مرده إلى أن «الحرب ليست عمل قوّة حية ضد كتلة ميتة -فالمقاومة الكلية ليست حرباً- بل إنها وعلى الدوام اصطدام بين قوتين حيتين»¹، فطبيعة الحرب إذن تجعل منها تدافعا بين طرفين أو أكثر، وتجبر كل طرف على أن يدفع الطرف الآخر إلى النهاية القصوى في استخدام القوّة، ومن هنا يستنتج كلاوزوفيتز أن العوامل الوحيدة والمحددة لدرجة شدة الصراع بين الدول المتحاربة هي ما أسماه بالتوازن المتقابل والمتأصل في الحرب²، ويقصد به أن التزايد الطردي لقوى طرفي الصراع هو الذي يقود إلى الاستخدام الأقصى للقوّة في الحرب ويجعل منها عملا بالغ الخطورة.

من جهة أخرى نقول إن كلاوزوفيتز لما جعل الحرب في طبيعتها هي في الغالب صراع بين الدول يكون بذلك قد صرح بالسبب الذي يجعلها ذات صبغة سياسية، بمعنى أن الحرب هي في الأصل ظاهرة سياسية تتجسد من خلالها علاقات تفاعل خاص بين الدول المتحاربة، وهذا التفاعل يشتمل على خصوصية استخدام القوّة المفرطة.

يفهم من هذا أن الحرب لا تنشأ من العدم، وليست ظاهرة مستقلة، إنما الحرب هي استمرار للسياسة بوسائل مختلفة، بمعنى أن السياسات السابقة عن نشوب الحرب والمنتجة من طرف الدول المتحاربة والظروف الاجتماعية السائدة هي التي

1-المصدر نفسه، ص 107.

2-المصدر نفسه، ص 104.

أدت إلى نشوب الحرب بينها، يقول **كلاوزوفيتز**: «إن الحرب بين الأمم المتحضرة أقل وحشية وتدميراً من الحرب بين الهمجيين، فالسبب يكمن في الظروف الاجتماعية لتلك الدول نفسها، وفي علاقتها مع بعضها البعض وتلك هي العوامل التي تفجر الحرب»¹، وواضح من هذا القول أن كلاوزوفيتز قد جعل مصدر الحرب سياسي وإن أضاف إليه الظروف الاجتماعية، لكن يمكن اعتبار هذه الأخيرة هي من أهم إفرزات السياسات المنتهجة، وبالتالي فمصدرها سياسي.

الدافع إلى الحرب عند هذا الاستراتيجي الألماني يتحدد في نوعين مختلفين من الدوافع، يقول: «الدوافع التي تجعل الرجال يقاتل بعضهم بعضاً: المشاعر العدائية² والنوايا العدوانية»³، ولكن كلاوزوفيتز يرى الدوافع الحقيقية

1- كلاوزوفيتز، **عن الحرب**، ص 105.

2 - يقول عالم النفس النمساوي ألفريد أدلر في كتابه **الطبيعة البشرية** عن المشاعر العدوانية أن العواطف تعبر عن نفسها في تدفقات مفاجئة تحت ضغط ضرورة من الضرورات الواعية أو غير الواعية...لها اتجاه محدد تتخذه في سعيها نحو الهدف المحدد...والمشاعر تعمل على زيادة وضوح الحركات العنيفة التي تحدث للفرد الذي هجر الآليات الأخرى الهادفة إلى الوصول لهدفه النهائي، أو فقد إيمانيه بإمكانية استخدام أي وسائل أخرى في الوصول لهذا الهدف.

يضيف ألفريد أدلر أنه لا يمكن للفرد أن يغضب بدون أن يكون له **عدو**، وبالمثل فإنه من غير الممكن أن تفهم **عاطفة الغضب** بدون أن نأخذ في عين الاعتبار أن هذه العاطفة تتمثل في محاولة الانتصار على هذا العدو، أما الغضب فهو عند ألفريد أدلر شعور يجسد سعي الفرد الحثيث للوصول إلى المزيد من القوة والسيطرة، وغرض هذا الشعور هو التدمير القوي والسريع لكل العوائق التي تعترض طريق الفرد الغاضب، وهذا الأخير، يعرفه بأنه ذلك الفرد الذي يسعى بشدة نحو التفوق من خلال الوسائل المتاحة استخدامها للقوى المتوفرة له، من هنا يستنتج ألفريد أدلر أنه في حالات معينة يتحول الغضب إلى **جنون قوّة حقيقي**.

- ألفريد أدلر، **الطبيعة البشرية**، ترجمة: عادل نجيب بشرى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة

الأولى، سنة 2005، ص 261، 262، 263.

3- كلاوزوفيتز، **عن الحرب**، ص 105.

للحرب تستند على النوع الثاني، أي النوايا العدوانية فهو يعتقد أنه إذا أستعد طرفان للحرب فلا بد أن بعض الدوافع العدوانية قد أوصلتهم إلى تلك النقطة ، ويجزم على دوام قوّة وفعالية هذا الحافز العدائي مادام الطرفان تحت السلاح، فالنوايا العدائية هي عنصر جامع باعتبار استحالة نشوء العواطف والمشاعر العدوانية والوحشية بما في ذلك العواطف الغريزية دون نوايا عدوانية.

من جهة أخرى، يرى كلاوزوفيتز إمكانية أن نجد نوايا عدوانية تجاه العدو تكون غير مصحوبة بأي نوع من المشاعر العدوانية، وهذا حال الشعوب المتحضرة والمحكومين بالعقل، لكن هذا لا يعني أن «الحرب التي تنتشب بين شعوب متمدنة هي وعلى الدوام بفعل الإرادة العقلية، أو كعمل مدروس من وجهة نظر حكوماتها»¹، تبعا لهذا القول يتضح لنا أن الدوافع إلى الحرب هي بالدرجة الأولى دوافع سياسية سماها كلاوزوفيتز باسم **النوايا العدائية** وجعل محلها العقل والفكر²، بالرغم من أنه لم ينكر إمكانية وجود عواطف عدائية كأحد دوافع التقاتل والحرب.

غاية هذا التقاتل أو إعلان الحرب على العدو هو إخضاعه لمشيئتك، ولن يكون لك ذلك حسب كلاوزوفيتز إلا بوضع العدو «في موقف أسوأ حتى من التضحيات التي نطالبه بتقديمها، وأن لا تكون مصاعب هذا الموقف الذي نضعه فيه عارضة

1- كلاوزوفيتز، عن الحرب ، ص 105.

2 - يبدو أن إعمال العقل في الحرب بين الأمم المتحضرة قد أدى إلى التخفيف من حدتها وإنفاص وحشيتها، فالأمم المتمدنة لم تعد تقتل أسراها أو تدمر المدن والأقاليم المعادية، لكن الواقع أن العقل قد أرشدهم إلى طرق أكثر فعالية في استخدام القوّة من مجرد إطلاق العنان للغرائز الوحشية في الحرب حسب كلاوزوفيتز، ومن بين هذه الطرق التي ابتكرها العقل من أجل بلوغ الهدف المنشود من الحرب نذكر المساومة أو دفع العدو للتفاوض أو تأليب الرأي العام الداخلي أو الدولي على العدو وغيرها.

أو مؤقتة بطبيعة الحال»¹، هذه الغاية التي حددها كلاوزوفيتز للحرب لن تتحقق إلا بجعل العدو عاجزا عن الدفاع بالمعنى الحرفي للكلمة، ولكن هذا الهدف هو هدف عسكري للحرب ولا يعتبر هو الهدف الحقيقي لها، فهذا الأخير أو الغاية النهائية للحرب هو وسيلة لبلوغ غاية سياسية لها، والتي عبر عنها كلاوزوفيتز بالقول: «الهدف السياسي والذي كان هو الباعث والمحرز الأساسي يجب أن يكون العامل الرئيسي في المعادلة»²، فهو يجزم أن الحرب تشن بهدف التدمير الكامل للعدو، تدمير هذا العدو كنظام سياسي، وإجباره على قبول أية شروط ومهما كانت طبيعتها، أو بهدف اكتساب أو احتلال الأرض لأجل الاحتفاظ أو ضم ما تم اكتسابه، أو من أجل المساومة على الأرض المحتلة في مفاوضات السلام.

نرى هنا بشكل جلي السمة السياسية لأهداف وغايات الحرب، هذه الأهداف السياسية هي التي سوف تقرر ما إذا كان الصراع مجددا أم لا؟ لأنه ينشأ من وضع سياسي ويخدم غاية أو غايات سياسية.

لتحقيق هذه الأهداف السياسية والعسكرية للحرب لا بد لها من خطة استراتيجية، هذه الأخيرة تحددها سياسة رشيدة تسيطر على الحرب، ففي الحرب غالبا ما يكون ما يفعله المرء له أهمية أقل بالمقارنة مع أهمية الكيفية التي ينجز بها هذا العمل، يقول كلاوزوفيتز في هذا السياق: «يحتاج كل عمل إلى وقت محدد لإكماله، وتعرف تلك الفترة بمدة العمل أو أمده، يعتمد طول تلك المدة على السرعة التي سينجز بها ذلك العمل... فلو سمح بإعطاء كل عمل في الحرب مدة مناسبة له فسنوفق ولو في البداية على الأقل بأن أية إضافة في الوقت وأي إيقاف أو تعليق العمل العسكري، ليست سوى مضيعة للوقت، وعليه يجب أن نتذكر... أن ما

1 - كلاوزوفيتز، عن الحرب، ص 106.

2 - المصدر نفسه، ص 111، 112.

نتحدث عنه ليس التقدم الذي يحرزها هذا الطرف أو ذلك، بل عن تقدم وتتابع التفاعل العسكري ككل»¹، هذا التفاعل العسكري يقصد به الكيفية التي ينجز بها العمل العسكري، وتعني في الواقع التصميم المتقن² و الإصرار على تنفيذ هذا المخطط بأسلوب وأفكار بسيطة، وهذه هي أضمن الطرق للوصول إلى الهدف حسب كلاوزوفيتز، كما تقتضي الحرب من ناحية التخطيط أن يتم توزيع الجهد والعنف في أعلى درجاته خلال كل فترة الحرب، لأن خطة الحرب هي نتيجة مباشرة للظروف السياسية للدول المتحاربة، بمعنى أن العناصر الأساسية للخطة الحربية هي في طبيعتها عناصر سياسية وتزداد سمتها السياسية كلما اتسع نطاق الخطة، لأن القوى الاجتماعية هي التي تتحكم بالنموذج العسكري حسب طاقات الدولة.

إن خطة الحرب كما وضعناها تجعل للحرب مركزا وهو العنف، وهو ما يمكن الوصول إليه من خلال تأمل تعريف كلاوزوفيتز للحرب حين يقول: «الحرب مظهر مطلق وصريح وكامل وغير مقيد للعنف... كما يوحي بذلك مفهومها الخالص»³، فالحرب تحمل في معناها الاستخدام الغير مقيد بأي شكل من الأشكال للعنف المطلق، فكل عمل وسيلة وكل جهد من شأنه أن يقدم إضافة تساعد على

1 - كلاوزوفيتز، عن الحرب ، ص 113.

2 - التصميم المتقن كما وصفه كلاوزوفيتز يمكن أن يطلق عليه في اللغة العربية مصطلح الكيد، والذي يعني من الناحية اللغوية حسب ما جاء في معجم المعاني الجامع، الكيد: إرادة مضرّة غير الخفية، وفي قاموس المعجم الوسيط، كيد: المكر والخبث كالمكيدة والحيلة والحرب، ومن الناحية الاصطلاحية نجد السيوطي يعتبره إرادة متضمنة لاستتار ما يراد عن يراد به، وقال الجرجاني، الكيد إرادة مضرّة غير الخفية، وهو من الخلق: الحيلة السيئة.

نلاحظ هنا تقارب المعنى بين ما ذهب إليه علماء اللغة العرب وما قصده كلاوزوفيتز بالكيفية التي يجب أن تتجز بها الأعمال العسكرية في الحرب.

3- كلاوزوفيتز، عن الحرب، ص 120.

إخضاع العدو تكون مطلوبة في زمن الحرب، لهذا يعرف العنف الذي يشكل مركز الحرب على أنه «تأثير القوّة الذي لا يتطور دائما بنفس الطريقة ولا بنفس الدرجة...فهو مختلف في القوّة ويختلف في السرعة التي سينفجر بها ويفرغ طاقته»¹ ، وهذا حسب ظروف الدول المتحاربة والهدف المسطر للحرب من الناحيتين السياسية والعسكرية، فالحرب إذاً طوفان من العنف ومجرد احتمال وقوعها يستوجب أن يكون كل عنصر من العناصر السياسية مطوقا بالعنف² ، هذا الاستعداد للحرب ومباشرتها فيما بعد يجعلها ذات أبعاد ثلاثة يتقاسمها الشعب والجيش وقادته والحكومة، وهو ما يؤدي بالحرب إلى أن تصبح ظاهرة شاملة، تنقسم العناصر الثلاثة السالفة الذكر ثلاث عواطف يحددها كلاوزوفيتز بقوله: « كظاهرة شاملة فإن توجهاتها الحاكمة تجعل الحرب دائما ثلاثية...تتألف من عنف بدائي، وحقد، وعدوانية...يتعلق أول تلك الجوانب بالشعب بشكل أساسي، أما الثاني فبالقائد وجيشه، أما الثالث فبالحكومة، لا بد أن تكون العواطف التي سنتيرها الحرب متأصلة في الشعب»³، الملاحظ من هذا القول أن صاحبه لا يجعل من العنف مركز الحرب فقط، بل حدد محل هذا العنف في الشعب بشكل أساسي وبدائي وهذا العنف يأخذ أشكال أخرى عند طبقة الجند على حد تعبير أفلاطون وعند الساسة كذلك، فيتجلى كحقد عند الجيش وكعدوانية عند الساسة وهذا ما يكسب عنف الحرب مسحة سياسية.

إن العنف الذي يشكل مركز الحرب لا يمكن ترجمته واقعيا إلا من خلال ما أسماه كلاوزوفيتز **بمضمون الحرب**، إنه مصطلح أطلقه على كل الوسائل

1- المصدر نفسه، ص121.

2- المصدر نفسه، ص122.

3 - كلاوزوفيتز، عن الحرب، ص123، 124.

التي يمكن أن تكون أداة من أدوات الحرب، هذا ما يتطابق تماما مع تعريفه للحرب على أنها استمرار للسياسة بوسائل أخرى، هذه الوسائل الأخرى هي التي تشكل مضمون الحرب، وهي الأدوات التي يستغلها قائد الحرب من أجل خلق مظاهر العنف والتدمير في المعارك، وأهم عنصر من العناصر المشكلة لهذا المضمون هو عنصر الإستراتيجية التي يعرفها كلاوزوفيتز على أنها: «استخدام اشتباك ما من أجل هدف الحرب»¹، أي إنه يعتقد بأن الاستراتيجية تتجسد أساسا في الاشتباك مع العدو، هذا ما يحيلنا إلى القول إن الإستراتيجية كتصور تحتاج بدورها إلى وسائل أخرى لكي تتجسد واقعا وأهم وسيلة تعتمد عليها في ذلك هي القوات المسلحة باعتبار أن هذه الأخيرة تشكل الوسيلة الرئيسة في عملية التنفيذ، ينتهي كلاوزوفيتز هنا إلى اعتبار القوات المسلحة حق خاص للاستراتيجي وكذلك علاقة هذه القوات المسلحة مع العوامل الأخرى المادية والنفسية والمعنوية² وكل ما/ ومن يشارك في الحرب بطريقة مباشرة أو غير مباشرة هو حق للاستراتيجي.

يمكننا انطلاقا مما سبق ذكره أن نفهم سبب ربط كلاوزوفيتز بين هذا الحق للاستراتيجي وقوله بأن هذا الحق هو «الذي يفرض ذهاب الاستراتيجي في الحملات بنفسه»³، وقد علل موقفه هذا بضرورة تسهيل عملية إصدار الأوامر في

1 - المصدر نفسه، ص 245.

2- العوامل المعنوية: يقصد بها الروح التي تتخلل الحرب ككل والإرادة التي تفود وتحرك القوة المحتشدة، يجعل كلاوزوفيتز أهم هذه العوامل ممثلة في مهارة القائد وخبرة وشجاعة القطاعات وروحها الوطنية، بالإضافة إلى المشاعر القومية للقطاعات مثل الحماس والتعصب الديني و الإيمان و الإقدام و المزاج العام للقوات المسلحة، والروح الحربية تخلق وتستمد من سلسلة الانتصارات الحربية والجهد المستديم الذي يبذله الجيش لبلوغ الحد لأقصى لطاقته، هذه الروح التي تخلق زمن حرب عند القادة والجند تدوم لفترة طويلة حتى وإن طالقت فترة السلم بعد انتهاء الحرب.

3 - كلاوزوفيتز، عن الحرب، ص 245.

ساحة المعركة أو تعديل الخطة وفقا للتغيرات المستمرة للوضع أثناء الاشتباك، ويفهم من هذا كذلك أن الاستراتيجية تبقى متعلقة بكل «أجزاء ومكونات الحرب وعلاقتها مع بعضها البعض»¹، وبالتالي يصبح الربط مستساغ هنا بين الاستراتيجي وأجزاء الحرب فهو من يقوم باستغلال هذه الأجزاء والمكونات من أجل تحقيق هدف الحرب، تبعا لهذا يضيف كلاوزوفيتز إن «أي موهبة عقلية فائقة ولا اعتيادية مطلوبة للمحافظة على الصورة بكاملها حية وثابتة في الفكر»²، فكل نشاط معقد يحتاج إلى موهبة فكرية مناسبة ومزاج خاص من أجل تنفذه بدرجة عالية من البراعة، هذه الموهبة العقلية هي العبقرية التي حدد معناها بقوله: «هي جدارة عقلية عالية ومتطورة في حرفة واختصاص معين»³، وتظهر في مجال الحرب من خلال قدرة القائد أو الاستراتيجي على المواءمة بين الأهداف التي يسعى لتحقيقها والموارد التي يمتلكها، ويعتقد كلاوزوفيتز أن تأثير عبقرية القائد يظهر في النجاح النهائي للعمل ككل.

فالحرب يعتبرها كلاوزوفيتز من الناحية الإستراتيجية عملا متكاملا بين عدة عوامل، هذا العمل أو الحرب قائم على «تضارب مصالح القائدين مع بعضهما البعض وبدرجة متعادلة»⁴، يستنتج من هذا أن التفكير في موضوع الحرب يكون عل نحو يفضي بنا إلى قبول طبيعة ثنائية للحرب.

إن مبدأ ثنائية الحرب الذي تكلم عنه كلاوزوفيتز يظهر في النقاط التالية:

1 - المصدر نفسه، ص 246.

2 - المصدر نفسه، ص 246.

3 - كلاوزوفيتز، عن الحرب، ص 137.

4 - المصدر نفسه، ص 115.

أولها الاشتراك في الهدف بين المتحاربين وهو هدف الانتصار الذي يجعل أحد الأطراف يظفر بالنصر والآخر بالهزيمة «وهذه هي إحدى قضايا الثنائية الحقيقية طالما سيلغي انتصار أحد الطرفين انتصار الطرف الآخر»¹، وينطبق الأمر عينه على العلاقات الخارجية للأطراف المتحاربة، فتحالف أحد أطراف الحرب مع طرف ثالث يجعل من هذا الحليف عدوا بالضرورة للطرف الثاني في الحرب، فالتحالفات من بين أهم ظواهر السياسة الدولية أثناء فترات السلم والحرب، وقد عبر عنها **دونالد ميشيل** بقوله: «عندما كان ثمة شخص واحد في العالم عَرَف السلام، وعندما كان ثمة شخصان عَرَف الصراع، وعندما كان ثمة ثلاثة أشخاص عَرَف التحالفات»²، فالتحالفات ظاهرة طبيعية في الحياة العادية وفي السياسة الدولية خاصة أثناء الحروب لأنها من بين أهم وسائل توازن القوى في العالم وهو ما يثبت طرح كلاوزوفيتز حين جعلها ضمن دلالات الطبيعة الثنائية للحرب.

النقطة الثانية التي تظهر من خلالها ثنائية الحرب بشكل حقيقي تكمن في النتائج الجزئية للعمل الحربي ذلك أن «كل ميزة (فائدة) يكسبها أحد الطرفين ستشكل خسارة (ضررا) معادلا للآخر»³، فالتدافع في الحرب يكون حول أهداف ذات اهتمام مشترك بين الأطراف المتحاربة، ويجعل هذه الثنائية ميزة/ضرر أو فائدة/ خسارة تطفو على التناقض بين الأطراف المتحاربة بخصوص أشياء بعينها.

1- المصدر نفسه، ص 115.

2- دونالد ميشيل، نقلا عن: ممدوح محمود منصور، سياسة التحالف الدولي، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1997م، ص 136.

3 - كلاوزوفيتز، عن الحرب، ص 116.

النقطة الثالثة التي يتجلى من خلالها مبدأ ثنائية الحرب هي الحسم، يقول كلاوزوفيتز: «إن أراد أحد القائدين تأجيل القرار، فلا بد أن الطرف الآخر سيحاول تعجيل اتخاذ، مفترضين دائما أن الطرفين يخوضان نوعا واحدا من القتال»¹، هذه الثنائية التعجيل/ التأجيل في اتخاذ قرار الحسم في الحرب أو المعركة قائمة على مسألة جاهزية أحد الأطراف للحسم وفقدان الجاهزية عن الطرف الثاني، لذلك يحاول كل منهما استغلال ظروفه وظروف خصمه من أجل حسم الحرب أو المعركة لصالحه أو منع هذا الحسم عن عدوه.

الملفت للانتباه عند كلاوزوفيتز هو إقراره باختلاف الهجوم والدفاع في الحرب أو الحرب الهجومية والحرب الدفاعية إلا أنه يرى أن مبدأ الثنائية لا ينطبق عليهما فهما مختلفان في النوع وليس متعادلين في القوة، يقول في هذا: «هناك شكلين متميزين من العمل في الحرب وهما: الهجوم والدفاع... هذان الشكلان مختلفان للغاية ولا يتساويان في القوة، لا تكمن الثنائية القطبية في الهجوم أو الدفاع ولكن في الهدف الذي يسعيان لتحقيقه»²، فالتمايز البين في القوة بين الهجوم والدفاع يسقط صفة الثنائية عليهما، ويستدل كلاوزوفيتز على موقفه هذا بقناعته التامة بتفوق الدفاع على الهجوم تفوقا كبيرا، وهذا التفوق تنجر عنه فترات كثيرة من الجمود والتعطل في العمل الحربي وتعليقه، وهذا في نظره سبب كافٍ يجعله يقول أن الهجوم/ الدفاع لا ينطبق عليه مبدأ الثنائية.

الجزء الأخير من أجزاء الحرب حسب النظرة الإستراتيجية هو النتائج، هذا الجزء يرتبط ارتباطا وثيقا مع جزء آخر من أجزاء الحرب وهو غاية الحرب أو هدفها والذي تطرقنا إليه سابقا.

1 - المصدر نفسه، ص 116.

2 - كلاوزوفيتز، عن الحرب، ص 116.

يحدّد كلاوزوفيتز نتائج الحرب التي يصبو إليها كل قائد بتدمير قوات العدو، وهذا هو ما يحدّد نتيجة الحرب إن كانت نصراً أم هزيمة، وليس احتلال قطعة من الأرض ولا احتلال القلاع، وقد أقام كلاوزوفيتز موقفه هذا على أساس أن الغاية من الحرب كما ذكرنا سابقاً هي سلب العدو كل قوته وجعله في وضع عاجز عن الدفاع عن مصالحه وهذا لن يتأتى إلا بتدمير شامل لقوات العدو.

من خلال عرضنا للنظرة الإستراتيجية لمختلف العناصر التي تشكل بنية الحرب من ماهية ومنشأ ودوافع وهدف ومركز ونتائج نخلص إلى حيث خلص الاستراتيجي الألماني كلاوزوفيتز، حيث يتبين لنا أن الحرب هي أداة سياسية بامتياز من وجهة نظر إستراتيجية، فالتمعن في الحرب يجعلنا ندرك أنها تختلف عن كل الاهتمامات الأخرى للإنسان، ولكنها تبقى تشكل أحد عناصر الحياة الحقيقية التي يمارسها البشر في كل زمان ومكان، وهذا ما جعل كلاوزوفيتز يستنتج أن «الحرب فرع من النشاط السياسي، وأنها ليست مستقلة على أية حال من الأحوال»¹ ودليله في ذلك أن السياسة هي المصدر الوحيد للحرب، والسياسة هي بطبيعة الحال تلخص في تعامل وعلاقات الحكومات والشعوب، والحرب في نظره هي «ببساطة استمرار للعلاقات السياسية بالإضافة إلى وسائل أخرى»²، بمعنى أن العلاقات السياسية في شكل المراسلات الدبلوماسية والمعاهدات والاتفاقيات وغيرها لا تتوقف أثناء الحرب، ولكن بالإضافة إلى هذا النمط من التعامل بين الدول يظهر نمط جديد من التعامل بينها أثناء الحرب وهو ما عبر عنه كلاوزوفيتز بالوسائل الأخرى، هذه الوسائل الأخرى تتجسد في القوة والحلفاء وكل ما يمكن أن يشكل

1 - كلاوزوفيتز، عن الحرب، ص 835.

2 - المصدر نفسه، ص 835.

عنصرا من عناصر مضمون الحرب، وهي كلها في طبيعتها عناصر سياسية ويستحيل فصلها عن الحرب.

يخلص إذن كلاوزوفيتز إلى القول بأن الحرب «لابد من التعامل معها كجزء من كل أكبر، هو السياسة»¹، وبهذا يكون قد أضفى صبغة سياسية على الحرب برمتها، فهو يؤكد على كون الحرب آلة بيد السياسة، وينتج عن ذلك أن الحرب تنتم بسمات السياسة وبمعاييرها²، بمعنى أن إدارة الحرب هي الإدارة السياسية نفسها مع الاختلاف والتغير في بعض الوسائل، ولكن العملية في رمتها تبقى تحافظ على نمط التفكير ذاته في نطاق نموذج ثابت من القوانين.

2-2 - سوسيولوجيا الحرب³:

يعتبر غاستون بوتول⁴ (1896م-1980م) من أهم علماء الاجتماع المعاصرين الذين اهتموا بظاهرة الحرب، وأهم ما ألفه في هذا الموضوع ثلاثة كتب

1-المصدر نفسه، ص 836.

2 - كلاوزوفيتز، عن الحرب، ص 841.

3 - المقصود هنا بسوسيولوجيا الحرب هو محاولة تتبع آراء المشتغلين في ميدان العلوم الاجتماعية حول مفهوم الحرب خاصة علماء الاجتماع والانتروبولوجيين، والملفت للانتباه من خلال القراءة الأولية لأعمالهم هو إجماعهم على أن الحرب ظاهرة اجتماعية بامتياز، وهذا مع اختلاف تخصصاتهم أو تباين زوايا الدراسة أو أهداف معالجتهم للظاهرة من طرف أهل الاختصاص الواحد.

4 - غاستون بوتول **Gaston Bouthoul**، ولد سنة 1896م بمدينة المنستير في تونس وتوفي عام 1980م بفرنسا، عالم اجتماع فرنسي متخصص في علم الاجتماع السياسية عموما وفي دراسة ظاهرة الحرب على وجه الخصوص، حاصل على دكتوراه في القانون ودكتوراه في العلوم الاقتصادية، ثم تخصص في علم الاجتماع في جامعة بوردو، يعتبر في الأوساط الجامعية الفرنسية أنه مؤسس

عدنا إليها في هذا البحث، الأول هو كتاب **ظاهرة الحرب**، والثاني هو كتاب بعنوان **هذه هي الحرب**، والثالث بعنوان **الحروب والحضارات**، كما تطرق لدراسة الظاهرة نفسها كل من **جورج فريدمان** و**بيار نافيل** في كتابهما رسالة في **سوسيولوجيا العمل** حيث خصصا فصلا كاملا لبحث مسألة العمل والحرب وإبراز التأثير المتبادل بين نمط العمل الحربي ونمط الإنتاج المدني، وفي تراثنا الفكري الإسلامي نجد العلامة **عبد الرحمن ابن خلدون (1332م-1406م)** قد أفرد الفصل السابع والثلاثين من كتابه **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر** لبحث مسألة الحرب وأسماء في الحروب ومذاهب الأمم وترتيبها، وفيه تطرق إلى أصل الحرب وشكلها وحاول تقديم تصنيف لأنواع الحروب وطرق العمل فيها، وختم هذا الباب بوصف أسباب النصر فيها.

رغم النقاء من ذكرناهم من الباحثين والمفكرين في العديد من الجوانب في دراستهم لظاهرة الحرب إلا أننا نقول إنهم في الغالب مختلفين في المقاصد النهائية لدراستهم والعناصر التي ركزوا عليها في بحثهم، على أننا ركزنا أكثر على أعمال **غاستون بوتول** باعتباره أنه كان أكثر منهجية في بحثه، ودراسته أشمل وأدق وذات هدف أبعد من أهداف غيره وهو تأسيس علم خاص بالحرب أو ما يسمى **بالبوليمولوجيا**.

البوليمولوجيا Polémologie أو الدراسة العلمية للحرب و أشكال العنف المنظم في المجتمع، وهدفه من الدراسة هو فهم مكانة هذه الظواهر في التاريخ البشري واقتراح حلول لها، وتجدر الإشارة أنه بدأ هذا المشروع بعد الحرب العلمية الثانية رفقة **لويز وايبس Louise Weiss** وأسسها مع المعهد الفرنسي للبوليمولوجيا.

له عدة مؤلفات أهمها: **الحروب والحضارات**، ألفه مع مجموعة من المفكرين، وكتاب: **ظاهرة الحرب**، وكتاب: **هذه هي الحرب**. ومجموعة كتب أخرى في علم الاجتماع نذكر على سبيل المثال: **تاريخ علم الاجتماع**، وكتاب **علم الاجتماع السياسي**.

كما سبق ذكره، فإن غاستون بوتول قد تناول الحرب بالدراسة السوسيولوجية في مؤلفين رئيسيين هما: هذه هي الحرب¹ وظاهرة الحرب، وقد نهج في الأول نهجا يقصد غاية محدّدة وهي بيان حقيقة الحرب، بحيث استهل بحثه بتمهيد حول علم الحرب الاجتماعي ثم تطرق إلى تاريخ فكرة الحرب، ومنها انتقل إلى تحديد ظاهرة الحرب وتعريفها، ثم عدّد مميزات الحرب ومظاهرها، وانتهى بذكر ما أسماه الدوافع النفسية للحرب.

أما الكتاب الثاني **ظاهرة الحرب** - وهو الأهم في اعتقادي - فقد سلك فيه خطة محكمة لكشف حقيقة ظاهرة الحرب بحيث ركز فيها على ثلاثة نقاط رآها أساسية في دراسته، الأولى هي مناهج البوليمولوجيا وتنتهي بتحديد وتعريف ظاهرة الحرب، والثانية هي مورفولوجيا الحرب وأشكال الحرب والأفكار التي ضمنها هذه النقطة تحتوي على الكثير من الأفكار المرتبطة بتخصص الأنثروبولوجيا حيث نجده قد أسهب في الحديث عن شكل الحرب عند الحيوانات وشكلها عند الإنسان البدائي ثم قارن بين البدائيين والمعاصرين في هذا المجال، ويلاحظ كذلك تركيزه في هذه النقطة على المرأة والطابع الجنسي للحرب، والثالثة خصصها لبحث البنية التحتية للحروب ويقصد:

- العناصر التقنية للحروب من حيث مدلولها السوسيولوجي، واختلاف المعدات الحربية، وكذلك البعد التاريخي للتفاوت التقني في الحرب.
- العناصر الديموغرافية وركز فيها على النتائج الديموغرافية للحروب وقدم بعض الفرضيات حول الخصائص الديموغرافية للحروب، منها افتراضه وجود وظيفة ديموغرافية للحروب.

1- العنوان الأصلي للمؤلف هو: La Guerre، نقله إلى اللغة العربية الباحث مروان القنواطي.

- المظاهر الاقتصادية للحروب مثل التحضير الاقتصادي للحرب، وإحصاء بعض السياسات الاقتصادية المبنية على التحضير للحرب مثل الماركنتيلية¹، ولم يفته التطرق إلى النتائج الاقتصادية للحرب، وختم هذه النقطة بجد النظريات الاقتصادية في الحرب وركز على الدور الفعال للمذاهب الاقتصادية في خلق الحروب.

1- الماركنتيلية **Mercantilism**: وتسمى كذلك التجارية أو مذهب التجاربيين، مذهب في الاقتصاد السياسي ظهر في أوروبا في القرن 16م وساد فيها إلى غاية القرن 18م، من رواد هذا المذهب نذكر أرتيس و أوليفاريس في إسبانيا، لوي بودان في فرنسا، و توماس مون و جوزيات تشايلد في إنجلترا، و نشير أن الفيلسوف الإنجليزي جون لوك كان من أنصار هذا المذهب الاقتصادي الذي يعتقد أنصاره أن الأسواق ثابتة لا تقبل النمو ولا النقل، وعليه فزيادة حجم حصة دولة من الدول في السوق يتوقف على الاستيلاء على حصة دولة أخرى أو جزء منها ، وهذا ما يفتح المجال أمام نشوب صراعات دولية على الأسواق الخارجية.

رغم تعدد المدارس الماركنتيلية واتخاذها اتجاهات وأشكالا مختلفة في كل من إسبانيا وفرنسا وإيطاليا وإنجلترا حسب الوضعية التاريخية لهذه الدول والبنية الاقتصادية لكل منها، إلا أنها جميعا تتفق على النقاط التالية:

- النظرية الماركنتيلية نظرية كلية وشمولية، لا تهتم بالمشاكل الاقتصادية للوحدات الاقتصادية بل تهتم فقط بواقع الدولة والأمة، بمعنى إنها نظرية في الاقتصاد الكلي.
 - النظرية الماركنتيلية تبحث عن سبل ثراء الدول، فهي تعتبر قوة الدولة تقاس بما لديها من الذهب والمعادن النفيسة وليس في قدرتها على إنتاج السلع، وعليه فهي تعتبر في الكثير من الحالات سياسة أكثر منها نظرية اقتصادية.
 - أصحاب هذه النظرية يطالبون الدولة بالتدخل من أجل جلب المعادن النفيسة والحفاظ عليها في خزائنها بكل الطرق الممكنة، لهذا فالدول التي تتبنى هذه النظرية تعمل على بناء الجيوش القوية وضم المستعمرات وإقامة شركات الاحتكار، يفهم أنها حقا نظرية اقتصادية تحث على الصراعات المسلحة والحروب.
 - الماركنتيلية نظرية نقدية أي أن منظريها يعتقدون أن للنقود قيمة في حد ذاتها في الحياة الاقتصادية وليس قيمتها في المقابل الذي تمثله في السوق.
- أنظر: فتح الله ولعلو، الاقتصاد السياسي، دار الحداثة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1981م، ص 93-99.

من أجل ضبط مفهوم الحرب عند غاستون بوتول يجب علينا التركيز على أرائه التي تساهم في هذا المسعى، فهو يقر منذ البداية أن الحرب ظاهرة اجتماعية¹، وهو بذلك يتفق مع الكثير ممن سبقه في النظر إلى هذه الظاهرة، فالحرب كانت موجودة وستبقى كذلك، عرفها الإنسان في كل مراحل التاريخ التي مر بها، وقد عبر المهتمون بشؤون الحرب عن هذه الحقيقة بطرق مختلفة، ونذكر على سبيل المثال هيراقليطس القائل: «يجب على الإنسان أن يعرف أن الحرب عامة والشريعة هي النزاع وكل شيء يبرز إلى حيز الوجود عن طريق النزاع والضرورة»²، ويقول زهير اليعكوبي: «الحرب ليست فقط حاضرة، بل إن حضورها حاسم لدرجة يمكن معها القول إنها العامل الحاسم في تحديد مسار التاريخ

1- يعرف أميل دوركايم الظاهرة الاجتماعية في كتابه قواعد المنهج في علم الاجتماع بقوله: «هي نوع من الظواهر التي تنطوي على صفات ذاتية من جنس خاص جداً، وتتنحصر هذه الظواهر في ضروب من التفكير والسلوك والشعور، وهي توجد خارج الفرد، وقد زودت بقوة قهر تمكنها من فرض نفسها عليه»، ويضيف في موضع آخر: «إن الظاهرة الاجتماعية هي كل ضرب من السلوك، ثابت كان أم غير ثابت، يمكن أن يباشر نوعاً من القهر الخارجي على الأفراد، أو هي كل سلوك يعم المجتمع بأسره، وكان ذا وجود خاص ومستقل عن الصور التي يتشكل بها في الحالات الفردية»، يستفاد من هذان التعريفين أن الظاهرة الاجتماعية هي سلوك خارج عن الفرد، ويمارس عليه قوة تجبره على السلوك وفق ما تفعل الجماعة التي ينتمي إليها، هذه القوة هي قوة القهر الذي لا نشعر به إذا سايرنا الجماعة في سلوكها ولكن «هذا القهر يؤكد وجوده متى حاولت مقابلته بالمقاومة»، كما يؤكد دوركايم على نمطين للظواهر الاجتماعية، الظواهر الثابتة مثل نمط البناء لدى مجتمع معين والعادات والحرب، وظواهر عابرة وأنية مثل الأزياء والموضة .
أنظر:

- إميل دوركايم، قواعد المنهج في علم الاجتماع، ترجمة: محمود قاسم والسيد محمد بدوي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1988، ص 52، 53، 68، 69.

2 - هيراقليطس، جدل الحب والحرب، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، مركز الإنماء الحضري، حلب، سوريا، 2009، ص 22.

والحضارات»¹، أما غاستون بوتول فيرى أن «الحرب أروع الظواهر الاجتماعية»²، وبما أن جمهور المفكرين أجمعوا على أن الحرب ظاهرة اجتماعية فيجب أن تخضع في دراستها لمنهجية دراسة الظواهر الاجتماعية، هذه المنهجية حددها بوتول وفق ما يلي:

- الخطوة الأولى في دراسة ظاهرة الحرب هي الوصف أي « هو إنتاج جرد أكثر صدق ما أمكن حول خصائص الموضوع أو الظاهرة المطروحة للدراسة...فالباحث سيحاول التدقيق في مختلف عناصر الموضوع»³، والوصف عند بوتول ينقسم إلى قسمين، وصف الوقائع المادية ويقصد به «إتباع الترتيب الموضوعي التنازلي في الدراسة والانتقال من المعاينة الصرفة للوقائع إلى درجات أكثر فأكثر اكتمالا لناحية تفسيرها»⁴، ثم يختصر الباحث المنهج المقترح في دراسة الحرب، حيث ينطلق من المعاينة الصرفة التي تقتضي من الباحث تمثيل مفصل وواقعي لظاهرة الحرب، ومهمته في هذه المرحلة هي الإجابة عن أسئلة من قبيل تحييد الاختلاف الموجود حالة الحرب وحالة السلم، وتحديد العناصر المشكلة لمجموعة أدوات الحرب، وكيف تستعمل، وماهية مميزات المجموعات المسلحة، وكيفية تدريبها وتقسيم العمل فيها، ويدرج هذا ضمن ما يطلق عليه اسم البنية التحتية للحرب.

1- زهير اليكوبي، الحرب: مقاربة فلسفية سياسية، منشورات صفاف، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2016، ص 21.

2- غاستون بوتول، هذه هي الحرب، ترجمة: مروان القنواطي، منشورات عويدات، بيروت، الطبعة الأولى، 1981، ص 5.

3- موريس أنجرس، منهجية البحث في العلوم الإنسانية، ترجمة: بوزيد صحراوي وآخرون، دار القصبه للنشر، الجزائر، 2004، ص 56.

4- غاستون بوتول، ظاهرة الحرب، ترجمة: إيلي نصار، دار الفارابي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2007، ص 24.

القسم الثاني في مرحلة الوصف فيتعلق بوصف السلوكيات النفسية، ويركز فيها على السعي للإجابة عن التساؤلات من قبيل: لماذا يتقاتل الناس؟ أو لماذا يتحاربون؟ والإجابات هنا ستحمل مجموعة من المعتقدات التي يبرر بها المحاربون أفعالهم، وهي حسب بوتول معتقدات ذات طابع عدائي أي أنها تحمل الكثير من الحقد والكراهية الكفيلة بإشعال نار الحرب بين طرفين أو أكثر، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى يسعى الباحث في هذه المرحلة إلى إبراز الغاية أو الهدف المسطر للحرب، ويسمى هذا بالقصدية من فعل الحرب، ويلاحظ بوتول في هذه النقطة أن الباحث لا يجب أن ينشغل ببحث صدق أو فساد المسوغات التي يقدمها المتحاربون لتبرير فعل الحرب، فهو غير ملزم بإصدار أحكام قيمية إنما يكفي بوصف هذه المسوغات وتقديمها كما هي للقارئ، وتنقسم هذه المسوغات إلى نوعين:

- تلك التي يقدمها القادة وتتسم بالغموض.

- وتلك التي يسوغها الشعب وتتسم بالابتدال.

وتبعاً لذلك فمسوغات الحرب تراوح بين الغموض والابتدال وهذا ما يؤكد غياب العقل في تبريرها، يقول بوتول: «بين هذا وذاك تبقى طبيعة الحرب هي تقريباً في النهاية»¹، بمعنى أن هذه المسوغات تفعل في الأفراد ولا تؤثر في طبيعة الحرب في حد ذاتها.

- الخطوة الثانية في دراسة الحرب عند غاستون بوتول هي مرحلة التحليل² وهي « سيرورة تدريجية لتجسيد ما نريد ملاحظته في الواقع، يبدأ هذا التحليل أثناء

1- غاستون بوتول، ظاهرة الحرب، ص 25.

2- يعرف موريس أنجريس التحليل بقوله: هو عملية ذهنية تتضمن تفكيك الواقع إلى عناصره بهدف معرفة طبيعته، ويتنوع التحليل حسب أهداف الدراسة إلى التحليل الوصفي وهدفه هو عرض مفصل لموضوع البحث، وتحليل تفسيري يهدف وضع عناصر الموضوع في علاقة بعضها ببعض، وتحليل فهمي يهدف

شروع الباحث في استخراج المفاهيم من هدف بحثه، يستمر هذا التحليل أثناء تفكيك كل مفهوم لاستخراج الأبعاد أو الجوانب التي ستؤخذ بعين الاعتبار»¹، يفهم من هذا أن التحليل يعتمد خطوتين كذلك استخراج المفاهيم الأساسية لدراسة الظاهرة ثم تفكيك هذه المفاهيم لإدراك مختلف أبعادها، وهذا يتفق تماما مع ما ذهب إليه بوتول حين جعل المستوى الأول من التحليل يهتم بدراسة التأويلات التفصيلية ويقصد هنا التركيز على التعليقات التي يقدمها المؤرخون باعتبارهم أكاديميين وأصحاب تخصص فهم يسعون للكشف عما اسماه بالسبب الموجب، أي أن هدفهم تفسير أسباب الصراع أو الصراعات المتشابهة والبحث عن الصراعات المرتبطة بعضها ببعض بعلاقات سببية مشتركة أو متشابهة، ويدل هذا على أن الباحث في هذا المستوى يبحث عن العلاقات المعقدة للحرب أو الصراع المادي.

أما في المستوى الثاني من التحليل فيتم إبراز «مجموعة الآراء والمذاهب حول الحرب بوجه عام، وهي الآراء التي يمكن مراقبتها من وجهة النظر الإبستمولوجيا، أي أنها تعنتي بسرد الآراء التي أبديت حول الحرب بشكل عام»²، يعني أن نقوم بإخضاع هذه الآراء والمذاهب المختلفة حول الحرب لعملية الفحص النقدي، وصنفها بوتول أربعة أصناف:

- 1- الآراء الفلسفية حول دور الحرب ووظيفتها.
- 2- الآراء الدينية أو آراء علماء اللاهوت، وهؤلاء يتخذون من الحرب -حسب بوتول- موقفا غائيا، أي أن الحرب وجدت من أجل تحقيق غاية أو هدف

إلى فهم الواقع من خلال معاني يعطيها الأفراد لتصرفاتهم وأخيرا تحليل تصنيفي يهدف إلى جمع الظواهر أو عناصر الواقع حسب مقاييس متنوعة.

أنظر: موريس أنجرس، منهجية البحث في العلوم الإنسانية، ص 422، 423، 424.

1- موريس أنجرس، منهجية البحث في العلوم الإنسانية، ص 157 و 158.

2- غاستون بوتول، ظاهرة الحرب، ص 26.

معين، وغالبا ما تكون دراستهم لظاهرة الحرب في «سياق انسجام مسبق فرضته العناية الإلهية»¹

3- آراء الميتافيزيقيين، هؤلاء هم أصحاب المبادئ الكسمولوجية، هم يحدّدون الحرب وفق مبدأ كلي، فهي لها وظيفتها ومكانتها المحدّدة دفعة واحدة وبشكل نهائي، يقول بوتول أنهم «يربطون الحرب بالمبادئ الكبرى، مع إعطاء تفسيرات مطلقة الشمولية أزلية وغير تاريخية»²، فهؤلاء تفسيراتهم واحدة لكل الحروب باختلاف المكان والزمان، ومنهجهم في تفسير الحروب لا يختلف كثيرا عن تفسيراتهم للظواهر الطبيعية.

4- آراء الأخلاقيين، هؤلاء هم المفكرون الساعون لصياغة أحكامهم ونظرياتهما الأخلاقية حول الحرب كفعل إنساني جماعي من حيث المبدأ والنتائج، وغالبا ما تكون آراؤهم متباينة بتباين المشارب الثقافية التي يغرفون منها، وهم بذلك على النقيض من الميتافيزيقيين في هذه المسألة.

- الخطوة الثالثة في الدراسة العلمية لظاهرة الحرب حسب بوتول هي مرحلة انتقاء وتجميع الوقائع، تقوم هذه المرحلة على ملاحظة واقع الحرب، ويمكن أن نسميها مرحلة ترتيب وتصنيف مختلف الأحداث والوقائع الناجمة عن حدوث الحرب، وتتميز هذه المرحلة بكونها تتطلب التحلي بالموضوعية، وتستوجب وضع معايير مرتبطة بمحيط الدراسة لتصنيف هذه الوقائع، وتبنى هذه المعايير على خصائص ظاهرة الحرب، وبناء على ذلك يقوم الباحث بتجميع الأشكال المختلفة للسلوك الحربي عند مختلف الشعوب ومقارنة بعضها ببعض لغرض استظهار أوجه الاختلاف والمماثلة فيما بينها، وقد حدّد غاستون بوتول «الوقائع التي يشكل مجموعها (ظاهرة الحرب) ب: عناصر تقنية، عناصر سيكولوجية، عناصر

1- المصدر نفسه، ص 26.

2- المصدر نفسه، ص 26.

اقتصادية، عناصر ديموغرافية»¹، يستنتج من هذا وجود سمات ثابتة للحرب بالرغم من التطور الذي عرفته الحرب والبشرية على حدّ سواء، هذا التطور أدى إلى اتخاذ الحرب أشكالاً مختلفة لكنها بقيت محافظة على سماتها أو خصائصها التي سنذكرها لاحقاً.

- الخطوة الرابعة جعلها غاستون بوتول لوضع مجموعة من الفرضيات حول ظاهرة الحرب، وتنقسم هذه الفرضيات إلى:

- فرضيات حول وظائف الحرب، بمعنى استشفاف ما يمكن أن تكون عليه الوظائف التي تقوم بها الحرب في التوازنات الاجتماعية²، ولا يمكن إدراك هذه الوظيفة إلا بعد تحليل النتائج التي أفضت إليها الدراسة، أي أن منطلق تحديد وظيفة الحرب هو نهاية سياق الدراسة، ويرى بوتول أن البحث عن وظائف الحرب له أهمية قصوى في الجانب العملي وتتمثل هذه الأهمية في «تنويع الجهود المبذولة للقضاء على الحروب، أو على الأقل كبح جماحها»³، يفهم من قوله أنه لا يمكن القضاء على ظاهرة الحرب أو التقليل من عددها أو من أضرارها إلا إذا وجد البديل الذي يمكن أن يؤدي الوظيفة نفسها أو يسمح باستمرارها ولكن بطريقة تنتج عدداً أقل من الضحايا والخسائر وتستهلك جهداً أقل من الجهد المبذول في الحرب، وأحسن مثال على هذا البديل هو تنامي التنافس الرياضي على المستوى العالمي والذي يعبر عن تفوق أمم معينة على أمم أخرى في نشاط رياضي معين والدال على قوة شعبها وتفوقه.

- فرضيات حول دورية الحرب، باعتبار أن الحرب ظاهرة قد عرفتها جميع الحضارات، وكانت ولا زالت ملازمة للإنسان في كل أطوار تطوره الثقافي

1 - غاستون بوتول، ظاهرة الحرب، ص 26، 27.

2 - المصدر نفسه، ص 28، 29.

3 - غاستون بوتول، ظاهرة الحرب، ص 29.

والاجتماعي، وهذا التلازم هو الذي يطرح مسألة دوريتها، بمعنى أنها تظهر للوجود لفترة زمنية عند شعب ما ثم تختفي لتعود للظهور من جديد عند الشعب ذاته أو عند شعوب أخرى، ويرى بوتول أن الحرب تشبه في هذا الأمر الأزمة الاقتصادية، ويكمن في رأيه أوجه التشابه بينهما فيما يلي: «تبرزان مظهر التفجر المفاجئ عينه، انطلاقاً من نقطة تصدع واضحة المعالم وسهلة التعيين

- تتسمان بطابعهما الهدام، أو على الأقل المعيق للنمو، توقف مسيرات التراكم، تمتص وتدير رؤوس الأموال والمدخرات، وقف أو تأخر إنتاج البشر والأشياء»¹، هذه العناصر المشتركة بين الحرب والأزمة الاقتصادية والتي يرى فيها بوتول أنها تثبت الطابع الدوري للحروب.

- الخطوة الخامسة في دراسة الحرب دراسة علمية حسب غاستون بوتول هي مرحلة تصنيف² الحروب، يدل مصطلح تصنيف الحرب والمجتمعات على وجود اختلافات واضحة في أشكال الحرب لدى مختلف المجتمعات، في مختلف الأزمنة، فالحرب تغير من شكلها تبعاً للمجتمعات، وبتعبير آخر، يمكن أن يطلق على الحرب مصطلح المتغير التابع وعلى المجتمعات المتغير المستقل، وبالتالي فتصنيف الحروب هو عملية تميز الحروب بعضها عن بعض و ترتيبها وتقسيمها وفق تشابهها إلى مجموعات، بحيث تضم كل مجموعة صنفاً من الحروب تشترك

1- غاستون بوتول، ظاهرة الحرب، ص 29.

2 - التصنيف: هو القيام باختصار واختزال المواضيع والظواهر في بعض الفئات من العناصر وذلك بتجميعها حسب بعض المقاييس ومدى ملاءمتها، ذلك أن بعض المواضيع والظواهر يتميز بالتقارب أو التشابه إذا ما قيس بمواضيع وظواهر أخرى،...ويمكننا أن نذهب في نفس المسار في السوسيولوجيا أو الأنثروبولوجيا... كما يمكن أن تتنوع مقاييس التجمع حسب أهداف البحث... يمثل التصنيف إذن جزءاً من أهداف العلم.

أنظر: موريس أنجرس، منهجية البحث في العلوم الإنسانية، ص 56، 57.

في خصائص وصفات معينة، وهذا ما أسماه **غاستون بوتول** بالوضع التقني من جهة والمعتقدات الدينية من جهة أخرى، وهذان الأمران ينعكسان على كل الميادين الأخرى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية، ويشترط **بوتول** « من أجل تصنيفية واقعية لابد أن نأخذ بالاعتبار مختلف أنواع التركيبات ما بين العناصر الأساسية التي ميزناها والمقادير، وهي الشؤون الاجتماعية، المعتقدات الدينية، مسائل القانون الداخلي، والعلاقات الدولية، التقنية الزراعية أو الصناعية»¹، فالتصنيف يقوم على مظاهر الحرب مثل الحرب الدينية أو الأهلية أو الباردة أو الاقتصادية، بالإضافة إلى هذا يمكن للتصنيف أن يستند إلى دوافع الحرب أو إلى أسبابها.

بعد هذا، يصل **غاستون بوتول** إلى مرحلة بناء تعريف لظاهرة الحرب وتحديد أطرها، ويبدأ بالإقرار بأن الحرب ظاهرة اجتماعية - كما سبق ذكره منذ البداية- واسعة الانتشار، وهو في هذا لم يقدم جديدا عن سبقه، لكنه استدرج الأمر بأن حاول التمييز بين الحرب وباقي الظواهر المشابهة لها مثل الصراع² الشامل

1- غاستون بوتول، **ظاهرة الحرب**، ص 31.

2 - الصراع **Conflit**: لغة جاء في لسان العرب لابن منظور: يقال صرعه أي طرحه أرضاً، والمصارعة والصراع: معالجتها أيهما يصرع صاحبه.

- ابن منظور، **لسان العرب**، ص 197.

ومن الناحية الاصطلاحية، عرفه **لالاند** في موسوعته الفلسفية بقوله هو علاقة قوتين أو مبدئين يشترط في تطبيقاتهما الهدف نفسه بتعيينات متناقضة.

- André LALANDE , **VOCABULAIRE DE LA PHILOSOPHIE**, Presses Universitaires de France, Paris, 1962, p 168,169.

أما مفهوم الصراع عند علماء الاجتماع فنكتفي بذكر التعريف الذي صاغه **ماكس فيبر Max weber** (1864-1920)، في كتابه **مفاهيم أساسية في علم الاجتماع**، فهو يرى أنه « يمكن تسمية العلاقة الاجتماعية صراعاً إذا انطلق الفعل من نية تنفيذ الإرادة الذاتية مع وجود مقاومة من الشريك أو الشركاء»، فأساس الصراع هنا هو تعارض في الإرادة بين طرفين أو أكثر، هذا يتطابق إلى حد كبير مع تعريف **كلاوزوفيتز** للحرب حين اعتبر أنها السعي لإخضاع العدو لإرادتنا بالقوة، ويحدّد **ماكس فيبر** مراحل

- والمناقسة، هذا التميز بناه على المواقف التي انطلق منها من سبقه في دراسة الحرب، ورأى بوتول أن هذه المواقف يمكن حصرها فيما يلي:
- الموقف الأول: يعتبر الحرب حالة خاصة من الصراع الشامل.
 - الموقف الثاني: يرى أصحابه أن الحرب ظاهرة مستقلة بذاتها، ومن الأفضل معالجتها بمعزل عن المناقسة والصراع.
 - الموقف الثالث: وهو اتجاه عام يقوم بإدخال الحرب في عداد جميع ظواهر المعارضة والصراع¹.

الصراع بقوله « يمكن أن نصادف - بلا أي نقصان - جميع المراحل المتباينة تماما من الصراع في كافة أنواع الصراع بدءاً من **الصراع الدموي** الذي يستهدف إنهاء حياة الغريم، ولا يعترف بأي التزام بقواعد الصراع، مروراً ب**صراع الفرسان** الذي تحكمه لأعراف... وصولاً إلى الألعاب المنظمة القائمة على التصارع وهي **الرياضة**، وإلى **التنافس الشهواني** الذي لا تحكمه قواعد للفوز بإعجاب امرأة»، واضح من خلال هذا التحديد لأنواع الصراع أن الصراع أوسع من الحرب، وأن هذه الأخيرة أقرب إلى النمط الأول من الصراع الذي ذكره **ماكس فيبر** وهو الصراع الدموي، ولكنها تختلف عنه في كونها تحتكم لما يسمى بقانون الحرب وهو مجموعة قواعد تحكم العمل الحربي سواء بين الحلفاء أو الأعداء، في حين أن الصراع الدموي كما وصفه **فيبر** لا يلتزم بأي قواعد، بل التركيز فيه يكون فقط على النتيجة النهائية وهي إنهاء حياة الغريم، كما أن الحرب تكون بين جماعتين منظميتين أو أكثر أما الصراع الدموي فيمكن أن يقتصر على شخصين فقط، يفهم كذلك من هذا التصنيف الذي قدمه **ماكس فيبر** أن محور الصراع هو المصلحة، فحيثما هناك مصالح متضاربة يكون الصراع، وهذا الأخير إما أن يكون **ملموساً** لما يتم الإعلان صراحة عن الرغبة في الحصول على الأمر المتصارع عليه، ويكون **الصراع** **محتماً** لما يتمتع أحد الأطراف عن إعلان رغبته لسبب من الأسباب مثل افتقاره للقوة اللازمة للدخول في الصراع، وثالثاً يكون **الصراع كامناً** إذا كانت المصالح الآتية للطرفين مختلفة

أنظر: **ماكس فيبر، مفاهيم أساسية في علم الاجتماع**، ترجمة: صلاح هلال، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2011، ص 72، 73، 74.

- **فليب برو، علم الاجتماع السياسي**، ترجمة: محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 1998، ص 31.

1- غاستون بوتول، **ظاهرة الحرب**، ص 33.

هذا الاتجاه العام يشمل الأدبيات غير المتخصصة والتي لا تهتم بالتحديد الاصطلاحي الدقيق للمصطلحات والمفاهيم التي تستخدمها في كتابتها، ولكن الدراسة العلمية لظاهرة الحرب جعلت **غاستون بوتول** يؤكد على أن الحرب ظاهرة مستقلة بذاتها، ويجب أن تعالج بمعزل عن ظاهرتي المنافسة¹ والصراع، ولكي يبين ذلك، كان يلزمه إبراز التباين الموجود بين هذه الظواهر.

من أجل إبراز الاختلاف بين الحرب والصراع والمنافسة، سعى **بوتول** إلى تحديد ما يميز الحرب عنهما، وأول ميزة تخصها هي طبيعة العدو²، فالآخر الذي يشكل

1- **المنافسة Compétition**: يرى **ماكس فيبر** أن « وسائل الصراع السلمية هي تلك التي لا تتمثل في استخدام مباشر للعنف البدني، والصراع السلمي هو ما نسميه **التنافس**، عندما يأتي في صورة محاولة ذات شكل سلمي للحصول على سلطة التصرف في فرص وإمكانيات يرغب فيها آخرون أيضاً، أما **التنافس المنظم** فيكمن فيما نسميه تنافساً إذا كانت أهدافه ووسائله موجهة وفقاً لنظام معين»، فالمنافسة غالباً ما تكون خالية من العنف الجسدي أي أنها قائمة على استخدام مهارات خاصة بدنية أو عقلية تكون فطرية أو مكتسبة ولكنها ليست عنيفة مثل الصراع، كما أن المنافسة في أغلب الأحيان تكون في إطار منظم تحكمه مجموعة من القواعد لا يخرج عنها المتنافسين مثل المنافسات الرياضية والفكرية.

أنظر: **ماكس فيبر، مفاهيم أساسية في علم الاجتماع**، ترجمة: صلاح هلال، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2011، ص 72، 73، 74

2- **العدو L'ennemi**: ناقش عالم الاستراتيجية العسكرية **بيار كونيسا Pierre Conesa** مفهوم العدو وكيفية صناعته في كتابه **صنع العدو**، أو **كيف تقتل بضمير مرتاح**. إذ يبدأ بالإقرار والتسليم مع من سبقه مثل **هنري ميشو Henri Michaux** أن تحديد الأعداء والأصدقاء والتحقق منهم يشكل آلية ضرورية قبل شن الحرب، وقد حدّد العدو باعتباره هو الآخر المختلف عن الأنا وهو الشر الذي نخشاه والتهديد الذي يقلقنا، وهو كذلك جزء لا يمكن فصله عن الحياة مثله مثل المرض، ورغم هذه الصفات السلبية التي ننسبها للعدو إلا أنه في نظر **بيار كونيسا** يقدم لنا خدمات كثيرة خصوصاً عبر المسؤولية التي يمثلها في قلقنا الجماعي، هذا بصفة عامة، أما فيما يرتبط بموضوع العدو وعلاقته بالحرب، فيرى أن العدو ضرورة للحرب، فلا يمكن بأي حال من الأحوال تصور حرب بدون عداوة أو بدون طرف آخر يمارس الحرب معه، وينقل لنا في هذا الصدد قول **ألكسندر أرباتوف Alexandre Arbatov** مستشار الرئيس الروسي السابق **ميخائيل غوباتشوف Mikhail Gorbatchev** قائلاً: سنقدم لكم أسوأ خدمة، سنحرمكم من العدو... أي لم يعد هناك وجود بعد الآن لتهديد قاتل، بل سلام حقيقي فحسب. حين يقول **أرباتوف** هذا الكلام يكون على علم بالنظرة الإستراتيجية للغرب تجاه روسيا، فالجنرال الفرنسي **إيريك دو لا ميزونوف Eric de la**

Maisonneuve يقول في وصفه للاتحاد السوفياتي سابقا: كان لدى العدو السوفياتي كل مزايا العدو الجيد: فهو صلب، ثابت، و متماسك، كان يشبهنا عسكريا، فهو مبني وفق الأنموذج الكلاوزوفيتزي الأكثر نفاء، مثير للقلق بالطبع لكنه معروف ويمكن توقع خطواته، إن غيابه يخرق تماسكنا ويجعل قواتنا غير مجدية. واضح أن أهم صفات العدو الجيد هي صفة القدرة على توقع ماذا يمكنه أن يفعل أي يبقى في مجال قدرتنا على توقع تصرفاته وبالتالي قدرتنا على مراقبته، بالإضافة إلى صفات مثل الصلابة والثبات والتماسك هذه الصفات الدائمة في العدو تجعل من سياستنا المنتهجة ضده سياسة مبررة ومقبولة داخليا وخارجيا، ويبقى أكبر مشكل في الأمر وهو ما اتفق عليه كل أرياتوف وإيريك دو لا ميزونوف هو مشكل زوال العدو المفضي إلى عدم جدوى قوتنا و من جهة أخرى يقضي على تماسكنا الداخلي، فالحكمة السياسية تقول إذا أردت سلما داخليا فصنع لك عدوا خارجيا، ولم يفوت هنا الاستشهاد بقول فريدريك نيشته في كتابه **إنسان مفرط في إنسانيته**: إن من يحيا على محاربة عدوه، من مصلحته أن يدعه يعيش. وفي هذا وضوح كامل لدور العدو في حياة الدول والأمم.

بعيدا عن الأطروحات الفلسفية التي نقرؤها عند **توماس هوبز** و **غريمة جان جاك روسو** حول طبيعة العداوة هل هي غريزة في الإنسان أم أنها نتاج الحالة المدنية؟ يرى **بيار كونيسا** أن العدو هو عبارة عن عملية بناء، أي أنه ليس معطى قبلي، فهو علاقة استراتيجية تؤدي بنا إلى حالة حتمية لا يمكن تجنبها وهي حالة الحرب، هذه العلاقة تتضمن حسب فعل الطرف الأول وصورته وتؤثر في فعل الطرف الثاني وصورته كذلك. فهذه العلاقة تكون مزيجا من الأفكار والأفعال المتبادلة بين طرفين مألهم الحرب.

إذا كان العدو هو عبارة عن عملية بناء كما يقول، فيمكن وصفه كذلك أنه صناعة، لأن صناعة العدو حسب **كونيسا** مهمة رسمية لمؤسسات الفكر الاستراتيجي في البلدان الديمقراطية الكبرى، فالإستراتيجيون يعملون على إنتاج تحليل وخطاب حول السياق الدولي والتهديدات، وإعطاء شكل جديد للقوة العسكرية الضرورية لمواجهة هذه التهديدات وشرعة استخدام القوة إذا لزم الأمر، و صناعة العدو تمر عبر مراحل مختلفة أولها وضع إيديولوجيا ، ثانيا تبنى إستراتيجية محددة، ثالثا إنتاج خطاب من طرف من أسماهم **كونيسا** بالمحدد **Les Marqueurs** رابعا وأخيرا آليات الصعود إلى العنف ، وما يلاحظه صاحب كتاب **صنع العدو** هو أن محددى العدو متعددون حسب أنواع النزاعات ويرى أنهم ليسوا المحللين الأكثر دقة للوضع لكنهم يعتبرون الأكثر تأثيرا.

يصنف **كونيسا** العدو إلى عدة أصناف وهي:

- العدو القريب: وهو الجار الذي نتج النزاع معه جراء خلاف حدودي، فالقضية هي قطعة أرض والحرب تكون من أجل نزع الأرض بالقوة.

- العدو العالمي: أو الخصم العالمي وهو الواقع بين قوتين تعطيان لنفسيهما نزعة عالمية، كما الحال في الحرب الباردة والسباق الاستعماري بين الإمبراطوريات، والحرب هنا يصفها بكونها عمل أرعن للسيطرة على خريطة ما.

العدو تختلف طبيعته في حالة الحرب عن حالة طبيعته في حالة الصراع، «فالحرب تفترض مسبقاً وجود عدو فاعل يسعى بوعي تام إلى هدف هدام، وهي تنطوي على فعل إرادي متبادل بين أطرافها»¹، فالحرب تكون ضد عدو واعٍ بالظاهرة التي يعيشها، ويمتلك هدفاً محدداً ومشتركا وهو تدمير الطرف الآخر، أما

- العدو الحميم: وهي الحرب الأهلية، وهو اقتتال بين الجيران كانوا إلى وقت قريب يعيشون مع بعض في سلام، والحرب هنا تكون استتبعيه أي أن تقتل قبل أن تقتل.

- العدو الهمجي: وهو وصف يطلقه المحتل على الشعوب التي يحتلها، لأنه يعتبرهم متخلفين ولا يفقهون غير لغة القوة، والعدو هنا هو الشعب الذي يعاني الاحتلال، والحرب تأخذ شكل القمع من أجل إحلال النظام أو السلام وفق منظور الطرف الذي يمارس الاحتلال.

- العدو المحجوب: هو قوة خفية من المفترض أنها تدير الشعوب كافة وتسيطر على مصيرها وهي هاجس ناجم عن نظرية المؤامرة، يصفها كونييسا بأنها مرض محصن ذاتياً بمعنى أنه ينتج أجساماً مضادة موجهة ضد مكوناتها الذاتية، وبذلك فالجسم يضر بنفسه أكثر مما يفعل الفيروس فيه، والحرب هنا تصبح ذهاناً هذياناً عنيفاً ينتج انبثاقاً بشكل منتظم.

- العدو في حرب الخير ضد الشر: وهو لا يقتصر على النزاعات الدينية بل يشمل حرب الأنظمة الشمولية الكبيرة العلمانية في الوقت الراهن والتي تستعمل الإيديولوجيات القاتلة، والأخر أو العدو هو الشر أو الشيطان، والحرب تكون من أجل إبادته تمام على وجه الأرض أي أنها عملية طرد للأرواح الشريرة.

- العدو التصوري: هو فعل إمبريالي للقوة العظمى، فالسيطر ليس لديه عدو يجاربه لذلك يعمد إلى محاربة مفاهيم في صراع شامل، الحرب هنا تكون وقائية.

- العدو الإعلامي: يشكل حالة الأحداث في الفراغ الإيديولوجي والاستراتيجي لما بعد الحرب الباردة، ويتخذ شكل أعمال عسكرية من دون عدو، مثل إرسال القبعات الزرق، وتبدو الحرب هنا كأنها تمثيل نفساني في نظر الغرب.

وإذا كان العدو كما أشرنا سابقاً هو بنية فمن الممكن تفكيكها، هذا عن طريق العديد من الطرق أهمها، المصالحة بين الأعداء، أو عن طريق التكفير عن الذنب من طرف المعتدي، أو العفو ممن يقع عليه الفعل، أو الاعتراف بالذنب من المذنب، وكذلك اعتماد الذاكرة المشتركة لتجاوز حالة العداوة، دون نسيان العدالة والعدالة الدولية في فك الخصومات.

راجع: بيار كونييسا، **صنع العدو، أو كيف تقتل بضمير مرتاح**، ترجمة: نبيل عجمان، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، قطر، الطبعة الأولى، 2015، من ص 14 إلى ص 25.

1- غاستون بوتول، **ظاهرة الحرب**، ص 34.

الصراع فيمكن أن يكون ضد أشياء غير عاقلة أو غير فاعلة، أي أنها تكون ساكنة و غير شعورية مثل صراع الباحث مع المعرفة، أو صراع الحمال مع حملته.

ليس هذا فقط ما يميز الحرب عن الصراع الشامل، إذ يضيف بوتول اعتراضاً آخر على التشبيه بينهما، ويرى أن ما يفرق بينهما هو كون الحرب «أكثر من ردود الفعل الدفاعية الأخرى سواء كانت عضوية أم اجتماعية، تنطوي على فكرة التساند والتعاون»¹، فالحرب تتضمن بصفة إلزامية التساند و التعاون بين أفراد المجتمع على جميع المستويات وعلى مستوى جميع الوظائف والمهن، فالكل يضحى من أجل تحقيق الهدف المسطر للحرب، هذا التساند والتعاون هو ما اصطلح عليه ابنخلدون بدور العصبية في الحروب، ويصفه بوتول في الحرب على أنه أعلى درجة من التساند يمكن تصورها بين الكائنات الحية، بحيث إن كل فرد من أفراد الجماعة مستعد للتضحية بحياته وبما يملك من أجل بقاء الجماعة واستمرار الجماعة التي ينتمي إليها أو من أجل أن تحقق أهدافها التي تصبو إليها، يجرنا هذا إلى القول أن التحليل الموضوعي للحرب يدل على وجود شعورين متناقضين لدى كل متحارب وهما «شعور العداة الموجه للخصوم أو الأعداء، ومشاعر الإخلاص والتضامن بين المقاتلين من أجل قضية واحدة»²، هذان النمطان من الشعور كفيلا بتمييز الحرب عن الصراع، لأن الصراع، يمكن أن يوجد داخل كل مجتمع وداخل كل جماعة بسبب وجود دوافع وأسباب عديدة للصراع أي بقدر وجود مصالح متضارب عليها مثل الوظائف والثروات والنساء وغيرها، وعليه «فالطموح والكبرياء والرغبة في القيادة أو إرادة القوة والمزاحمة التجارية والبخل والخصومات الفكرية والطموحات السياسية، تسبب ليس فقط صراعا بين جماعات متنافسة، إنما صراعا بين أعضاء جماعة واحدة»³، هذا الصراع

1- المصدر نفسه، ص35.

2- غاستون بوتول، ظاهرة الحرب، ص35.

3- المصدر نفسه ، ص38.

الداخلي يبقى صراعا وليس حربا إلا في حالة واحدة وهي حالة تحوله إلى حرب أهلية.

وبعد تمييز غاستون بوتول بين الحرب والصراع قام بتحديد الخصائص المميزة للحرب وهي كالتالي:

أولا: الطابع الجماعي: يعتقد بوتول أن الميزة الواضحة تماما للحرب هي طابعها الجماعي، فالحرب تمارسها الجماعة وليس الفرد فقط، هذا الطابع يتحدّد بدوره بطبيعة الجماعة، فهي جماعة واضحة ومحدّدة بمقومات معينة وتخوض الحرب بطريقة محكمة التنظيم، حيث توزع فيها المهام والرتب وتحدّد فيها العلاقات السلمية والوظيفية بدقة عالية، لذا نجد الكثير من المهتمين بظاهرة الحرب يصفونها بمصطلح المؤسسة أو مؤسسة الحرب، وهي دلالة واضحة على المعنى الذي أعطاه ماكس فيبر للمؤسسة باعتبارها تجمع أفراد يعملون مع بعضهم في إطار تقسيم واضح للعمل من أجل إنجاز أهداف محددة و تتميز هذه العلاقة بالاستمرارية، من أجل تحقيق أقصى درجة ممكنة من الكفاية في تحقيق الأهداف المحدّدة.

ليس هذا فقط، فالعنصر الذاتي - حسب بوتول - أو الناحية القصدية أو الغايات والأهداف التي يسعى إليها صانعو الحروب تعتبر من الدلائل الكافية على الطابع الجماعي للحرب، لأن «غايات الحروب تتميز عن غايات الجريمة أو العنف الفردي»¹، ففي هذه الحالة نجد أن شكل الفعل الإجرامي أو فعل الهدم في الحرب هو تقريبا نفسه في العنف الفردي، لكن من حيث الغاية فالحرب تضع نفسها في خدمة تجمع سياسي معين أما الجريمة فهي تقتصر على المصلحة الخاصة²،

1- غاستون بوتول، ظاهرة الحرب، ص40.

2 - المصدر نفسه، ص40.

وعليه فالغاية المشتركة بين أفراد الجماعة التي تخوض الحرب هي التي تعطيها صفة الحرب أولاً وتكسبها الطابع الجماعي ثانياً.

ثانياً: الحرب صراع بقوة السلاح: الخاصية الثانية والتي يراها غاستون بوتول تشكل علامة فارقة للحرب عن أشكال الصراع الأخرى ويصفها بالميزة الموضوعية، هي أن الحرب « صراع بقوة السلاح، ولا شأن لما يكون عليه حجم ضحاياها في القلة والكثرة»¹، يفهم من كلام بوتول أنه لا وجود لحرب بدون سلاح أو استخدام قوة السلاح، بغض النظر عن طبيعة هذا الأخير ومدى تطوره، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى، لا يهم حجم الضحايا التي أحدثتها هذه الحرب، فالتاريخ يخبرنا عن مجال واسع لعدد ضحايا الحروب إذ تتراوح بين حروب لم يتعد عدد ضحاياها شخص واحد إلى حروب أحصت عشرات الملايين من القتلى كضحايا حرب بطريقة مباشرة أو غير مباشرة مثل الحروب العالمية.

ثالثاً: الحرب بين الغاية والدوافع: الخاصية الثالثة للحرب هي صعوبة التمييز بوضوح بين غائية الحرب و الدافع إليها، إذ يعتقد بوتول أن «الدوافع ذات طابع فردي، أو أنها من الشؤون السيكولوجية الفردية، والغاية ذات طابع جماعي»²، وهذا التمييز يخص بالتحديد ظاهرة الحرب ولا يشمل كل أفعال الإنسان، وينتج من هذه الصعوبة في التمييز بين الدافع للحرب والغاية منها أن الكثير من الحروب وحتى الحروب الكبرى « لم تكن سوى امتداد تدريجي لنزاع بين الأفراد، تورطت فيه شيئاً فشيئاً جماعات بكاملها... وحين ازدادت رقعة النزاع اتساعاً أصبحت أو أنتجت حرباً شاملة»³، ومن المؤكد أن ما ذكره هنا غاستون بوتول فيه الكثير من الحقيقة باعتبار أن التاريخ يزخر بعديد الأمثلة التي تؤكد ما قاله، سواء تعلق الأمر

1 - المصدر نفسه، ص40.

2 - غاستون بوتول، ظاهرة الحرب، ص41.

3 - المصدر نفسه، ص41.

بالعصور القديمة أو بحروب العصر الحديث والمعاصر، فالفيلسوف الفرنسي **بليز باسكال (1623-1662)** يصف هذه المعضلة بتساؤله: لما أنا مضطر لمحاربة والاقنتال مع جاري الذي يسكن في الضفة الأخرى للنهر، ولا توجد أي عداوة بيني وبينه، وإنما السبب الوحيد لذلك هو أن أميرى في خصومة مع أميره.

رابعاً: الطابع القانوني:الخاصية الرابعة للحرب هي طابعها القانوني، بحيث يعتقد **بوتول** أنه يمكن القول أن « الحرب هي عقد، الحرب هي أحد أشكال العنف لا ريب، إلا أنها عنف منظم، فما من حرب بمعناها الحصري لا تكون خاضعة لقواعد¹

1 - القواعد العامة المؤطرة لسير الحرب وفق الاتفاقيات الدولية يمكن تلخيصها فيما يلي:

- **إعلان بداية الحرب:** أوجب قانون العلاقات الدولية الإعلان الرسمي عن افتتاح الأعمال الحربية، وكرس مبدأ إعلان الحرب، وهذا في اتفاقية لاهاي الثالثة لعام 1907م، حيث علق البدء بالعمليات العسكرية على إنذار سابق وواضح، مثل طلب الاستجابة لبعض المطالب أو العودة عن بعض التصرفات خلال مهلة محددة تصبح نهايتها إذا لم تتحقق هذه الاستجابة أو العودة حالة حرب قائمة بين الدولة الموجهة للإنذار والدولة الموجه لها، ونجد الأمر نفسه تقريباً في الفكر الإسلامي الذي يقر بوجود إعلان الحرب من طرف ولي أمر المسلمين أو الإمام باعتباره القائد الأعلى للجيش والمختص بإعلان الحرب بعد التشاور في الأمر مع من هم أهل لها، ولا يمكن بعد ذلك لأي فرد من الرعية أن يرفض الحرب أو أن يتولى يوم الزحف، كما أنه لا يحق لأي كان أن يعلن الحرب على الكفار بمجرد رغبته في ذلك ووفق هواه، وإنما لا بد من استئذان ولي الأمر حتى تكون العلاقات مع الأعداء واضحة وفق نظام معين، وتختلف طرق بدء الحرب حسب عدة حالات، فيمكن أن تكون وفق توجيه أعمال القتال مباشرة إذا كان العدو هو من باشر الحرب ونقض عهداً ففي هذه الحالات يكون العدو هو سبب نشوب القتال، ويمكن أن تبدأ الحرب إذا كان العدو مقيماً في بلاد المسلمين عن طريق إبلاغ العدو المأمّن وهو كل مكان يأمن فيه الشخص على نفسه و ماله، والطريق الثالث لبدء الحرب هو إبلاغ الدعوة الإسلامية أو الإنذار بالحرب ويكون بتخيير العدو بين الإسلام أو العهد أو القتال.

- **تحديد مكان الحرب:** تجري الحرب مبدئياً في مناطق محددة، مع التأكيد على صعوبة التمييز بين بين ميدان الحرب أي مناطق إعداد وتوجيه الأعمال الحربية وبين ساحة القتال أي مناطق الاشتباك، وقد يحدث أن تكون تجري الحرب على إقليم دولة ثالثة، والملاحظ في الوقت الراهن أنه يصعب تحديد ميدان القتال

محدّدة تقريبا، لقانون شكلي أو عرفي»¹، إن وصف الحرب بالعقد يجعل منها توافقا بين إرادتين أو أكثر على إنشاء رابطة قانونية أو تعديلها أو إلغائها، وبالتالي فهو إقرار بطابعها القانوني وبضرورة احترام بنود العقد الذي يربط الأطراف المتحاربة،

بشكل يسمح بنجاة المناطق الأخرى من أضرار الحرب وهذا بسبب التطور المذهل للأسلحة المستعملة في الحرب والتي تخلف دمار شاملا في أغلب الأحيان.

- **ضرورة التمييز بين المحاربين والمدنيين:** أو التمييز بين المحاربين وغير المحاربين، فالمحاربون عموما هم المضطلعون بالعمليات الحربية، ويشترط فيهم: حمل السلاح، وأن يكون لهم زي موحد وشارات مميزة، وأن يحترموا قوانين الحرب وعاداتها، بالإضافة إلى كونهم خاضعون لقيادة عسكرية مسؤولة، كما أنهم يقومون بأعمال حربية لفترة وجيزة، ويلتزمون بمعاملة المحارب العدو في حالة إلقاء القبض عليه كأسير حرب.

- **معاملة الأسرى:** الوقوع في الأسر يجب ألا يكون وسيلة للعقاب بقدر كونه وسيلة للحبطة ضد عدو أصبح أعزلا وبالتالي يجب ضمان حياته ومعاملته بصورة إنسانية بعيدا عن الانتقام أو إرغامه على المساهمة في أعمال حربية، ليس هذا فقط بل يجب أن يحظى بالعناية الصحية كذلك والإسراع بترحيل جميع أسرى الحرب إلى بلادهم فور انتهاء الحرب.

- **احترام المدنيين:** ينبغي احترام المدنيين أو غير المحاربين وحمايتهم وتجنبيهم أعمال العنف، ويجب تجنب حجز الرهائن أو تهجير الأهالي كرها، أو الانتقام منهم أو تعذيبهم أو التفريق فيما بينهم استنادا إلى الجنس أو الدين أو القومية أو الرأي السياسي، ويجب احترام الأموال والأموال العامة والخاصة إلا ما لوم لأفراد قواتها وبعد دفع التعويضات الملائمة، كما يجب مراعاة استمرار المحاكم الوطنية مع جواز إقامة محاكم خاصة للنظر في الأعمال الموجهة ضد قواتها.

- **تحريم بعض أنواع الأسلحة:** تنص العديد من الاتفاقيات الدولية على ضرورة عدم تعريض المقاتلين للوسائط البربرية التي تسبب آلاما غير مبررة، وتحرم بعض الأسلحة مثل الغازات السامة والخانقة، ومنع إنتاج أو تخزين أي سلاح جرثومي بكتريولوجي، كما حرمت الاتفاقيات الدولية العديد من الأمور التي يستحيل القضاء عليها واختفائها في حالة السلم وما بالننا بحالة الحرب مثل التمويه والتجسس وغيرها من الأمور التي تبقى تمارس على نطاق واسع وأما تحريمها فيبقى مجرد حبر على ورق.

أنظر: أحمد سرحان، **قانون العلاقات الدولية**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، مصر، الطبعة الأولى، 1990، من ص 398 إلى ص 403.

أنظر كذلك: وهبة الزحيلي، **أثار الحرب**، دار الفكر، دمشق، الطبعة الرابعة، 2009، من ص 151 إلى ص 161.

1 - غاستون بوتول، **ظاهرة الحرب**، ص 41.

سواء تعلق الأمر بأفراد الجماعة الواحدة أو تعلق بالعلاقات والتفاعل بين القوتين المتحاربتين، وأهم هذه البنود هو إعلان البداية وإعلان نهاية الحرب، فبداية الحرب حسب غاستون بوتول تكون بمراسيم تعبر عن الانتقال من حالة السلم إلى حالة الحرب¹، والنهاية تكون بمراسيم تدل على عكس الاتجاه السابق، ويبرر موقفه هذا بحجة أن الحرب ليست معركة أو مجموعة معارك متواصلة بدون توقف، بل الواقع يثبت أنها «حقبة زمنية تطبق خلالها قواعد قانونية ذات طبيعة خاصة»²، ويضيف في السياق نفسه أن الحرب «هي أن تلجم الجماعات أو قادتها اندفاعاتها الحربية ولا تحررها إلا في أوقات معينة، وتبعا لقواعد محدّدة»³، فالمحارب يجد نفسه يقوم بأعمال حربية محدّدة وفي فترة زمنية محددة كذلك، وضد عدو معروف وواضح ومحدد، فالحرب ليست حرب كل الناس ضد كل الناس كما يصفها توماس هويز، فهي لا تشمل - ولو نظريا - بعض الفئات في المجتمع مثل الأطفال والشيوخ والمعطوبين والأسرى والنساء، خاصة بالنسبة للطرف الذي يبادر بالهجوم فهو في الغالب لا يقحم هذه الفئات في الحرب التي تعتبر صراعا بقوة السلاح - كما أشرنا

1 - يتضح لنا هذا الانتقال من حالة السلم إلى حالة الحرب من خلال الإجراءات التي تتخذها الدول المحاربة ضد بعضها البعض، والتي تتلخص فيما يلي:
- تؤدي الحرب إلى قطع العلاقات الدبلوماسية بين الدول المتحاربة، إذ يغادر الموظفون الدبلوماسيون والسفراء الأعداء أراضي بعضهم البعض.
- وقف التعامل وإبطال العقود الموقعة مع رعايا الدول العدو ووقف تنفيذها.
- فرض الإقامة الجبرية على رعايا الدولة العدو وتجميعهم في معسكرات اعتقال تحت ضمانات رقابة دولية، أو ترحيلهم لدواع أمنية.
- وضع الأموال والممتلكات الخاصة للمواطنين أو الشركات العائدة للدولة العدو تحت الحراسة ومصادرتها أو تصفيتها وبيعها وسدادها كتعويضات لأضرار الحرب.
أنظر: أحمد سرحان، قانون العلاقات الدولية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، مصر، الطبعة الأولى، 1990، ص 403، 404.

2 - غاستون بوتول، ظاهرة الحرب، ص 41.

3 - المصدر نفسه، ص 42.

سابقا - بين بعض الناس ضد البعض الآخر وفي زمن محدد، هذه الضوابط هي ما يجعل الحرب ذات خاصية قانونية.

تبعاً لهذه الخصائص التي ذكرها غاستون بوتول، نستنتج أن الحرب تحدّد وفق عدة عناصر، فيمكن أن تحدّد وفق الإطار القانوني أو وفق الصراعات المسلحة، كما يمكن أن يكون محدّدها هو الهدف الذي تسعى إليه وهو الهدف الذي قد يكون عسكرياً أو سياسياً كما رأينا مع كلاوزوفيتز، وقد تكون النظرة إلى الحرب أدنى من ذلك فتحدّد الحرب بإكراه العدو وشل قوّته من أجل فرض إرادتنا عليه، وفي حالات أخرى يكون الحكم الإلهي أو الصراع العادل هو المحدّد لها، زيادة على ذلك يمكن للمظاهر الخارجية للحرب - ككونها نزاع مفتوح أو أن جميع عناصر المجتمع معنية بها - أن تحدّدها، ونجد من المفكرين من يفعل ذلك اعتماد على نتائجها أو على الوسائل التي تستخدمها، فالحرب إذن، يمكن تحديدها بالعديد من العوامل وهذا بسبب تعدد التعاريف التي وضعت لها، وقد أحصى بوتول العديد من هذه التعاريف¹ التي وضعت لظاهرة الحرب قبل أن يصوغ تعريفه الخاص بها بقوله: «إن الحرب هي أحد أشكال العنف الذي يتميز بصفة أساسية بأنه منهجي ومنظم فيما يتعلق بالجماعات التي تقوم به، وبالطرق التي تستعملها من أجل ذلك، إضافة إلى ذلك، إن الحرب محدودة في الزمان والمكان، وخاضعة لقواعد قانونية خاصة بها على درجة كبيرة من التغيّر تبعاً للأمكنة والعصور، جميع هذه الميزات تتبع من الطابع المنظم للنزعات الحربية»²، من الواضح أن بوتول يرى أن الحرب هي شكل من أشكال العنف المنظم الذي تقوم جماعة معينة، هذا التنظيم يقتضي وجود روابط تجمع أفراد الجماعة المحاربة، وقد تكون هذه الروابط

1- أنظر: غاستون بوتول، ظاهرة الحرب، ص46،45،44.

2- غاستون بوتول، ظاهرة الحرب، ص48،47.

هي رابطة دم أو دين أو رابطة سياسية أو اقتصادية كما يمكن إضافة روابط أخرى مثل الولاء للأشخاص أو الروابط اللغوية أو الإثنية، أو الانتماء الجغرافي، وخضوع الحرب لقواعد قانونية خاصة يجعلها تبرز أهم قاعدة فيها وهي الأمر بالقتل وليس السماح به فقط، وهذه خاصية أساسية وتجعل من الحرب صراعا دام، كما أن قانون الحرب يقوم بتنظيم الأعمال الأخرى المرتبطة بالعمل الحربي مثل أعمال النهب التي تحدث إبانها أو تقسيم الغنائم والأغراض والمقدرات الثمينة التي يتم السيطرة عليها، وفي الوقت ذاته يسعى هذا القانون للحفاظ على أشياء أخرى مثل الآثار القديمة والأعمال الفنية، وجدير بالذكر أن هذه القوانين تختلف حسب اختلاف الزمان والمكان، فالحرب بهذا المفهوم تعتبر حقا مؤسسة.

يختتم **غاستون بوتول** تصوره لمنهجية دراسة الحرب ببحث أهمية تعريف الحرب، فيرى « أن فائدتها تكمن في كونها تشكل معلومات تمهيدية لا غنى عنها لكل دراسة لظاهرة الحرب، ذلك أننا لا نستطيع الشروع في هذه الدراسة بطريقة منهجية دون حصر إطارها بعناية بقصد تمييزها عن الأحداث المشابهة»¹، فالتعريف ليس غرضه فقط البحث عن التأصيل اللغوي للألفاظ - ومنها لفظ الحرب - ولا هو التحليل الجدلي بإظهار مختلف الآراء حول معنى الحرب، بل أهمية التعريف الحقيقية تكمن في اكتساب القدرة على التمييز بين مصطلح الحرب وباقي المصطلحات القريبة منها، وهذا بعد تحديد خصائصها المميزة لها عن سواها من المصطلحات، لذلك يكون التعريف الأولي للحرب هو أن نقول « الحرب تتميز بهذه وتلك الخصائص، أما التحديد النهائي لها فنقول: الحرب...»²، يعني هذا أن في بداية بحث الظاهرة يتم تحديد خصائصها فقط، أما التعريف النهائي لها فتكون صياغته بعد الانتهاء من الدراسة العلمية لظاهرة الحرب.

1- غاستون بوتول، ظاهرة الحرب، ص48.

2- المصدر نفسه ، ص49.

المبحث الثاني: القوة غاية الدولة.

1 المفهوم اللغوي للقوة:

القوة نقيض الضعف والعجز، جمعها قُوَى قُوَى، «والقُوَّة من تأليف ق. و.ى ولكنها حملت على فُعَلَة فأدغمت الياء في الواو كراهية تغير الضمة، والفِعَالَةُ منها القُوَايَةُ»¹، والقوة تكون في البدن وفي العقل وفي الدين وفي الحجة وفي النفس والعدَّة أو الأداة.

والقُوَّة الخصلة الواحدة من قوى الحبل، وقيل القُوَّة الطاقة الواحدة من طاقات الحبل أو الوتر، وفي الحديث: «يذهب الدين سُنَّةً سُنَّةً كما يذهب الحبل قُوَّة قُوَّة» فهو مشتق من قُوَّة الحبل.

في اللغة الفرنسية القُوَّة Puissance اسم مؤنث وهي سلطة ممارسة فعل هام مادي أو معنوي أو غير ذلك على الآخرين وهو مرادف للتأثير والسلطة²،

1 - ابن منصور، لسان العرب، دار المعارف، د ط د ت ، ص 3787.

2-Pluridictionnaire La Rousse ,Librairie Larousse, Paris, première, édition,1977,P 1130.

وتقال على الشخص والأمة والدولة والجيش، وقد تعني السيادة، ويقابلها العجز
Impuissance.

2- القوة كمفهوم فلسفي:

جاء في القواميس والموسوعات الفلسفية عدة معانٍ لمفهوم القُوّة، فهي تدل على القدرة، والشدّة، والطاقة، والاستطاعة، والعزم، والملكة، والحق، والضرورة، ولكي يتضح لنا ذلك لابد من ضبط معاني القوة من كل جوانبها الفلسفية والفيزيائية والسياسية والاجتماعية الاقتصادية، مع التسليم مبدئياً بصعوبة الفصل التام بين هذه الجوانب المختلفة من الناحية الواقعية من حيث المحددات التي تفصل بين مختلف معاني القُوّة.

إن القُوّة بوصفها مصطلحاً فلسفياً تعني «مبدأ الفعل سواء كان بشعور وإرادة أو لا، وهي إما مادية كقُوّة الانفجار، وإما معنوية كقُوّة العقل»¹، إذا كان الفعل المادي للقُوّة مرتبطاً بالجانب الفيزيائي لها أي بالمادة، فإنه يمكن أن نلاحظ أن معنى القُوّة هنا يكاد يطابق معنى الطاقة، على اعتبار أن تفكك المادة يفضي إلى إنتاج الطاقة وهذه الأخيرة غالباً ما تظهر لنا في شكل من أشكال القُوّة.

أما الجانب المعنوي فالمقصود به العقل بالفعل والعقل الهيولاني والعقل بالملكة والعقل القدسي والعقل المستفاد²، والقُوّة كمبدأ للفعل هي «إكراه طبيعي وخارجي

1- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، الجزء الثاني، دارالكتاب اللبناني، بيروت، 1986، ص 201 و 202.

2 - أنظر: عمار الطالبي، اصطلاحات الفلاسفة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الرغاية، الجزائر، 1983، من ص 57 إلى ص 63.

وضرورة تقاومها الإرادة بلا طائل»¹ يفهم من هذا أن القوّة هي ضد الإرادة من جهة وهي الإرادة ذاتها من جهة أخرى، فحين تكون القوّة مبدأً فعل من طرف معين فإنها تشكل ضدّاً لإرادة الطرف الثاني الذي يقع عليه الفعل وهو كاره له ومحاول صده بما يملك من قوّة كذلك، ولكنها بالنسبة للطرف الأول الذي يمارس الفعل فالقوّة تعبر عن الإرادة ذاتها.

يحدّد عبد الرحمن بدوي في موسوعته الفلسفية معنيين مهمين لمفهوم القوّة، الأول يحدّد القوّة على أنها «هي القدرة في الشيء على إحداث تغيير في شيء آخر»²، ويعتقد أن الفلاسفة الإنجليز في القرنين السابع عشر والثامن عشر ميلادي قد فهموا القوّة بهذا المعنى، أي أنها شيء يقدر على الفعل وقادر على قبول التغيير، فهي قدرة فعالة وقدرة منفعة.

المعنى الثاني الذي يحدده عبد الرحمن بدوي للقوّة هو «الإمكانالقائم في شيء للانتقال إلى شيء آخر»³، إن ما يقال بالقوّة هنا هو في مقابل ما يقال بالفعل، لأن كل تغيير هو انتقال من الوجود بالقوّة إلى الوجود بالفعل، وقد ركز بدوي هنا على آراء أرسطو الذي يعتبر أن ما هو «بالفعل» أسبق في الوجود على ما هو «بالقوّة» لأن هذا الأخير لا يصير بالفعل إلا بواسطة شيء موجود بالقوّة⁴.

مما سبق يمكن القول إن مصطلح القوّة من الناحية الفلسفية هي مبدأً الفعل، وهي إما قوة مادية مرتبطة بالمادة أو معنوية محلها العقل أو الإرادة، كما

1- أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، الجزء الأول، ترجمة: خليل أحمد خليل، دار عويدات للنشر، بيروت، الطبعة الثانية، 2001، ص 445.

2- عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، الجزء الثاني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1984، ص 238.

5- المرجع نفسه، ص 283.

4- المرجع نفسه، ص 238.

ربط الفلاسفة القوّة بالطاقة والقدرة والتغير، أي بالفعل والانفعال وجعلوها ذات صلة مباشرة بمسألة الوجود.

3- القوة كمفهوم فيزيائي:

أما الجانب الفيزيائي لمعنى مصطلح القوّة فيتمثل في كونها مصدر الحركة والفعل، كقولنا قوّة التحريك وقوة الطبيعة، يقول **لالاند**: «التعريف المتداول للقوّة هو هذا: نظراً لأن كل جسم متروك لذاته يظل إلى ما لانهاية في حركة مستقيمة الخط ومتشاكلة - أو في السكون الذي يمكن اعتباره حالة خاصة من حالاته - فإن اسم القوّة يطلق على كل ما يمكنه تعديل هذه الحالة السكونية أو الحركية المستقيمة والمتشاكلة»¹، فالقوة كفكرة فيزيائية هي مصدر حركة الأجسام أو سبب في تغير جهة أو سرعة حركتها، وتحسب شدة القوّة في العلوم الفيزيائية بضرب الكتلة في التسارع وفق المعادلة التالية:

$$ق = ك \times تع$$

ق: القوّة.

ك: الكتلة.

تع: التسارع الحركي.

يميز علماء الفيزياء بين القوّة والقوّة الحيوية التي يعتبرونها شكلاً من أشكال الطاقة² وتحسب وفق المعادلة:

$$ط = (ك \times سر^2) / 2$$

1- أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، الجزء الأول، ترجمة: خليل أحمد خليل، دار عويدات للنشر، بيروت، الطبعة الثانية، 2001، ص 445.

ينظر:

2- jean claude debeir, jean paul delege, daniel hemery, Les Servitudes De la Puissance, edition flammariion, pris, France, 1986, p 21.

ط: الطاقة.

ك: الكتلة.

سر: السرعة

فالقوة في العلوم الفيزيائية بصفة عامة وفي علم الميكانيك بصفة خاصة مرتبطة بالحركة، وعندما نقول إنها تكون بالحركة فهذا يعني أنها مرتبطة بالمادة والزمان، لأن الكتلة مرتبطة بالمادة، والزمان هو عدد الحركة، أي حركة المادة.

4- القوة كمفهوم اقتصادي:

أما من الناحية الاقتصادية فالقوة تحمل على موضوع الدولة، فيقصد بالقوة مجموع المقومات الاقتصادية الأساسية التي تتوفر عليها الدولة والتي تعتبر ضرورية لنموها وتطورها في كل القطاعات الزراعية والصناعية والتجارية، وتتجلى هذه القوة الاقتصادية في عدة مظاهر مثل قدرة الدولة على استغلال الثروات الطبيعية التي تتوفر عليها، وتحقيق الاكتفاء الذاتي في الحاجات الضرورية لأفراد شعبها، تحسين المستوى المعيشي للأفراد، رفع مستوى الدخل الفردي والقومي، والمساهمة في حجم الإنتاج في السوق العالمي.

يتضح لنا في هذا المقام ارتباط مفهوم القوة الاقتصادية بمفهوم القوة الإنتاجية أو بالعوامل المساهمة في تطوير وتقوية عملية الإنتاج الزراعي والصناعي والقدرة على تسويق هذا المنتج، وقد حدّد آدم سميث (1723م- 1790م) في كتابه ثروة الأمم مصدر هذه القوة الإنتاجية في تقسيم العمل، إذ يقول: «فتقسيم العمل يؤدي بقدر ما يكون ذلك ممكنا... إلى زيادة متناسبة في قوى

العمل الإنتاجية»¹ أي هناك تناسب طردي بين نسبة تقسيم العمل وزيادة قوّة العمل الإنتاجية فكلما زادت الأولى زادت الثانية والعكس صحيح، وإدراك هذه الحقيقة هو السبب في الفصل بين مختلف الصناعات والأعمال عن بعضها البعض، فالتخصص في العمل وتقسيمه وإن كان هو «نتيجة ضرورية لميل معين في الطبيعة البشرية، وهو الميل إلى المعاوضة ومقايضة شيء ما لقاء شيء آخر والمبادلة به»² فإنه كذلك صادر عن الرغبة في زيادة القوّة الإنتاجية، ويستدل آدم سميث عن موقفه هذا بالمقارنة بين تطور قوى الإنتاج في القطاع الزراعي وقوى الإنتاج في القطاع الصناعي، إذ لاحظ أن تطور قوى العمل الإنتاجية في الزراعة لا تسير التطور المسجل في قوى العمل الإنتاجية في الصناعة، لأنه لا يمكن تحقيق الفصل التام والكامل بين مختلف فروع العمل الزراعي³.

ويظهر أثر تقسيم العمل في زيادة وتطور قوّة العمل الإنتاجية حسب آدم سميث فيما يلي:

«-أولاً: زيادة المهارة لدى كل عامل مخصوص.

- ثانياً: الاقتصاد في الوقت الذي يهدر عادة في الانتقال من نوع معين من العمل إلى نوع آخر.
- ثالثاً وأخيراً، اختراع عدد كبير من الآلات التي تسهل العمل وتختزله، وتمكن لرجل واحد من القيام بعمل عدة رجال»⁴.

1- آدم سميث، ثروة الأمم، المجلد الأول، ترجمة: وليد شحادة، دار الفرقد للطباعة والنشر، دمشق، سورية، 2016، ص 13.

2 - المصدر نفسه ، ص 23.

3 - لكن في مقابل ذلك يرى آدم سميث أن التطور المحقق في المجال الصناعي يكون له تأثير مباشر على تطوير قوى العمل الإنتاجية في المجال الزراعي، وهذا بسبب ما يوفره القطاع الصناعي م وسائل تساعد في تطوير العمل في المجال الزراعي.

4 - آدم سميث، ثروة الأمم، المجلد الأول، ص 18، 19، 20.

إن هذه المظاهر الثلاثة فيها من الدلالة ما يثبت بالدليل الواقعي أن تقسيم العمل هو مصدر تطور قوّة العمل الإنتاجية، فالمهارة التي يكتسبها العامل تزيد بالضرورة من كمية وجودة العمل الذي يقوم به، كما أن توفير الوقت له أهمية كبيرة في المجال الاقتصادي باعتباره عنصراً مهماً في العملية الإنتاجية إلى جانب درجة صعوبة العمل وكذلك درجة البراعة والإبداع الذي يحتاجه العامل لإنجازه، كما أن تقسيم العمل يدفع العمال لاكتشاف أفضل السبل لبلوغ هدف معين ، وهذا بسبب تركيز قواهم الذهنية على موضوع واحد، ويكون هذا الموضوع في هذه الحالة موضوعاً بسيطاً، وقد نتج عن هذا أن أغلب الآلات المستعملة في الصناعات هي من اختراع عمال عاديين، ولكن آدم سميث يؤكد «أن التحسينات التي أدخلت على الآلات ليست كلها من اختراع أولئك الذين أتاحت لهم فرصة استعمال الآلات فحسب، فالعديد من التحسينات قد جاء بها إبداع صانعي الآلات عندما بات صنعها من اختصاص مهنة خاصة»¹، وعليه فتقسيم العمل حسب هذا الرأي لا يؤدي فقط إلى زيادة قوة العمل الإنتاجية في صناعة معينة، بل يؤدي كذلك إلى خلق ثروة جديدة والتي تعبر عن أحد أوجه القوة الاقتصادية للدولة.

أما كارل ماركس (1818م-1883م) فلا يختلف كذلك من حيث المبدأ عن آدم سميث في اعتبار القوة الاقتصادية تتمثل في القوة الإنتاجية، لكن كارل ماركس يبني القوة الاقتصادية عن العلاقة الاجتماعية الاقتصادية بين رأس المال

1 - آدم سميث، ثروة الأمم، المجلد الأول، ص 20.

2 . يقصد ماركس بالنظام الرأسمالي ذلك النظام الاقتصادي الذي ظهر في أوروبا بعد زوال النظام الإقطاعي، فالنظام الرأسمالي في نظر ماركس مرحلة ضرورية قبل بلوغ مرحلة النظام الاشتراكي، لأن الرأسمالية نظام صالح لخلق الثروة أما الاشتراكية فهي النظام الصالح لتوزيع هذه الثروة بالشكل العادل بين جميع أفراد المجتمع.

والعمل فهذه العلاقة تشكل أساس النظام الاجتماعي الحالي² وهي القوة الاقتصادية، لأن المجتمع حسبه في هذا النظام الاجتماعي ينقسم إلى قسمين: الرأسماليون الذين يملكون أدوات الإنتاج والمواد الأولية ووسائل المعيشة. جماهير العمال التي لا تملك سوى قوة العمل.

والعلاقة الاجتماعية القائمة في هذا المجتمع بين الرأسمالي والعمال هي: قوة العمل مقابل كمية معينة من وسائل المعيشة التي «تكفي بالضبط لإبقائهم صالحين للعمل ولتنشئة جيل جديد من العمال»¹. والنتيجة هي إنتاج قيمة زائدة وإنشاء جيل جديد من العمال الصالحين للعمل أو إنتاج قوة عمل جديدة.

فالقوة الاقتصادية حسب الفكر الماركسي تتمثل من جهة في القيمة الزائدة التي تضاف إلى رأس المال ومن جهة أخرى في العمل، لكن إذا دققنا في تحليل ماركس للقيمة الزائدة ومصدرها نجد أنه يرجعها إلى العمل لأن « العمل مصدر كل ثروة ومقياس جميع القيم»²، والقيمة الزائدة في الواقع البسيط والشائع تنتج من الفرق الموجود بين ثمن الشراء و ثمن البيع، لكن هذه القيمة الزائدة لا يمكن تحصيلها من تقدير البضائع من طرف البائع أو المشتري بأكثر من قيمتها أو أدنى من ذلك، فهذا لا ينتج قيمة جديدة أو زائدة بل سوف يؤدي فقط إلى توزيع جديد ومختلف لرأس المال الموجود على الرأسماليين، والقيمة الزائدة مصدرها الحقيقي شيء آخر، إن ماركس قد لاحظ أنه « رغم أن الرأسمالي يشتري البضائع وفقا لقيمتها و يبيعها

1 - فريدريك أنجلز نقلا من كتاب: كارل ماركس، رأس المال، المجلد الثالث، ترجمة: محمد عيتاني، مكتبة المعارف، بيروت، 1978، ص 1166.

2- كارل ماركس، رأس المال ، المجلد الثالث، ص 1157.

وفقا لقيمتها، فإنه يستخرج من ذلك قيمة أكبر مما وضع، فكيف ذلك؟¹ يرى ماركس أن حل هذه المعضلة يكمن في الظروف الاجتماعية التي كانت تسود في زمانه- وهي الظروف الاجتماعية للمجتمع الرأسمالي- والعلاقة الاجتماعية القائمة بين الرأسمالي و العمال كما ذكرنا سابقا، ويمكن توضيح هذه العلاقة بالقول بأن «الرأسمالي يجد في سوق البضائع في الظروف الاجتماعية الحالية بضاعة تتمتع بالخاصية العجيبة وهي أنها مكوّنة بحيث أن استهلاكها يكون منبعا لقيمة جديدة وخلقاً لقيمة جديدة، وهذه البضاعة هي قوّة العمل»²، فقوّة العمل هي مصدر القيمة الزائدة وجوهر القوّة الاقتصادية حسب ماركس، ويعرف قوّة العمل بقوله: «ينبغي أن يفهم من تعبير قوّة العمل أو القدرة على العمل على أنه جماع القدرات الجسدية والذهنية الموجودة في الكائن البشري في شخصه الحي، والتي يستخدمها حيثما يقوم بإنتاج قيمة استعمالية أيًا كانت خصائصها»³ فقوّة العمل توجد في السوق تحت شكل العامل الحيّ، وهذا العامل يحتاج لوسائل المعيشة التي تبقيه حياً وتمكنه من إنتاج قوّة عمل جديدة، وقد لاحظ ماركس أن «الوقت الضروري لإنتاج وسائل المعيشة يمثل قيمة قوّة العمل، وإن الرأسمالي يدفع أجر العامل أسبوعياً وبشترى بذلك استخدام عمل العامل الأسبوعي»⁴، ولكن العامل يقدم المقدار نفسه من العمل الذي يمثله أجره في أقل من المدة الزمنية المحددة -أسبوع مثلاً- ولكنه يستمر في العمل طول المدة المتفق عليها⁵، هذا العمل الزائد الذي يقدمه العامل خلال الوقت

1 - المصدر نفسه، ص 1160.

2 - المصدر نفسه، ص 1160 و1161.

3- كارل ماركس، رأس المال، المجلد الأول، ترجمة: محمد عيتاني، مكتبة المعارف، بيروت، 1978، ص 219.

4- المصدر نفسه، ص 1161.

5- يرى كارل ماركس أنه كان على الطبقة المضطهدة في جميع الأزمان أن تقدم عملاً لا يدفع ثمنه، فخلال الفترة التي كان فيها نظام الرق هو الشكل السائد لتنظيم العمل، كان على الأرقاء أن يقدموا عملاً أكبر كثيراً مما كان يعاد إليهم في شكل وسائل معيشية وأقوات، وكان الأمر على هذا الحال ذاتها في ظل

الذي يتجاوز الوقت الضروري لتسديد أجره هو منبع القيمة الزائدة هو منبع الربح ومنبع الثروة المتزايدة والمتعاضمة باستمرار، نفهم من هذا أن العمل المدفوع ثمنه يمثل أجر العامل، والعمل غير المدفوع ثمنه يمثل ربح الرأسمالي من جهة، ومن جهة أخرى هو الذي « الذي يعيل جميع أعضاء المجتمع الخاملين، من هذه الأموال تدفع ضرائب الدولة والبلدية، من حيث هي تمس الطبقة الرأسمالية»¹، من هذا يستنتج ماركس أن الحالة الاجتماعية الراهنة تركز على العمل غير المدفوع ثمنه لهذا يرى أن العمل أو قوّة العمل أو مصدر القيمة الزائدة ليست فقط قوة اقتصادية بل يمكن أن تصبح قوّة سياسية ومن خلالها يساهم العمال في صنع القرارات السياسية باستغلال قوّة العمل في النضال السياسي وقت الإنتخابات مثلا، لكن يشترط في هذا وعي الطبقة العاملة بفكرة العدالة الاجتماعية القائمة على معيار المساواة في توزيع الناتج الاجتماعي بنسب متساوية على أفراد المجتمع² والوعي بحقيقة وضعهم كقوّة حقيقية، هذا الوعي بالقضية والمكانة التي يحتلها العمال في العملية الاقتصادية كمصدر للقيمة الزائدة هي المرتكز الذي يقوم عليه مطلب الطبقة العمالية أكثر فأكثر باستخدام هذه الثروات وهذه القوى الإنتاجية لمصلحة المجتمع بأسره وليس لمصلحة طبقة احتكارية، فالعمال هم مصدر القيمة الزائدة ويجب أن يستفيدوا منها بقدر استفادة الرأسمالي منها.

نظام القنانة وحتى حين إلغاء السخرة الفلاحية، وذلك سببه حسب ماركس مادام جزء من المجتمع يملك احتكار وسائل الإنتاج ، فإن العامل سواء أكان حرا أم لا، يكون مجبرا بأن يضيف إلى وقت العمل الضروري لإعالتة هو شخصيا، زيادة إضافية مخصصة لإنتاج الوسيلة لإعالة مالك وسائل الإنتاج.

من كتاب، كارل ماركس، رأس المال، المجلد الثالث، ترجمة: محمد عيتاني، مكتبة المعارف، بيروت، 1978، ص 1163.

1 - فريدريك أنجلز نقلا عن: كارل ماركس، رأس المال، المجلد الثالث، ص 1162.

2 - ديفيد جونستون، مختصر تاريخ العدالة، ترجمة: مصطفى ناصر، سلسلة عالم المعرفة، العدد 387، الكويت، 2012، ص 203.

ما يمكن ملاحظته كذلك في هذا الموضوع هو اتفاق كارل ماركس مع آدم سميث حول مسألة التقدم التقني والعلمي في وسائل الإنتاج، فماركس كذلك يرى في تقدم الآلية سببا في الحاجة إلى مقدار من العمال أقل للحصول على الكمية نفسها من المنتجات، وهو ما يعني الزيادة في القيمة الزائدة أو الربح، لكن ماركس يرى هذه المسألة من زاوية أخرى وهي زاوية العمال، إذ يعتبر هذا الأمر يؤدي إلى خلق فائض من العمال هذا الفائض يستعمله الرأسمالي «لتحطيم قوّة مقاومة العمال المستخدمين بصورة منتظمة»¹ وذلك بإعطائهم أجرا أدنى من قيمة عمله، كما يؤدي ذلك أيضا إلى وقوع هذا الفائض من العمال عالة على المساعدات الخيرية العامة.

5- القوة كمفهوم سياسي:

يرتبط مفهوم القوّة من الناحية السياسية بالعديد من المفاهيم الأخرى التي تعتبر مفاهيم أولية ينبغي الاعتماد عليها لفهم مصطلح القوّة السياسية، مثل مفهوم الدولة و مفهوم العلاقة السياسية بين الحاكم والمحكوم، ومفهوم القدرة، ومن جهة أخرى يوظف مفاهيم أخرى للقوّة مثل القوّة الاقتصادية، لهذا لا نجد اتفاقا بين الفلاسفة والباحثين حول مفهوم القوّة السياسية على الرغم من كَوْن هذا المفهوم كما يقول **تالكوت بارسونز**² (1902-1979م): « هو إحدى المفاهيم المفتاحية في التقليد

1 - فريدريك أنجلز من كتاب: كارل ماركس، رأس المال، المجلد الثالث، ص 1167.

2- تالكوت بارسونز Talcott Parsons (1902-1979)، عالم اجتماع أمريكي، أستاذ بجامعة هارفارد منذ عام 1927م، اهتم بأعمال إميل دوركايم وماكس فيبر، له العديد من المؤلفات في علم الاجتماع منها: بناء الفعل الاجتماعي صدر عام 1937م، نحو نظرية عامة في العقل صدر عام 1951م، المجتمعات: تطورها ومقارنتها صدر عام 1966م.

الكبير للفكر الغربي الخاص بالظواهر السياسية»¹، ولكن أرى أنه يمكن اعتماد بعض المفاهيم التي سوف تشكل الإطار العام لمفهوم القوّة السياسية، أولها التعريف القائل بأن القوّة السياسية هي « قدرات الناس، أفراداً أو جماعات، على القيام بأفعال قيامة فعالاً، و على سبيل الخصوص عندما تقف في سبيل تحقيقهم لأهدافهم وغاياتهم معارضة إنسانية أو مقاومة، وتقود مشكلة التغلب إلى مسألة الدور الذي تقوم به وسائل الإكراه بما في ذلك القوّة الجسدية، وعلاقة الإكراه بمظاهر الطوعية والاتفاقية في الأنظمة القويّة»²، إن تحليل هذا المفهوم للقوّة السياسية باعتباره إطاراً عاماً لها، يجبرنا على القول بأن القوّة السياسية محلها في العلاقة السياسية سواء بين الأفراد أو بين الجماعات، هذه الأخيرة قد تكون دولة أو جماعات منضوية تحت الدولة وقد تكون تحالفات بين الدول، وبالتالي فإن أحد أطراف هذه العلاقة السياسية هو الدولة، ولما كانت غاية الدولة التي وجدت من أجلها تتمثل أساساً في توفير الأمن والسلام للمواطنين والمحافظة على أرواحهم من جهة، و فرض النظام داخل الدولة من جهة أخرى، فإنها تحتاج إلى وسيلة هامة لتحقيق غايتها، وهذه الوسيلة هي القوّة بالإضافة طبعا إلى الشرعية في استخدام هذه القوّة، وهذا ما يضفي عليها الرضا والقبول من قبل من تمارس عليهم القوّة، وبهذا فالمواطن - أو الجماعة - لا يطيع القوّة ويقبل بالأمر الواقع فقط بل ينتقل إلى مرحلة الرضا والإخلاص لغاية الدولة، وهنا يكمن سر قيام الأفراد والجماعات بالأعمال الموكلة إليهم بطريقة فعالة حسب آراء الفيلسوف الإنجليزي جون لوك (1632-1704م) في السلطة السياسية وحققها في استخدام قوّة الجماعة لتنفيذ الشرائع ودفع العدوان الخارجي، أي استخدامها في فرض النظام و خوض الحروب.

1 - تالكوت بارسونز، نقل عن: ملحم قريان، قضايا الفكر السياسي: القوّة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 1981، ص 115.

2- المرجع نفسه، ص 115.

يفهم مما سبق ذكره أن القوة السياسية هي جزء أساسي في بنية الدولة وهي جوهر العلاقة السياسية، وأن الفعل السياسي سواء تجسد في شكل علاقات دبلوماسية أو في شكل حرب¹، قائم على المواجهة أو النزاع بين طرفين أو أكثر، هذه المواجهة تفرض على كل طرف اللجوء إلى استخدام القوة السياسية من أجل تحقيق أهدافه وغاياته وتجاوز المقاومة² التي يبديها الطرف الآخر، بهذا يمكن تعريف القوة السياسية بأنها «التحكم والسيطرة المباشرة أو غير المباشرة لشخص معين أو جماعة معينة على أوجه إثارة القضايا السياسية أو عملية توزيع القيم وما يترتب عليه من مقدرة في التقرير أو التأثير في الموقف في الاتجاه الذي يفضله صاحب

1- الحرب هي فعل سياسي حسب كلاوزوفيتز (1780-1831م) القائل بأن الحرب هي استمرار للسياسة بوسائل أخرى، والعلاقات الدبلوماسية في العصر الحديث تثبت أن الدبلوماسية لا تختلف عن الحرب إلا فيما يتعلق باستعمال الأسلحة والقوة المادية، لأن غرضها وهدفها النهائي واحد وهو إخضاع الطرف الآخر لإرادتها.

2- المقاومة هي الممانعة وعدم الرضوخ لتغيرات وقوى مفروضة من الخارج، أو السعي لتغيير ما يفرض علينا من الخارج، جاء في معجم الفلسفة لجميل صليبا: قاومه مقاومة: قام له وعارضه، ومنه مقاومة الأهواء أي مغالبتها، ومقاومة الجسم أي مناعته، وإن للإحساس بالمقاومة ميزة على غيره من الإحساس لأنه يكشف لنا عن شيء ذي صلابة ومتانة، وكل ما يقاومنا فهو خارج عنا.

أما عبد الوهاب الكيالي في موسوعته السياسية يرى أن المقاومة لها أكثر من معنى، فهي أولا الحق الذي يتمتع به الأفراد والجماعات والذي يتيح لهم التصدي لكل التصرفات غير القانونية أو الجائرة والتي تصدر عنهم في موقع المسؤولية، وهذا الحق أقرته العديد من العقائد والشرائع ومثال ذلك إعلان حقوق الإنسان الصادر في جويلية 1793م، ثانيا: المقاومة في شكلها العنيف أو الضارية والتي تسعى لقلب النظام القائم باللجوء إلى القوة حين يبدو لها أن هذا النظام قد زاغ عن جادة الحق. ثالثا: المقاومة كفعل يستهدف التغيير بكافة وجوهه فيعني المعارضة الإرادية واللاإرادية التي تعتمد على جماعة من الناس أو بعض المؤسسات بغية إقرار تغيير شامل يتناول الأفكار والسلوك وقواعد النظام، ويمكن ملاحظة أن هذا المعنى الثالث قريب من مفهوم الثورة.

راجع: جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ص 40، 407.

عبد الوهاب الكيالي، موسوعة السياسة، الجزء السادس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، ص 288 و 289.

القوة... أو الإمكانيات والقوة التي يمكن أن تستخدمها الدولة للوصول إلى أهدافها القومية في الصراع الدولي، إذا فالقوة هي الطاقة العامة للدولة لكي تسيطر وتتحكم في تصرفات الآخرين»¹، يفهم من هذا التعريف أن قوة الدولة تحددها مصادر هذه القوة من جهة، ومن جهة أخرى القدرة على إدارة تلك المصادر وتوظيفها، وعليه فإنه مهما كانت مصادر القوة التي تمتلكها دولة ما فإنها تبقى عاجزة إذا لم تمتلك الوعي بما تملك والعلم بطريقة تحويل هذه المصادر إلى طاقة مؤثرة في الآخر.

تبعاً لما سبق ذكره فإن تحليل مصادر القوة السياسية بالنسبة للدولة والمتجسدة في الإمكانيات التي تتوفر عليها الدولة ووعياها بكيفية استخدامها لتحقيق أهدافها، يوضح لنا أن هذه المصادر تختلف باختلاف الزمان وهو ما يؤدي إلى تغير وتطور في مفهوم القوة، لكن إذا ركزنا على الوقت الحاضر فإننا نجد أن المصادر الأساسية للقوة السياسية والذي يشكل محورا بالنسبة للمصادر الأخرى هو النظام السياسي للدولة الذي يتيح ويخلق تفاعل المصادر الأخرى لقوة الدولة وعليه يتحدد حجم وشدة قوة الدولة، وهذا من خلال عدة عوامل مثل استقرار النظام السياسي القائم على مؤسسات قوية ومستقرة، وأداء متميز للنظام السياسي، والاعتماد على إطارات ذات كفاءات خاصة في تسيير وإدارة شؤون الدولة في جميع المجالات. ويرتبط بهذا مصدراً آخر للقوة السياسية وهو نوعية الدبلوماسية أو كيفية إدارة السياسة الخارجية، فهذا المصدر يعتبر من محددات قوة الدولة وعليه يقوم وزنها ضمن إطار القوة العالمية، وعلى قمة هرم الدبلوماسية نجد حاكم الدولة الذي يعتبر كذلك مصدراً آخر لقوتها خاصة إذا امتلك شخصية قوية، هذه الأخيرة تحددها مجموعة من الصفات التي ركز عليها العديد من الفلاسفة والمفكرين نذكر منهم

1- ربيع محمد مقلد، إسماعيل صبري، موسوعة العلوم السياسية، جامعة الكويت، الكويت، د ط ، د ت، ص 174.

الفيلسوف الإنجليزي **توماس هوبز** الذي حدد في كتابه **اللفياتان** العديد من الصفات التي إذا امتلكها الحاكم تمكنه من امتلاك خيرا مستقبلا، وتتمثل حسب **هوبز** في ملكات الجسد والفكر الاستثنائية كالقوة والمظهر والتبصر والفن والبلاغة والكرم والنبل والثروات والسمعة والأصدقاء، لكنه يجزم أن أعظم القوى البشرية هي تلك التي تتألف من قوى معظم البشر الموحدين بموافقتهم في شخص واحد طبيعيا كان أو مدنيا يستخدم كل قواهم وفق إرادته هو، كما في قوة الدولة¹.

كما يعتبر عدد سكان الدولة مصدرا آخر لقوتها، فكلما كان عدد السكان كبيرا كانت قوة الدولة أكبر، بمعنى أن هناك تناسبا طرديا بين هذين المتغيرين، ويمكن تفسير ذلك بكون زيادة عدد السكان يمنح الدولة قوة العمل اللازمة لإدارة شؤونها وتطوير اقتصاديها، كما يمدّها بالقوة البشرية اللازمة لإنشاء الجيش وإمداده.

وتشكل كذلك الموارد الاقتصادية مصدرا كذلك للقوة السياسية للدولة، فمصادر الطاقة والثروات المعدنية والأراضي الفلاحية التي تنتج المواد الغذائية التي تحتاجها الدولة والمياه الإقليمية، كل هذا يعطي الدولة قدرات مالية كبيرة وهي التي تشكل أساس النمو الاقتصادي وروح التبادل التجاري الدولي، هذا النمو هو الذي يدعم الطاقة الاقتصادية للدولة التي تركز عليها المصادر الأخرى لقوة الدولة مثل القوة العسكرية التي تحتاج إلى ميزانيات ضخمة لتمويلها في أوقات السلم وأوقات الحرب، كما تعتبر القوة الاقتصادية وسيلة ضغط على الدول الأخرى في اتخاذ قراراتها، فالمساعدات الاقتصادية مثلا غالبا ما كانت وسيلة ضغط من الدول

1 - توماس هوبز، **اللفياتان**، ترجمة: ديانا حرب وبشرى صعب، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، الطبعة الأولى، 2011، ص 92، 93.

المانحة لكسب الدول المحتاجة في صفها والتاريخ السياسي يزخر بالكثير من الأمثلة في هذا المجال.

يدعم القوّة السياسية للدولة موقعها الجغرافي الذي يحتل مكانة هامة في ميزان قوى الدول، لأن احتلال الدولة لموقع استراتيجي على خريطة العالم يمثل عنصر قوّة أساسي لهذه الدولة¹، خاصة إذا كانت تسيطر على ممرات بحرية أو طرق تجارية، فالموقع الجغرافي للدولة عادة ما يكون سببا في انفتاحها على مصادر لثروات كبيرة، وتجدر الإشارة هنا إلى أن الدول الكبرى تبحث دائما على احتلال مواقع إستراتيجية مهمة على خريطة العالم وذلك بطرق عديدة سواء عن طريق عقد تحالفات مع دول أخرى أو عن طريق الحملات الاستعمارية واستعمال القوة العسكرية.

1 - نذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر ما جاء في كتاب أقوم المسالك لمعرفة أحوال الممالك لصاحبه خير الدين التونسي حين يصف مملكة روسيا، يقول: « والبحور المحيطة بهذه السلطنة عظيمة، منها البحر الأبيض... وبحر البلطيق... والبحر الأسود وبحر أزوف... وبحر الخزر... كما جمع بها بين عدة بلدان كانت متصلة بالخلج المصنوعة ، فقد حصل بها لدولة الروسية هيئة اجتماعية لا تحصل بدونها... أما الاتصال بالخلج فلهم فيه كيفية مستحسنة بها قُربَ تواصل مراسي الروسية مع الإيالات الداخلية فبحر البلطيق يتصل ببحر الخزر بخليجين وبالبحر الأسود بثلاثة خلج كبار ..»، وقد ذكر هذا ضمن وصفه لموقع دولة روسيا وفيه دلالة على قوتها، وقد فعل الشيء نفسه مع أغلب الدول والممالك التي ذكرها في المذكور أعلاه مثل الدولة العثمانية ومملكة فرنسا ومملكة إنكلترا و مملكة النمسا ومملكة إيطاليا وغيرها.

- خيرالدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، مكتبة الإسكندرية، الإسكندرية، مصر، 2012، ص395 و396 و397.

هذه الأخيرة أي القوّة العسكرية لا يمكن إهمالها لما لها من دور في تكوين القوّة السياسية للدولة، باعتبارها ذات أهمية كبيرة في المحافظة على الأمن القومي للدولة وحماية ممتلكاتها ومقدرتها، كما أن الدولة تعتمد في الكثير من الحالات على هذه القوّة لتحقيق أهدافها، وعليه فإن امتلاك السلاح يعدّ أمراً ضرورياً وحتمياً لكل دولة، وبه تقاس قوّة الدولة وقدرتها على فرض نفسها في العلاقات الدولية كدولة فعالة ومؤثرة في السياسة العالمية.

لكن إذا تأملنا مصادر القوّة السياسية التي ذكرناها، فإنه من الواضح أن هناك عنصراً مشتركاً وضرورياً لكل هذه المصادر وهو العلم بشقيه النظري والتطبيقي، لذلك فالكثير من المفكرين والباحثين يرون أن امتلاك العلوم والمعرفة والتقنية يعتبر من بين أهم أركان القوّة وعنصراً حاسماً في الصراعات الدولية، لأن «المعرفة العلمية والتقنية المرتكزة على تلك المعرفة مؤثران في الحياة اليومية وفي الاقتصاد والتنظيم السياسي»¹، ويفهم من كلام راسل أن العلم له تأثير إيجابي في مجالات الدولة كما ذكرنا سابقاً.

6- أنماط القوّة:

من الواضح إذن أن مفهوم القوّة السياسية يدخل في تكوينه العديد من العناصر المادية وغير المادية، وهذه العناصر من الناحية الواقعية تكون مترابطة

1- برتراند راسل، أثر العلم في المجتمع، ترجمة: سمير عبده، دار التكوين للطباعة والنشر، دمشق، ط1، 2005، ص 89.

مع بعضها البعض، لكن إذا أردنا تصنيفها نظرياً فيمكن تقسيمها إلى قسمين أساسيين وهما القوة الصلبة¹ والقوة الناعمة².

6-1- القوة الصلبة:

يراد بالقوة الصلبة تلك القوة التي يستخدمها الفرد أو الدولة لغرض تحقيق أهداف معينة - ومحددة مسبقاً - عن طريق إرغام الطرف الآخر بواسطة استخدام القوة الجسدية في حالة الفرد أو القوة العسكرية في حالة الدولة أو بواسطة دفع الأموال أو إعلان حرب العملات النقدية التي تخوضها الدول ضد بعضها البعض عن طريق خفض التنافس لقيمة العملة وفرض التعريفات الجمركية وهي من الأمور التي تؤدي إلى النتائج الكارثية على اقتصاد الدول المنافسة³، فهذه القوة تحقق هدف من يستخدمها وتجبر الآخر الذي يقع عليه أثرها على الخضوع لها واحترامها فقط لأنها قوة لا يمكن مقاومتها وليس لسبب آخر على الإطلاق، لهذا نجد برتراند راسل يعرفها بقوله: «أسمي القوة معرأة عندما لا تستند إلى التقليد أو إلى القبول... القوة المعرأة هي اعتيادياً عسكرية، ويمكن أن تأخذ شكل الطغيان الداخلي أو الانتصار الغريب، وأهميتها - خصوصاً في الشكل الثاني الغزو الحربي - أهمية كبيرة جداً... اعتقد الكثير من المؤرخين والعلميين المحدثين أن الإسكندر الكبير ويوليوس قيصر قد غيرا بحروبهما ومعاركهما مجرى التاريخ بكامله... والتفوق العسكري للرجل الأبيض على الهنود الأمريكيين هو مثال آخر على قوة السيف،

1- نجد بعض المؤلفات تسميها القوة الغاشمة أو القوة المادية، وقد يطلق عليها اسم القوة المعرأة.

2- يعبر عنها بعض الباحثين في مؤلفاتهم باسم القوة المعنوية، وقد تنعت بالقوة السائلة.

3- أنظر: جايمس ريكاردز، حروب العملات: افتعال الأزمة العالمية الجديدة، ترجمة: أنطوان باسل،

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، لبنان، بيروت، ط1، 2014.

يلقى نفيه صعوبة كبيرة، لقد كان للانتصارات التي تحققت بقوة السلاح فضلها الذي يفوق فضل أي عنصر آخر في نشر راية الحضارة»¹، إن تحليل هذا التعريف الذي قدمه راسل يمكننا من إدراك أمرين أساسيين الأول هو أن القوة المعرّاة عادة ما تتجسد في القوة العسكرية سواء استخدمت من طرف الحاكم لفرض إرادته على رعيته وهو ما قصده **ابن خلدون** في **المقدمة** حين تكلم عن التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول² أو لإخضاع دولة أخرى في شكل غزو حربي، والأمر الثاني أن هذه القوة بالرغم من كونها معرّاة وليست مستحسنة خاصة من حيث الشكل إلا أنها تؤدي إلى نتائج لا يمكن نكرانها في مسألة رفع الشعوب إلى المستوى الحضاري طبعاً حسب النظرية الغربية³ التي تؤكد دائماً على أهمية ممارسة القوة المعرّاة في تاريخ الإنسانية.

وعليه فهذا النوع من القوة يسمى قوة معرّاة لأنها حين تستخدم تكون معرّاة من كل مبرر أو مسوغ إلا المبرر النفسي أو السيكولوجي حسب راسل، فهي لا تستند إلى القبول ولا إلى الرضا ولا إلى التقليد، إنها قوة غاشمة تهدف إلى تحقيق الانتصار دون أدنى مراعاة للطريقة أو السند الذي تقوم عليه، يقول راسل: «تعريف القوة

1- Bertrand Russell , **Power** , ANEW Social Analyses , G Allen and Unwrin LTD, London, 1938, P 39.

2- عبد الرحمن ابن خلدون، **المقدمة**، تحقيق: خليل شحادة، لبنان، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 2003، ص 246.

3- أنظر: منير العكش، **أميركا والإبادات الجماعية: حق التضحية بالآخر**، دار رياض الريس للكتب والنشر، لبنان، بيروت، ط1، 2002.

منير العكش، **أميركا والإبادات الجنسية**، دار رياض الريس للكتب والنشر، لبنان، بيروت، ط1، 2012.
وكذلك:

- Pascal Bruckner, **Le Sanglot de L'Homme blanc**, Edition Seuil, France, 1983.

المعزاة هو تعريف سيكولوجي...يمكن أن تكون قوّة حكومة معزاة بالنسبة لبعض أبناء الرعية وغير معزاة بالنسبة لغيرهم»¹ أي أنها مقبولة لدى البعض ومرفوضة عند البعض الآخر، هذا الاختلاف في وصف القوّة من طرف الرعية دليل على أنها غير قائمة على سند قانوني أو شرعي ، وإنما سندها الوحيد هو السند النفسي بحيث إنها تتبع من دوافع المحبة للقوّة سواء كانت مصادر هذه الدوافع أفراداً أو جماعات، وتؤدي إلى انتزاع ممن تمارس عليهم الخضوع التام الناتج عن الخوف وليس التعاون الفعال، فعامل الأجرة الذي يتبنى الاشتراكية كإيديولوجية اقتصادية يشعر بعدم عدالة أن دخله أقل من دخل مستخدمه، وفي هذه الحالة تكون القوّة المعزاة هي التي تفرض عليه الخضوع لإرادة ورغبة رب العمل.

نرى هنا بشكل واضح أن امتلاك القوّة شيء ضروري وبديهي بالنسبة للدولة، ولكن استخدامها غالباً ما يحتاج إلى وجود مسوغات كافية لاستخدامها، خاصة إذا تعلق الأمر بالقوّة العسكرية، وتشكل هذه المسوغات كما يقول نعوم تشومسكي « ذريعة لكل رد فعل يتم باللجوء إلى القوّة ، إلى الإرهاب، إلى زعزعة الاستقرار وإلى فرض المضايقات الرامية إلى الخنق الاقتصادي»² وبدون هذه المسوغات يتناقض استخدام القوّة مع القيم والمبادئ الإنسانية السامية التي تتبناها الأمم المستنيرة ويزول عن الدولة التي تستخدمها كل ما هو أخلاقي وإنساني فتسقط إلى درك الهمجية وهذا إذا نظرنا إلى الأمر من زاوية الإنسان المتحضر.

1- Bertrand Russell, Ibid, P85.

2 - جون بريكمون، الإمبريالية الإنسانية، تقديم: نعوم تشومسكي، ترجمة: أحمد بن محمد بكلي، منشورات APIC، الجزائر، 2010، ص11.

وعليه فإن القوة يجب أن تمارس بدافع مبررات مقبولة من طرف الجميع مثل الشعور بضرورة تحقيق العدالة أو الشعور بواجب دفع ظلم معين، والإحساس بالعدالة مصدره إما التقليد كما هو الحال في المجتمعات التقليدية¹ التي تقدر المركز الاجتماعي أو يكون مصدرها التعاقد كما تنص عليه نظرية العقد الاجتماعي، لذلك ففكرة القوة ترد في الغالب في الخطابات الفكرية والدينية والسياسية وهي مقترنة بالعديد من المفاهيم الأخلاقية مثل مفهوم العدالة ومفهوم الحرية ومفهوم المساواة ومفهوم الحق وغيرها، وهذا الترابط والتركيب بين مفهوم القوة والمفاهيم الأخلاقية التي ذكرناها هو الذي يخلق لنا مفهوماً جديداً للقوة يلبسها لباساً يجعلها مقبولة لدى من يقع عليهم أثر هذه القوة وتكون استجابتهم بالتعاون الفعال في تحقيق الهدف المنشود.

6-2- القوة الناعمة:

القوة الناعمة تقال في مقابل القوة الصلبة أو المعرّاة، فالقوة الناعمة يمكن تعريفها بأنها القدرة على حصول الفرد أو الدولة على ما يريد/ أو تريد عن طريق استخدام قوة الجاذبية الصادرة منه/ أو منها بدلاً من الإغرام أو الإغراء بواسطة مختلف أشكال القوة الصلبة، لذلك فجوهر القوة الناعمة هو قوة الجاذبية التي تسبب

1- يرى هنري سمر مين في كتابه المجتمع القديم، أن العدالة في المجتمعات التقليدية مرتبطة بالمركز الاجتماعي والسلطة والثروة، وهي قائمة في الغالب على مبدأ التقليد وليس الإنصاف خاصة إذا تعلق الأمر بتطبيق العدالة بين فردين ينتميان إلى طبقتين مختلفتين في هرم النظام الاجتماعي أو في هرم السلطة السياسية، وهذا الأمر يمكن لمسه في أغلب النصوص القانونية والشرعية وحتى الدينية القديمة مثل شريعة حمورابي في بلاد الرافدين وكذلك في إلياذة هوميروس ونفس الشيء نجده في كتب التوراة وكتابات العهد القديم.

حركة أو ميل كيان أو أكثر نحو بعضهم البعض أو نحو كائن آخر ذي قوّة جاذبية أعظم، لهذا فقوّة الجاذبية لها دور أساسي في الربط بين مختلف أجزاء الجسم أو التكتل الذي تشكله وتعمل على الحفاظ على وحدته والأهم من كل هذا بالنسبة لموضوعنا أنها تحقق وحدة وانسجام قوَى مختلف أجزاء هذا التكتل وتوجه هذه القوّة الموحدة نحو هدف واحد ومحدد، ينتج من هذا أن القوّة الناعمة هي «أكثر من مجرد الإقناع أو القدرة على استمالة الناس بالحجة ولو أن ذلك جزء منها، بل هي أيضا القدرة على الجذب، والجذب غالبا ما يؤدي إلى الإذعان... وعند تعريف القوّة الناعمة من خلال السلوك فإنها ببساطة هي القوّة الجاذبة»¹، يسلم صاحب وجهة النظر هذه أن من الوسائل التي تعتمد عليها القوّة الناعمة تلك التي تستند إلى العقل مثل قوّة الحجة والإقناع بالدليل ولكن الأهم من ذلك القدرة على الجذب التي تستند إلى تحويل الآخر أو استمالاته عن موضعه أو رأيه إلى الموضوع أو الرأي المطلوب، ويأخذ هذا التحول شكل الإذعان، وبالتالي فالقوّة الناعمة تنتج تأثيرا يؤدي إلى جذب أو نزوع - مادي أو روحي - كائن إلى آخر دون ظهور علاقة واضحة بين الجسمين أو أكثر.

كما أن ربط سلوك الدولة بالجاذبية التي تتمتع بها يجعل قوتها الناعمة تتكون أساسا من العناصر الثقافية وقيمها ومثلها السياسية وسياستها المشروعة، لذلك لا بد من العمل والسعي إلى إبراز هذه القوّة في الثقافة والقيم والسياسية المحلية والخارجية لغرض جذب إعجاب الآخر والغرض من ذلك هو أنه «عندما تتمكن من جعل الآخرين يعجبون بمثلك ويريدون ما تريد، فإنك لن تضطر إلى الإنفاق كثيرا... على عوامل الإرغام والإغراء لتحريكهم في اتجاهك، فالإغراء أكثر فاعلية من الإرغام

1- جوزيف س ناي، القوّة الناعمة وسيلة النجاح في السياسة الدولية، ترجمة: محمد توفيق البجيرمي، دار مكتبة العبيكان، المملكة العربية السعودية، ط 1، 2007، ص 26.

على الدوام، وكثير من القيم مثل الديمقراطية وحقوق الإنسان وإتاحة الفرص للأفراد لها قدرة عميقة على الإغراء»¹، تلخص لنا هذه الفقرة طرق التأثير في سلوك الدول لغرض التوصل إلى النتائج التي تريدها دولة ما وتحددها في الإغرام القائم على التهديدات العسكرية والاقتصادية، أو في الإقناع والجدب لكي تجعل إرادة الدول الأخرى هي عين إرادتها، هذه الطريقة الأخيرة هي التي تخلق ما يمكن أن نسميه بالتعاون الفعال الذي يعطي نتائج أوسع من تلك التي نحصل عليها بالإغرام الذي يدفع الآخر ليسلك وفق ما نريد بدافع الخوف وتكون نتائجه محدودة، وعليه فالتعاون الفعال نتائجه أوسع ومدة تأثيره أطول في حين أن الإغرام نتائجه محدودة وتأثيره مرتبط بحضور الشعور بالخوف، وبالتالي فالتعاون الفعال هو نتيجة استعمال «القوة» التي تجعل من المقابل يغير من موقفه في مكانه وتأتي في مقابل القوة المادية والتي بدورها تعني القوة الاقتصادية والعسكرية»²، بمعنى أن التعاون الفعال الصادر عن الأفراد أو الدول مرده إلى الإعجاب بالجانب الروحي والمعنوي الذي يمتلكه مصدر التأثير وسعيه لمشاركته مع الآخر أو المقابل له، يدلنا هذا على ضرورة امتلاك القدرات والموارد ذات الطابع الناعم والتي يمكنها التأثير على نتائج تصرفات الأفراد أو الدول، بتعبير آخر نقول بضرورة امتلاك الدولة للقدرة والوسائل اللازمة لتشكيل تفضيلات الدول الأخرى وتوجيه رغباتها نحو فعل الأمور التي تريدها، هذه الوسائل تتجسد في المؤسسات الثقافية والسياسية ومنظومة القيم التي تؤمن بها تدعو لها، كالدعوة إلى نشر قيم السلام مثلاً، ومن نافلة القول ذكر دور الدعاية ووسائل الإعلام في الترويج لمصادر القوة الناعمة هذه والتي يمكن تحديدها فيما يلي:

1- جوزيف س ناي، القوة الناعمة وسيلة النجاح في السياسة الدولية، ص 12 و 13.

2- كامران أحمد محمد أمين، السياسة الدولية في ضوء فلسفة الحضارة، دار المعرفة، ط1، لبنان، بيروت، 2009، ص 533.

1- الثقافة: ونقصد الثقافة بمعناها الواسع الذي يدل على جميع السمات الروحية والمادية والعقلية التي تميز مجتمعا ما أو فئة اجتماعية معينة، وتشمل الثقافة الفنون والآداب وطرق ممارسة الحياة كما تشمل الحقوق الأساسية للإنسان ونظم القيم والمتقدات والعادات والتقاليد، وعندما تحوي «ثقافة بلد ما على قيم عالمية وتروج سياستها قيما ومصالح يشارك فيها الآخرون فإنه يزيد من إمكانية حصوله على النتائج المرغوبة بسبب علاقاته التي يخلقها من الجاذبية»¹، نسلم هنا مع صاحب الفقرة أن الثقافة التي تحمل قيما عالمية وتقدم قيمة مضافة إلى الحضارة الإنسانية أو تساهم في الحفاظ عليها وتنتقلها للأجيال القادمة تجعل من الدولة صاحبة هذه الثقافة تكتسي صفات جذابة مثل الإثارة والغنى والقوة والقدرة على صناعة التوجهات والريادة في الابتكارات بكل أنواعها، وهذه السمات هي التي تعطي الدولة صورة جذابة في المجتمع الدولي، لكن لا يفتنا هنا ذكر أنه لا يكفي امتلاك هذه القدرات بل لابد من إظهارها، ومن بين الأساليب التي تعتمد عليها الدول في التعريف بقيمتها ومكوناتها الثقافية الاعتماد على البعثات الطلابية إلى الخارج واستغلال تلك البعثات التي تستقبلها في أرضها، وكذلك الطبقة العمالية من المهاجرين الذين ينقلون أفكار جديدة إلى البلدان الأخرى، ضف إلى ذلك المعاملات التجارية ووسائل الإعلام والسينما ووسائل التواصل الحديثة، كل هذه الأمور يمكن أن تكون موردا من موارد القوة الناعمة.

2- السياسية الداخلية والخارجية للدولة: تلعب سياسة الدول سواء على المستوى الداخلي -أي تسير الشأن الداخلي- أو على المستوى الخارجي

1- جوزيف س ناي، القوة الناعمة وسيلة النجاح في السياسة الدولية، ص 32.

المتمثل في الممارسة الدبلوماسية والعلاقات الدولية التي تشمل الالتزامات بين الدول وطرق التواصل والتفاعل التي تنتهجها الدول مع نظرائها، فهذه السياسية « الحكومية لبلد ما تعزز قوّته الناعمة... فالقيم التي تدافع عنها حكومة ما وتتنصر لها بسلوكها في الداخل كالديمقراطية مثلاً، وفي المؤسسات الدولية بالعمل مع الآخرين، وفي السياسة الخارجية بتشجيع السلام وحقوق الإنسان تؤثر تأثيراً قوياً على تفضيلات الآخرين»¹، وعلى النقيض فإن الدول التي تتهج أساليب مغايرة في تعاملاتها مثل الغطرسة أو الإفراط في استخدام القوة الصلبة أو الاعتماد على النفاق السياسي أو عدم احترام آراء الدول الأخرى أو معالجة الأمور من خلال منظور أحادي فقط والمتمثل في المصلحة الوطنية فقط هذه الدول سوف تفقد بالضرورة الكثير من قوّتها المعنوية أو الناعمة.

يمكن انطلاقاً مما سبق ذكره أن نشير إلى بعض النقاط التي نراها مهمة والمتعلقة بمفهوم القوة الناعمة إذا ما قارناه بمفهوم القوة الصلبة، هذه النقاط يمكن تلخيصها فيما يلي:

أولاً: إذا كانت القوة الصلبة مهمة جداً لأي دولة لكي تكسب الحرفان القوة الناعمة أو المعنوية ضرورية لكسب الحرب وضرورية كذلك لكسب السلم، فأهميتها أثناء الحرب تكمن في إبراز مشروعية استخدام القوة وتساعد على تحمل وتقبل أضرار الحرب وفق مبدأ عقوبة الإيثار²، وأما أهميتها لكسب السلم فتتجلى في إذعان الآخر دون الحاجة لاستخدام القوة الصلبة.

1- جوزيف س ناي، القوة الناعمة وسيلة النجاح في السياسة الدولية، ص 36 و 37.

2- مبدأ عقوبة الإيثار هو مبدأ من بين المبادئ التي يتصرف الناس وفقها، ويتلخص هذا المبدأ في سلوك الناس بغرض معاقبة غيرهم على سلوك يعتبرونه جائراً، وهم يفعلون ذلك حتى لو تكبدوا من جانبهم بعض الخسائر وهذا باسم العدالة مثلاً أو أي قيمة من القيم الإنسانية.

ثانيا: لا وجود لتلازم بالضرورة في تزايد ونقصان شدة القوتين الصلبة والناعمة، فالكثير من الدول القويّة عسكريا و اقتصاديا تكون ضعيفة من حيث القوة الناعمة إذا ما أساءت استخدام قوتها الصلبة، هذا الأمر غالبا ما يؤدي إلى انهزامها في الحروب التي تخوضها وفي حالة انتصارها يكون هذا الانتصار بطعم الهزيمة، وأحسن مثال على ما نقول الولايات المتحدة الأمريكية التي خسرت الحرب أمام الفيتنام ليس لضعف قوتها الصلبة بل لأنها خسرت قوتها الناعمة في تلك الحرب، وفي المقابل نجد الكثير من الدول الضعيفة عسكريا واقتصاديا لكنها تمتلك قوة معنوية لا يستهان بها مثل العالم الإسلامي الذي يمتلك قيم حقيقية تشكل جوهر قوته المعنوية، على أنه تبقى الحالة المثالية المطلوبة هي التمكن من المزوجة بين القوتين الصلبة والناعمة باعتبار انه على عكس ما نصح به ميكيافيلي الأمراء والملوك قبل أكثر من أربعة قرون بأن يكونوا مصدر خوف لشعوبهم ولغيرهم من الأمراء أهم من أن يكونوا موضوع حب لهم، ففي عالم اليوم من الأفضل أن تكون الدولة تتسم بهاتين الصفتين معا أي الخوف والحب.

ثالثا: نشير هنا إلى مسألة لها أهمية خاصة بالنسبة لموضوع بحثنا وتتعلق باختلاف وتباين القوى الناعمة أو إحدى عناصرها بين الدول، وهو راجع إلى الاختلاف في الثقافات، إن هذا الأمر ينتج صراع من نوع آخر بين الدول وهو الصراع الفكري أو الثقافي، فإذا بقي هذا الصراع محصورا في هذا الإطار فقط فإننا نعتبره شيئا محمودا للإنسانية لأنه يثري رصيدها الثقافي والحضاري، ولكنه إذا خرج من دائرة الصراع الفكري إلى الصراع المادي وتجسد في شكل الحروب الدينية أو الطائفية أو العرقية وغيرها من الأشكال فهذا لن يكون سوى عنوانا آخر لصدام الحضارات.

رابعاً: إذا سلمنا أن غاية الدولة من استخدام القوة مهما كان نوعها هي سعيها لبلوغ هدف تكون قد حدّته سلفاً، لذلك فالدولة ومن منطق العقلانية أنها تستخدم كل الوسائل السلمية المتاحة لبلوغ هدفها وهي بذلك تسعى جاهدة الابتعاد عن اللجوء إلى استخدام القوة الصلبة خاصة في شكلها العسكري، ولكن إذا كان هدف الدولة الذي تقصده هو تصريف والمتاجرة بوسائل القوة الصلبة مثل تجارة السلاح مثلاً الذي يعد صناعة قائمة بذاتها، هنا يتحول منطق الأشياء من صناعة السلاح من أجل كسب الحروب إلى صناعة الحروب من أجل بيع السلاح، وعليه فلا أعتقد أن هناك أي قوة ناعمة يمكن أن تسند هذا المنطق.

المبحث الثالث: القوّة في العلاقات الدولية.

1-1 - أوجه استخدام القوّة:

إن استقراء التاريخ الإنساني بصفة عامة، والتاريخ السياسي للدول بصفة خاصة يخبرنا أن المنظرين السياسيين وعلماء السياسة والقادة الممارسين لم يتفقوا على ماهية مصادر القوّة، بل يدلنا هذا الاستقراء على وجود صراعات بين مختلف التوجهات حول مصادرها، وعن أي نمط من أنماطها ينبغي الاعتماد لإظهار قوّة الدولة والإيحاء للدول الأخرى بما لها من إمكانيات سواء كانت هذه الدول الأخرى دولا صديقة لها أو لم تكن كذلك.

تتعدد مصادر القوّة - كما رأينا سابقا - فمنها ما هو مادي مثل القوّة الاقتصادية وقوّة الأموال والقوّة العسكرية أو قوّة القسر، ومنها ما هو معنوي مثل القوّة التي تحملها الأفكار والقيم والمعتقدات والمثل العليا للإنسانية، وقوّة شخصية القادة السياسيين وقدرتهم على الإقناع وفصاحة خطبهم وأدائهم السياسي، بالإضافة إلى هذا نجد في مصنفات النظريات السياسية والعلاقات الدولية تصنيفات أخرى للقوّة، مثل القوّة الخشنة أو المعرة في مقابل القوّة المعنوية أو الناعمة، والقوّة

الذكية في مقابل القوّة الغيبية وتستعمل هذه المصطلحات غالبا في السجلات السياسية بين الخصوم.

هذا من الناحية النظرية، أما من الناحية العملية فنجد أن كل قائد من قادة الدول قد ركز على نمط معين من القوّة من أجل الوصول إلى السلطة والحفاظ عليها، سواء من أجل تحقيق أهداف ومصالح أمتة وشعبه على المستوى الداخلي أو على المستوى الدولي، فمنهم من اعتقد أن القوّة هي في تبني قيم معينة ونادى بضرورة ارسائها على المستوى الداخلي والخارجي، وهناك من رأى قوّة الدولة تتجسد في القوّة الاقتصادية نظرا لما تجلبه من رخاء وازدهار ورفاهية للشعب وما فيها من اغراء للدول الأخرى، والبعض الآخر منهم يرى القوّة في إرادة استخدام القوّة العسكرية من أجل القسر والردع وتخويف الأعداء من جهة، وطمأنة الداخل والدول الصديقة من جهة أخرى، لكن هذا لا يعني اعتماد نمط واحد من القوّة وإهمال الباقي منها، بل يعني التركيز على إظهار نمط معين كسلوك رئيسي للدولة، مع المزج في الواقع بين جميع أنماط القوّة حسب الموارد التي تملكها الدولة، وكذلك حسب الهدف المسطر من طرف من يمارس القوّة أي القيادة، فعندما يستهدف القادة الجبهة الداخلية فإنهم في الغالب يمارسون «القوّة عن طريق قوّة الشخصية، والقيادة، والقيم والإقناع وما إلى ذلك»¹، وهذا لأن الغرض أو الهدف من السياسة الداخلية هو تحقيق رضا الجبهة الداخلية والإبقاء على وحدتها قدر الإمكان والظفر بدعماها، أما حين يستهدف القادة الجبهة الخارجية، أي سلوكها في إطار العلاقات الدولية «حيث لا يوجد سوى إطار مشترك ضئيل، تتخذ القوّة بالضرورة شكلها الأكثر حدّة، ويكون تطبيقها صعبا ومعقدا، فالرفض في العلاقات والشؤون الدولية أكثر سهولة، ونادرا ما يجدي الإقناع أو القيادة»²، إن حدّة القوّة المستعملة وشدتها

1- ليزلي جيلب، قواعد القوّة، ترجمة: كمال السيد، مطابع الأهرام التجارية، مصر، 2011، ص 29.

2- المرجع نفسه، ص 29.

تتوقف على حجم الأمور المشتركة بين الطرف الممارس للقوة والطرف الذي تقع عليه، فكلما كانت هذه الأمور المشتركة متعددة وواسعة كان اللجوء إلى استعمال القوة الناعمة ضرورة وحتمية، وكلما قلت هذه الأمور المشتركة - خاصة المصالح - كان اللجوء إلى استعمال القوة المعرّاة أو الغاشمة أكثر جدوى، لأنها هي التي تولد الضغط أو الإكراه الذي تقتضيه العلاقات الدولية.

واقعيًا دائمًا، أثبتت التجارب التاريخية التي عاشتها الدول الكبرى والقوى العظمى أن استخدام القوة العسكرية أو القسر في علاقاتها مع الدول الأخرى يؤدي إلى مواجهة قوة مماثلة وبالطريقة نفسها، أي القسر، وهو ما يجعل هذه السياسة غير مثالية، باعتبار أن استعمال القوة العسكرية يكون مكلفًا في الغالب من الناحية المادية، فالحروب تستنزف الموارد المالية للدولة وتتهك قواها مهما كانت مدة الحرب قصيرة، ومن الناحية السياسية فالحروب تجعل الساسة في موضع نقد لاذع من الأطراف الداخلية المنافسة لها على القيادة، ومن الأطراف الخارجية التي تشترك معها في المصالح دوليًا، وغالبًا ما يبني هذا النقد بالدعوة إلى التعقل وتبني أسلوب الحوار وتجسيد القيم الإنسانية المنشودة وشجب الجرائم المترتبة وغياب الضمير في الفعل المقترف، بمعنى أن النقد يركز على استظهار وجود طرق بديلة أكثر فعالية وأقل كلفة وقسوة بالمقارنة مع نهج استعمال القوة العسكرية.

هذا الأمر، دفع بالكثير من القادة والمفكرين السياسيين إلى التفكير في أساليب إقناع بعيدة عن القسر والقوة العسكرية إلا في حالات حتمية ونادرة، فالأمم الكبرى قديمًا في صورة الصينيين والرومان قد أدركوا هذه الطبيعة المميزة للشؤون الدولية، لذلك اجتهدوا في التفكير في موضوع القوة فنظروا إليها «من زوايا كثيرة، باعتبارها القدرة على إلحاق الأذى بالغير، أو منح المنافع، وباعتبارها قوة دفع لإنجازات تتم مستقبلاً، وباعتبارها عظمة للمشروعية والسلطة أو كسمعة، وباعتبارها

تفوقا ثقافيا، أو كقوة عمياء، وحددوا درجات استخدام القوة بما يناسب كل وضع، والأمر الأكثر أهمية هو أنهم نادرا ما غاب عن فطنتهم الجوهر النفسي والقسري للقوة والمهارات المطلوبة لاستخدامها»¹، يستفاد من هذا القول، إن استخدام القوة مهما كان شكلها يحتاج إلى تفكير وتعقل بل وإلى الحكمة، أي أن تصدر كل أعمال وأقوال القائد عن روية ورأي سديد، بمعنى بعد العلم بحقائق الأشياء، فاكتساب القوة إذاً لا يعني الاستغناء عن العقل، ويتجلى هذا التعقل في تحديد شدة القوة الضرورية لحسم موقف معين، وفي إدراك الفعل النفسي وأثرها في من يقع عليه فعل القوة أو يشاهد وقوعه ويعتبر منه، ويكون العقل حاضر بجلاء في اكتساب المهارات المطلوبة لاستخدام القوة، يفهم كذلك من القول السابق، أن الأمر لا يتعلق فقط بامتلاك موارد وعناصر القوة، بل الأمر كله في حسن استخدامها حسب الزمان والمكان، أو حسب الظروف وذلك وفق القاعدة: تحقيق الهدف مع تجنب التكاليف الباهظة قدر الإمكان.

إن بحث مسألة حسن استخدام القوة واستغلال الظروف لصالح تحقيق الأهداف المسطرة من طرف الدولة كحماية الدولة والغزو وإبرام الاتفاقيات والبقاء في السلطة والحرب وغيرها، كل هذا يستوجب من القادة إتقان فن الحرب، أي الاطلاع على أفضل الطرق لتحقيق الهدف أو النصر بأقل التكاليف، فالحرب تحتاج إلى العديد من الوسائل، الجنود والعتاد والتدريب والكثير من الأموال، ويحدث في الغالب أن تعتمد الدول على غيرها في تمويل حروبها بجزء من احتياجاتها الضرورية في ذلك، وعليه ففن الحرب يمكن فهمه على أنه «كلما قل اعتماد الدولة على غيرها في هذه المساعي، زادت القوة التي تحوزها، والواقع أن القوة الكبرى مرادفة للاكتفاء الذاتي في الحرب»²، هذا الاكتفاء الذاتي - ولو نسبيا - والذي لن

1 - ليزلي جيلب، قواعد القوة، ص 29،30.

2- ليزلي جيلب، قواعد القوة، ص 31.

يتحقق إلا بالتدبير الجيد¹ لمصادر القوة من أجل تحقيق النصر بأقل التكاليف في مختلف المجالات، وبتعبير آخر، نقول أنه لن يتحقق إلا بالتنظيم الجيد لأمر الدولة أثناء الحرب، هذا ما جعل ميكيافيلي يكتب « إن الأمير ينبغي ألا يكون له أي هدف آخر، ولا أي فكر آخر، ولا أن يعتبر أي شيء آخر فناً له سوى الحرب، وأمورها، وانضباطها، لأن ذلك هو الفن الوحيد المهم لمن يتولى القيادة»²، وكذلك توماس هوبز يدلنا على الفكرة ذاتها في اللفيثان حين يقول: «أما الجدارة... هي عبارة عن قوة أو قوة خاصة، تتعلق بما يقال إنه جدير به، وهذه القدرة المتميزة تسمى عادة كفاءة ومقدرة. إن الأجدر بأن يكون قائداً... هو الذي يملك على النحو الأفضل الصفات المطلوبة لأدائها بشكل جيد»³، هذه الصفات هي التي تسمح له بالتنظيم الجيد لموارد الدولة من أجل خلق قوة تحوز النصر.

هذه القوة يشترط فيها العمل وفق أسلوب خاص، حدده في العصر المعاصر عالم السياسة الأمريكي روبرت دال (Robert Dahl) (1915-2014) بقوله: «إن مفهوم القوة هو أن (أ) يفوق (ب) قوة لحد أنه يستطيع جعل (ب) يفعل شيئاً لن يفعله في غير هذه الظروف»⁴، يسمى هذا بأسلوب عمل القوة الأساسي، وجوهر هذا الأسلوب هو الضغط، بمعنى أن يستغل الطرف الأول (أ) قوته للضغط على الطرف الثاني (ب) من أجل تحقيق غاية تتمثل إما في دفع الطرف الثاني (ب) للتصرف وفق إرادة الطرف الأول (أ) وعكس إرادته هو، أو تغيير سلوكه، وهذا التغيير في السلوك يكون ناتج عن تأثير البعد النفسي للقوة

1- هذا التدبير الجيد قد يتجسد فيما يعرف بالنزوح المهني أثناء الحرب.

2- ميكيافيلي، الأمير، ترجمة: خيرى حماد، دار الافاق الجديدة، بيروت، لبنان، الطبعة السابعة، 1975، ص 131.

3- توماس هوبز، اللفيثان، ترجمة: ديانا حرب وبشرى صعب، دار الفارابي، بيروت، 2011، ص 102.

4- روبرت دال، نقلا عن: ليزلي جيلب، قواعد القوة، ص 32.

والمتمثل في القلق، هذا القلق يتجسد أو يتمظهر في مظهري الخوف أو الرجاء¹ من الضغط المفضي في النهاية إلى الإقناع أو القسر.

لكن السؤال هنا: فيما تتجسد واقعا هذه القوّة التي تشكل ضغطا على دولة ما وتجبرها على الخضوع؟ أي ماهي العناصر التي تشكل بنية هذه القوّة؟ وفي حالة الصراع كيف يمكن لدولة ما أن تحقق النصر؟ الإجابة عن هذه التساؤلات تحيلنا إلى البحث عن الإمكانيات والموارد الخاصة والمحددة لقوّة الدول، سواء تلك المستثمرة أو تلك الكامنة.

2- عوامل القوّة:

تشير أغلب الدراسات في العلاقات الدولية إلى أن قوّة الدولة تقوم على جانبين: الجانب المادي والجانب المعنوي، أي موارد مادية وموارد معنوية.

1 - تعريف الخوف والرجاء: إن أفضل ما اطلعت عليه في تعريف هذين المصطلحين هما ما كتبه حجة الإسلام أبو حامد الغزالي في كتابه الخوف والرجاء، وحتى وإن كان السياق الذي جاءت فيه أفكار الغزالي يختلف عن ذلك الذي نكتب فيه نحن، إلا أننا نجد أن جوهر المفهومين وفق ما قصده الغزالي يمكن أن يخدم الفكرة التي نريد إيضاها، وعليه يكون مفهوم كل من الخوف والرجاء وفق ما يلي:

الخوف: يقول أبو حامد الغزالي: اعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال... وحال الخوف ينتظم أيضا من علم وحال وعمل، أما العلم فهو العلم بالسبب المفضي إلى المكروه... وأما الحال... فيكون ظاهره وبطنه مشغولا بما هو خائف منه ولا متسع فيه لغيره... ويظهر أثره في الاعمال أن يمتنع عن المحظورات.

الرجاء: يتم من علم وحال وعمل، فالعلم يثمر الحال، والحال يقتضي العمل، والرجاء كل ما يلاقيك من موجود منتظر في الاستقبال... فإن كان المنتظر محبوبا حصل من انتظاره وإخطار وجوده بالبال لذة وارتياح سمي ذلك الارتياح رجاء، فالرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده، ولكن ذلك المحبوب المتوقع لابد وأن يكون له سبب.

أنظر، أبو حامد الغزالي، كتاب الخوف والرجاء، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، الجزائر، 1989. ص 4، 3، 33، 34، 35، 35، 34.

العوامل المادية هي: «مجموعة العوامل التي تشكل في مجموعها الأساس المادي المؤسسي لقوة الدولة، ولا يمكن للدولة أن تستغني عنه، وهي الموارد التي تمتلكها الدولة سواء كانت متاحة للاستثمار أو كامنّة، وهي على الترتيب التالي من الأهمية:

1- القدرة الاقتصادية.

2- القدرة العسكرية.

3- القدرة الاتصالية.

4- القدرة الحيوية¹، إن هذه العناصر المادية يمكن اعتبارها معطى قبلي في الدولة وهي موجودة كموجود بالقوة في الدولة قبل أن يقع عليها قرار القادة أو السلطة صاحبة القرار فيخرجها إلى حالة الوجود بالفعل.

أما العوامل المعنوية فهي «تشكل الوعاء الذي تتحرك فيه العوامل المادية أو البوصلة التي تتحرك هذه العوامل المادية على أساسها... وهذا يجعل للعوامل المعنوية الدور الحاسم في قياس قوة الدولة ومعرفة الإمكانيات الحقيقية وطريقة التعامل معها، وتشمل العوامل المعنوية ثلاثة عناصر هي:

1- القدرة السياسية.

2- الإرادة القومية.

3- القدرة الدبلوماسية²، نلاحظ أن هذا الطرح يتفق تماما مع ما ذكره

ميكيا فيلي وتوماس هوبز حول ضرورة امتلاك القادة الكفاءة والقدرة اللازمتان لأداء وظائفهم، فهذه العوامل المعنوية وخاصة القدرة السياسية هي التي تحدد طرق توظيف واستغلال الموارد المادية من أجل الوصول إلى تحقيق الهدف الذي تصبو

1 - جمال زهران، منهج قياس قوة الدول، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2006، ص 69.

2- المرجع نفسه، ص 70.

إليه الدولة، وينتج منه أيضاً أن «قيمة العوامل المادية تتوقف على كيفية استثمارها، فالعوامل المادية يمكن أن تهدر وتبدد، ويمكن أن توظف بشكل رشيد وبما يخدم استراتيجية الدولة»¹، فالعناصر المعنوية هي التي تحدد قيمة العناصر المادية ومصيرها ومن الذي سيستفيد منها، وهذا وفقاً لنظرية القيمة التي تنص على أن قيمة الشيء ليس في ذاته بل فيما يحيط به من ظروف في البعدين المكاني والزمني، باعتبار أن هذه الظروف تخلقها العناصر المعنوية لتعطي قيمة للعناصر المادية من خلال قوة العمل² كما يقول كارل ماركس، هذا العمل إذاً هو الذي يبرز قيمة العناصر المادية، سواء كان عملاً فكرياً أو جهداً عضلياً، والامر ذاته ينطبق على الحرب كهدف للدولة، إذ يمكن هنا العودة إلى الاستراتيجية الألمانية كلاوزوفيتز للتذكير برأيه في دور القائد أثناء اضطرام المعركة، فهو يرى أن عبقرية القائد³ تظهر في هذه المرحلة من خلال قدرته على تحريك واستغلال المعطيات الحربية التي بحوزته من أجل تحقيق النصر على العدو.

إن التعمق في تحليل هذه العناصر المادية والعناصر المعنوية المشكّلة لبنية قوة الدولة سيفضي بنا إلى إبراز العناصر الفرعية التي تتكون منها، وهذه

1- المرجع السابق، ص 70.

2- أنظر كارل ماركس، رأس المال، ترجمة: محمد عيتاني، المجلد الثالث، دار المعارف، بيروت، الطبعة الثالثة، 1978، من ص 1157 إلى ص 1167.

3- يقول كلاوزوفيتز: لو تساءلنا عن العقل المؤهل لعرض سجايا العبقرية العسكرية أكثر من غيره، لأظهرت لنا التجربة والملاحظة أن العقل الباحث وليس الخلاق، الشمولي وليس ذو المسلك المحدد، العقل الهادئ وليس السريع الهياج، الذي سنختاره في الحرب ونأتمنه على مصير إخوتنا وأبنائنا وعلى أمن وشرف البلاد.

كارل فون كلاوزوفيتز، عن الحرب، ترجمة: سليم شاعر الإمامي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1997، ص 158.

العناصر الفرعية هي من الناحية النظرية تشكل المؤشرات الدالة على قوّة الدولة، وهو ما سيأتي التفصيل فيه.

2-1- العوامل المادية:

تتفرع العناصر المادية وفق ما يلي:

القدرة الاقتصادية: تتفرع إلى مؤشرات خاصة بالنواتج المحلي الإجمالي، ومعدل النمو الاقتصادي السنوي، ونصيب الفرد منه، أي معدل الدخل الفردي، ومؤشرات أخرى خاصة بالصناعة مثل القاعدة الصناعية وامتلاك الدولة لقاعدة الصناعات الاستراتيجية مثل الحديد والصلب، ومؤشرات الطاقة والمتعلقة بحجم إنتاج مختلف أنواع الطاقة وحجم احتياطها والمعدل السنوي لإنتاج الطاقة ونصيب كل فرد منها، كما نجد مؤشرات أخرى خاصة بالزراعة تتضمن حجم الأراضي الصالحة للزراعة ونسبتها إلى مساحة الدولة، ونسبتها كذلك إلى عدد السكان، متوسط الإنتاج السنوي من الحبوب بالنسبة للمساحة الزراعية، بالإضافة إلى تنوع المنتجات الزراعية ونسبة تغطية الدولة لاحتياجاتها الغذائية.

القدرة العسكرية: تتجسد في الصناعة العسكرية أي القاعدة الصناعية العسكرية التي تنتج الأسلحة والذخيرة والعتاد العسكري، القدرة على إنتاج الطاقة النووية والأسلحة النووية، والمؤشر الثاني خاص بحجم القوات المسلحة سواء العاملة والاحتياطية، ويرتبط هذا المؤشر بحجم ونوعية الأسلحة التي يستعملها الجيش وتتمثل في العتاد العسكري والدبابات والطائرات الحربية والمدافع والقطع الحربية المختلفة والعربات

المدرعة وحتى التجهيزات التكنولوجية المساعدة على العمل الميداني لأفراد الجيش، هذا المؤشر يركز على الجانبين الكمي والنوعي، وهذا من أجل تحقيق الفعالية في ميدان المعركة، يحيلنا هذا إلى مؤشر عسكري آخر وهو حجم الإنفاق العسكري، أي حجم الميزانية المخصصة للقوات المسلحة وهي غالباً ميزانية لا يلعب عنها خاصة في الدول غير ديمقراطية، والمؤشر الأخير للعامل العسكري هو الكفاءة التنظيمية في المجال العسكري، هذه الكفاءة تترجم واقعياً بوجود النظام - الذي ذكره ميكيا فيلي - وسرعة التعبئة، فكلما كانت التعبئة أسرع دل ذلك على وجود كفاءة تنظيمية أجود.

القدرة الاتصالية: تتمحور حول انتشار استعمال التكنولوجيات الحديثة في مختلف مجالات الحياة في دولة ما، سواء في مجال العمل أو المجالات الاجتماعية الأخرى، مثل انتشار استعمال الهاتف بكل أنواعه، والوسائط الإعلامية مثل الجرائد والراديو والتلفزيون وبالأخص امتلاك الدولة للأقمار الصناعية، لأن هذا الأمر يحقق لها الاستقلال في مجال الاتصالات ويمكنها من المحافظة بنسبة كبيرة على سرية بياناتها والمعلومات الخاصة بمواطنيها.

القدرة الحيوية: تتضمن جانبين، ويتفرع كل جانب إلى عناصر فرعية متعددة، الجانب الأول يتعلق بالخصائص السكانية للدولة، وتتخلص مؤشرات في حجم السكان والكثافة السكانية وتوزيع السكان على مختلف جهات الدولة، بالإضافة إلى المستوى التعليمي والمستوى الصحي، وهذا يستدل عليه بحجم الخدمات التي تقدمها الدولة للسكان في مختلف المجالات السكن والصحة والتعليم وغيرها، زد على ذلك عامل مهم يتمثل في درجة التكامل الثقافي والقومي من حيث اللغة والدين والعرق، هذا التكامل يعمل على عدم بروز الانقسامات الداخلية ويزيد من قوة الوحدة الداخلية للدولة.

الجانب الثاني من القدرة الحيوية هو الوجود الإقليمي، ويتجسد في طبيعة الموقع الجغرافي الذي يمنح الدولة امتيازات خاصة مثل التضاريس التي تحيط ببعض الدول وتكون لها كخط دفاع طبيعي، أو التحكم في المضائق والممرات البحرية والقنوات البحرية، أو اتساع مساحة الدولة بحيث يكون تطويقها أمر مستحيل¹.

2-2- العوامل المعنوية:

أما العناصر المعنوية فتتفرع إلى ثلاثة فروع، وكل فرع له مؤشرات الخاصة، وتفصيلها هو ما يأتي شرحه:

القدرة السياسية: «يقصد بها الإطار السياسي المؤسسي والتفاعلات السياسية القادرة على تعبئة واستثمار الموارد المختلفة للدولة»²، وتتجسد القدرة السياسية في العديد من المؤشرات التي تدل على قوة الدولة أو ضعفها، منها مستوى الحريات العامة المتاحة في الدولة، مثل وجود التعددية السياسية واحترام حقوق الإنسان وحرية التعبير، وهذه العناصر هي مقياس توفر الظروف الملائمة للممارسة الديمقراطية، بالإضافة إلى الاستقرار السياسي للدولة والمفضي إلى غياب العنف في المجتمع وتوفير الأمن اللازم، فالدولة تحتاج لبناء قواتها إلى ثلاث عناصر أساسية وهي الديمقراطية والأمن والتنمية، وكل عنصر من هذه العناصر الثلاثة مشروط بالعنصرين الآخرين، كما تتجسد القدرة السياسية للدولة في مدى فعالية مختلف السلطات فيها خاصة السلطة القضائية والسلطة التشريعية، الأولى من خلال

1 - للاستزادة فيما يخص هذه العناصر الفرعية للموارد المادية للدولة أنظر :

- جمال زهران، منهج قياس قوة الدول، من ص 71 إلى ص 78.

2- جمال زهران، منهج قياس قوة الدول، ص 79.

الاستقلالية والثانية من خلال فعاليتها في القدرة على التمثيل الجيد لمختلف فئات الشعب وكذا المساءلة الفعالة للحكومة.

الإرادة القومية: هي مجموع العناصر التي تستند عليها القيادة السياسية في اتخاذها للقرارات القومية، هذه القيادة السياسية تعبر في واقع الأمر عن إرادة الشعب الذي انتخبها أو فوضها الحق في التصرف باسمه، هذه القيادة يجب أن تمتلك رؤية متكاملة وعميقة حول الأمور التي تعالجها، أي يجب عليها على حد تعبير أرسطو أن تكون متبصرة بالأمور، هذا التبصر وفق النظرة المعاصرة يتجسد في وجود أهداف استراتيجية للدولة، وكلما كانت تفاصيل هذه الأهداف الاستراتيجية واضحة كانت قدرة القيادة السياسية على تحقيقها واقعا أكثر إمكانا، هذا الوضوح في تفاصيل الأهداف يحتاج إلى قاعد علمية تتجسد في مراكز البحث الاستراتيجي أو مراكز الفكر¹، هذه المراكز توفر للقيادة السياسية الأفكار والطرق الجديدة في التفكير والحكم واتخاذ القرار المناسب، إذ يطلق عليها في العالم الأنجلوساكسوني اسم **المراكز المساعدة على اتخاذ القرار**، هذه المراكز لا تساعد فقط القيادة السياسية في اتخاذ القرار بل هي وسيلة ضغط في بعض الحالات وتعمل على تحديد اتجاه السياسة الداخلية والخارجية للدولة، خاصة إذا لم تكن الدولة تملك السيطرة على هذه المراكز، أو إذا كانت هذه المراكز أجنبية أصلا، لذلك يتوجب على الدولة أن تعتمد على ذاتها قدر الإمكان في رسم وتحقيق أهدافها الإستراتيجية سواء من الناحية الاقتصادية أو من حيث العناصر البشرية، هذه الأخيرة يؤثر عليها بنسبة إنفاق الدولة على البحث العلمي، ونصيب الباحث من هذا الإنفاق، وعدد الباحثين والعلماء والمهندسين في الدولة ونسبتهم إلى عدد السكان، دون أن ننسى إجمالي الأبحاث العلمية المنجزة والمنشورة.

1- أنظر: ستيفن بوشيه ومارتين رويو، **مراكز الفكر، أدمغة حرب الأفكار**، ترجمة: ماجد كنج، دار الفارابي، لبنان، الطبعة الأولى 2009.

القدرة الدبلوماسية¹: يختص العمل الدبلوماسي بعملية الانتقال من حالة الحرب إلى حالة السلم أو العكس، الانتقال من حالة السلم إلى حالة الحرب، وبتعبير آخر نقول إن الدبلوماسية تهتم بطرق التواصل أثناء الصراع وصناعة السلام²، فالممثل أو المبعوث الدبلوماسي تحركه في الغالب قضايا الحرب والسلم، وهو حريص على ضمان مصالح من يمثلهم سواء كانت دولة أو هيئة أو منظمة أو غير ذلك، هذه المصالح تجبرهم من الناحية الواقعية على التفكير والتصرف وفق ما تفرضه قواعد القوة، والتغاضي عما تفرضه المبادئ أو القيم الأخلاقية التي يعتنقونها إذا لم يكن أمامهم مجال كبير للمناورة، فالدبلوماسية هي عنصر مهم في إدارة شؤون الدولة، ومن دونها يبقى النجاح السياسي صعب المنال، وبالتالي فإنه كلما كان التمثيل الدبلوماسي - الداخلي أو الخارجي - كبيراً وناجحاً كلما كان أداء القدرة الدبلوماسية للدولة أفضل، ، هذا الأداء لا يتوقف على التعامل مع الحكومات والدول فقط، بل يتعدى ذلك إلى التعامل والتفاوض مع المنظمات الغير حكومية والمؤسسات الدولية مثل منظمة التجارة الدولية وصندوق النقد الدولي والشركات المتعددة الجنسيات.

اعتماداً على ما سبق، نقول إن القاعدة العامة في بناء قوة الدول تنص على أنه كلما ارتفعت المؤشرات الفرعية السابقة الذكر والخاصة بالعناصر المادية

1- **الدبلوماسية:** هي إدارة العلاقات بين الدول المستقلة عبر المفاوضات، ويقدم لها **وين كاتلين** تعريف آخر يقربها من خلاله إلى القارئ الغير مختص بقوله: الدبلوماسية هي فن انتقاء المعسول من الكلام إلى أن تجد حجارة تقذف بها.

أنظر: جوزيف سراكوسا، **الدبلوماسية**، ترجمة: كوثر محمود محمد، دار هنداوي للنشر، مصر، الطبعة الأولى، 2015، من ص 6 إلى ص 9.

2- جوزيف سراكوسا، **الدبلوماسية**، ترجمة: كوثر محمود محمد، دار هنداوي للنشر، مصر، الطبعة الأولى، 2015، ص 13.

والمعنوية، دل ذلك على قوّة الدولة، مع الاحتفاظ بالمبدأ القائل إن العوامل المعنوية هي التي تحدد قيمة العوامل المادية وفق معادلة ثابتة يمكن صياغتها وفق ما يلي:

$$\text{قوّة الدولة} = \text{العوامل مادية} \times \text{العوامل المعنوية}$$

فإذا سلمنا أن قيمة ما هو مادي هي قيمة ثابتة، فإنه يصبح المتغير الذي يتحكم في زيادة أو نقصان قوّة الدولة هو قيمة العوامل المعنوية، وبذلك يمكن تصور التغير الذي يحدث في قوّة الدولة كما يلي:

- إذا كانت العوامل المعنوية منعدمة أي أنها تساوي صفر، فقوّة الدولة حينها تكون منعدمة حتماً.
- إذا كانت العوامل المعنوية تساوي واحد، فقوّة الدولة تكون قيمتها هي القيمة نفسها للعوامل المادية.
- كلما ازدادت قوّة العوامل المعنوية تضاعفت قوّة الدولة إلى أضعاف العوامل المادية.

يستنتج من هذا، أن نتيجة تفاعل العوامل المادية والعوامل المعنوية هي التي نقارن بها بين الدول لتحديد الأقوى وترتيبها وفق ذلك، وهذا التفاعل الناتج والمنتج للقوّة هو الممارسة الناجحة للقوّة والتي تتطلب مهارة كبيرة وفن خاص، وتعتمد وفق ما عرضناه سابقاً على «نوعية الموارد وطبيعتها وهي:

- الاكتفاء الذاتي النسبي للأمة.
- القدرة على التكيف فور أن يبدأ صراع القوّة، أو حالة الرد على الضغط بالضغط.

- كيفية الصمود، أي صمود هذه الموارد والأصول عندما يبدأ الصراع»¹، ينتج من هذا أن القوّة نسبية ومتغيرة وليست ثابتة في العلاقة التي تربط أمة بأمة أخرى، لأنها تتوقف على العلاقة الدقيقة بينها والمحددة بالموارد التي تملكها كل منها والتي يمكن وصفها بالموارد الثابتة والموارد الدينامية، وبنوع العلاقات التي يفرضها قادة الدول، هذه العلاقات قد تكون مبنية على أسس علمية وقد متأثرة بأهواء ومزاج القادة.

3- أسباب تفضيل القوّة العسكرية:

إن ما يهمننا أساسا، والمرتبط بموضوع بحثنا هو التساؤل عن سبب ميل الدول إلى استعمال القوّة العسكرية في العلاقات الدولية، أي الميل إلى ممارسة الحرب، اعتمادا على منطق بنية قوّة الدول يمكن الجزم أن اللجوء إلى الحرب يمثل مرحلة ما بعد الدبلوماسية في حل الخلافات بين الدول، وهذا لا يعني أن حالة الحرب ينعدم فيها العمل الدبلوماسي² بل يأخذ هذا العمل شكل آخر مخالف عن العمل الدبلوماسي في حالة السلم من حيث الشكل ومن حيث المضمون، إذن فالحرب

1- ليزلي جيلب، قواعد القوّة، ص 33، 34.

2 يقول ألان بلانتي **Alain Plantey** وهو أكاديمي ودبلوماسي فرنسي: الدبلوماسية والحرب شكلان متلازمان ومتنافسان أو مقترنان مع العلاقات بين الدول، فكل سياسة خارجية كبرى يتحكم فيها التهديد باستعمال القوّة، أو اللجوء إليها، ففي وهج الصراع تكمن أفضل الفرص والمناسبات للممارسة الدبلوماسية، وفيها تبرز أنبل حوافز النجاح... وليست هناك حرب تنتهي من غير أن يمرر العسكري مفتاح الأمور إلى السياسي، فالحرب تتويج للمفاوضات، والمفاوضة تتويج للحرب، هناك تكامل تاريخي ومنطقي لكلا النشاطين.

أنظر: ألان بلانتي، في السياسة بين الدول، مبادئ في الدبلوماسية، ترجمة: نورالدين خندودي، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2006، ص 84.

التي تمثل أقصى درجات استخدام القوة العسكرية¹ فيها رسائل دبلوماسية تريد من خلالها الدولة تحقيق أهداف سياسية باستغلال الأعمال الحربية وهذا وفق ما يلي:

- الحرب هي استخدام رهيب للقوة العسكرية من حيث التعبئة والإنفاق والتنظيم والوسائل التقنية المستعملة، وإصرار القيادة وعزمها على تنفيذ مخططاتها، كل هذا يترجم سياسيا كإشارات قوية وعنيفة للعدو، يعبر عنها بلغة تتفوه بها أفواه البنادق والمدافع وهي مخالفة عن تلك اللغة المستعملة في السياسة.
- الحرب كمعركة تعني استهداف نقاط معينة في العدو، هذه النقاط تكون مدمرة له وبالتالي استهداف وجود العدو بالكامل من أجل القضاء عليه.
- القسر الناتج عن الحرب لا يشكل استعمال القوة العسكرية فحسب، بل يشكل كذلك مصدر للقوة كذلك، خاصة القوة السياسية، لكن هذا الأمر مشروط بالنجاح في تحقيق الهدف العسكري، لأن الحروب الفاشلة وتلك التي لا نهاية محددة لها تنهك قوة الدولة، وكذلك التهديدات غير منجزة أو الأخطاء الجسيمة في مسار تطبيق الخطط الحربية تحط من قوة الدولة، لذلك فالنصر وحده كفيل بمضاعفة قوة الدولة، لأنه يجبر العدو المباشر والعدو المحتمل مستقبلا على تغيير سلوكهم تجاه هذه الدولة التي أثبتت قوتها فعليا.
- العناصر السابقة التي ذكرناها تقف على مهارة القادة السياسيين وقدرتهم على تحويل الانتصارات العسكرية في الحرب والغزو والفتح إلى عامل يخدر الأعداء ويثبطهم بحيث لا يشكلون خطرا حقيقيا في الحاضر والمستقبل.

1- توجد أشكال أخرى لتحريك القوة العسكرية مثل استعراض القوة العسكرية في المناسبات الوطنية، والمناورات الفردية أو مع الحلفاء بالذخيرة الحية أو بالذخيرة البيضاء، وكذلك التجارب العسكرية لبعض الأسلحة للوقوف على ناجعتها وقدرتها التدميرية.

مؤكد إذن أن القادة في يدهم القرار السياسي والعسكري، ولكن عليهم تحدي آخر وهو القدرة على «الموازنة بين التكاليف والمكاسب في الحروب»¹، فلا ينبغي الإفراط في استخدام القوة العسكرية من أجل تحقيق مكاسب ضئيلة، ولا يجب الاستمرار في استخدام القسر بعد تحقيق الأهداف، وبالتالي فاستخدام القوة له إطار زمني ومكاني محدد وله شدة محصورة في مجال ما بين الإقناع وتقديم الحوافز إلى اللجوء لاستخدام القوة العسكرية، هذه الأخيرة وعلى وجه الخصوص تقتضي الفعالية والممارسة الناجحة وهو ما يستند على الفهم الصحيح للقوة وبنيتها، لأن هذه الممارسة تبنى على علاقة الفعل ورد الفعل بين الأطراف المتفاعلة عامة والمتحاربة على وجه الخصوص، والنصر المحقق الذي يحققه طرف ما في النهاية يعني ميل موازن القوى لصالحه في مرحلة الحسم.

4- توازن القوى:

يحينانما سبق ذكره إلى تحليل فكرة توازن القوى في العلاقات الدولية وعلاقتها بموضوع الحرب، باعتبار أن مفهوم توازن القوى هو المفتاح لفهم سلوك الدول في العلاقات الخارجية التي تتسم بما يعرف بالفوضى الدولية²، ولكن قبل ذلك نرى

1- ليزلي جيلب، قواعد القوة، ص 37.

2- الفوضى الدولية: تتجلى في المجتمع الدولي الذي يسوده الطمع والاعتصاب والعنف أو الفوضى ببساطة، فالمجتمع الدولي مهدد بتعديلات اعتباطية من جانب واحد، فخلق أمر واقع يتطلب تعديل نظام قائم عبر عمل يفلت من أي نوع من المعاملة بالمثل أو من أية مفاوضة، وهذا هو الحاصل بالفعل عند = إنهاء العمل بالالتزامات والتوصل منها، ومن خلال عمليات الرهن أو الضم القسري للأراضي وخرق المعاهدات.

فالفوضى الدولية تشير إلى عدم وجود حكومة عالمية فوق الدول القومية، وهي الميزة المحورية للنظام الدولي، والعلامة الفارقة بين السياسة الداخلية والسياسة الخارجية، لأن غياب أي شكل من أشكال الحكومة العالمية التي تملك الوسائل والشرعية لفرض نظام دولي يراعي مصالح جميع الدول، هذا الغياب يؤدي

ضرورة توضيح أمر مهم مرتبط بمفهوم توازن القوى، وهو «السمة الواضحة التي تغلب على جميع مذاهب توازن القوى وهي هوس القوّة، فجميع الدول تطلع إلى القوّة أو الحفاظ عليها أو قلب نظام معين»¹، فالسعي لامتلاك القوة أو الاستزادة منها هو هدف مشترك بين كل الأمم، لذلك فإن «جميع الدول تشارك في الصراع من أجل القوّة، فحشد القوّة هو هدف السياسة الخارجية للدول»²، والفكرة نفسها نجدها عند فريديريك نيشته بحيث يقول: «الدولة... في الداخل تتخذ شكل الشرطة، والقانون الجنائي، والطائفية، والتجارة، والعائلة، وفي الخارج تظهر كإرادة للقوّة، والحرب، والغزو والانتقام»³، وعليه فالشعوب والدول تسعى جميعا لامتلاك العديد من الميزات ولكن أهم هذه الميزات هي ميزة القوّة التي تعتمد عليها في علاقتها مع غيرها من أجل الضغط عليها، فهذه القوّة هي الوسيلة الوحيدة في ظل الفوضى التي تميز العلاقات الدولية التي تحقق بها الدولة أمنها وتحفظ بها بقاؤها «لأن العداء بين الدول حالة طبيعية لا مفر منها في العلاقات الدولية»⁴، يوحى لنا هذا

معاناة الدول من حالة الشك وغموض نوايا الدول الأخرى، ولن يكون بإمكانها سوى الاعتماد على نفسها لضمان أمنها ومصالحها لذلك فهي مجبرة على اتخاذ التدابير والتعزيزات اللازمة لتعزيز أمنها وأهمها زيادة الإنفاق العسكري، هذه الحالة تقود بصورة حتمية إلى خلق مأزق أمنية في العالم باعتبار أن جهود دولة ما لحماية نفسها قد تتفهم من طرف دولة أخرى على أن تلك الجهود تنقص من أمنها فتقوم هي كذلك بإجراءات رفع دفاعاتها ونتيجة هذا الوضع هي الصراع الحتمي.

أنظر: ألان بلانتي، في السياسة بين الدول، مبادئ في الدبلوماسية، ترجمة: نورالدين خندودي، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2006، ص 73.

أنظر كذلك: بول روبنسون، قاموس الأمن الدولي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، 2009، ص 28، 29.

1- مايكل شيهان، توازن القوى، التاريخ والنظرية، ترجمة: أحمد مصطفى، المركز القومي للترجمة، مصر، الطبعة الأولى، 2015، ص 23.

2- المرجع نفسه، ص 23.

3- فريديريك نيشته، إرادة القوّة، ترجمة: محمد الناجي، إفريقيا للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 2011، ص 260.

4- مايكل شيهان، توازن القوى، التاريخ والنظرية، ص 24.

الأمر أن الحديث عن توازن القوى هو في الحقيقة حديث عن توازن القوة العسكرية بالدرجة الأولى والقوة الاقتصادية بالدرجة الثانية، لأن «القوة العسكرية عامل هام في السياسة الخارجية لدول كثيرة، وبالتالي فالتوزيع النسبي لها بين الدول سوف يكون عاملاً هاماً يؤثر في نتائج السياسة الدولية»¹، هذا التوزيع للقوة العسكرية والاقتصادية في المجتمع الدولي يؤدي بهذا الأخير إلى الانقسام إلى دول متعاونة وأخرى متصارعة، وهو الأمر الذي يجعل من الحرب وسيلة عملية وحتمية في العلاقات الدولية من أجل تأكيد سلطة دولة أو حلف ما على طرف آخر لحسم أمر ما هو محل صراع بينهم.

هذه المنطلقات في العلاقات الدولية هي التي تؤدي إلى ظهور ما يعرف بتوازن القوى، هذا المصطلح استخدم بمعاني مختلفة، لكن يمكن أن نلاحظ أن هذه المعاني أو الاستعمالات يمكن تصنيفها في أربعة محاور كبرى مختلفة هي كالآتي:

«-كسياسة تهدف إلى إحداث توزيع معين في السلطة.

- كوصف للحالة الواقعية لشؤون السياسة الدولية.

- كتوزيع متساوي للقوة على الصعيد الدولي.

- كمصطلح يصف أي توزيع للقوى السياسية في العلاقات الدولية»²، وهناك من الباحثين من جعلها تسع معانٍ لمفهوم توازن القوى وحددها بما يلي:

- «التوزيع العادل للقوى.

- مبدأ توزيع القوى بالتساوي.

- توزيع قائم للقوى وبالتالي أي توزيع محتمل للقوى.

- مبدأ المساواة في توسع دول القوى العظمى على حساب الدول الضعيفة.

- الدور الخاص في الحفاظ على توزيع العادل للقوى.

1- مايكل شيهان، توازن القوى، التاريخ والنظرية، ص 24.

2- المرجع نفسه، ص 26.

- الميزة الخاصة في توزيع القوى القائم.

- الهيمنة.

- الاتجاه الطبيعي للسياسة الدولية للوصول إلى توزيع عادل للقوة¹، الملاحظ على التصنيفين أعلاه لمعاني توازن القوى هو استعمال نمطين من المصطلحات في إبراز معانيه المختلفة، النمط الأول يحاول أصحابه أخلفة العلاقات الدولية باستعمال مصطلحات في تعريفه من قبيل مصطلح المساواة، العادل، الاعتدال، وهذا النمط يسعى أصحابه للحفاظ على وضع قائم وهذا يتجلى من مصطلحات أخرى مثل : الحفاظ، تفادي خطر وغيرها مما رافق ما سبق ذكره من المصطلحات، والنمط الثاني هو عكس الأول، إذ لا يعبئ أصحاب بمسألة الأخلاق الدولية² مثل حماية الحياة الإنسانية وأخلاق الحرب وغيرها، لذلك نجد هذا النمط يوظف مصطلحات أخرى لشرح معاني توازن القوى مثل مصطلح الهيمنة، التوزيع، التوسع، وواضح مثلا أن التوزيع لا يعني أبدا التوازن، والتوسع على حساب الدول الضعيفة لا يمكن أن يكون أخلاقي أما الهيمنة فهي مرادف للإمبريالية، فمن خلال تباين لغة التعريف يمكن فهم الدور الذي يلعبه أصحاب كل نمط من هذين النمطين ، فالدول التي تتبنى النمط الأول هي دول تعمل على إرساء الاستقرار والأمن في العالم أما الدول التي تتبنى النمط الثاني فهي تعمل على خلق الفوضى واللاستقرار الدولي وذلك من أجل هيمنة القوى لصالحها.

مهما يكن المفهوم الذي نعتمد عليه في إبراز معنى توازن القوى، يبقى هذا الأخير قائم على بعض المبادئ الأساسية التي لا يمكن تجاهلها باعتبارها تشكل الخلفية التي يستند عليها التفكير في توازن قوى الدول، وهذه المبادئ هي:

1- مايكل شيهان، توازن القوى، التاريخ والنظرية، ص 26، 27.

2- للمزيد حول موضوع الأخلاق الدولية أنظر: هانز جي مورجنتا، السياسة بين الأمم، الجزء الثاني، ترجمة: خيري حماد، الدار القومية للطباعة، ص 15 وما يليها.

- «الدول القومية هي الركائز الأساسية في النظام الدولي الذي يتألف من الدول المستقلة ذات السيادة.

- السياسة الداخلية والخارجية هي بوضوح مناطق منفصلة عن السياسة القومية الكلية.

- السياسة الدولية تمثل الصراع على السلطة في البيئة الدولية الفوضوية.

- تفاوت قدرات الدول على تحقيق الأهداف والدفاع عن المصالح¹، وعلى هذا يتأكد لدينا أنه لا يمكن الحديث عن النظام الدولي والعلاقات السائدة فيه بدون تقديم تصور عن الأطراف التي تشكل هذا المجتمع الدولي، ونظرية توازن القوى تؤكد لنا أن هذه الأطراف في الأصل هي دول قومية² ومستقلة ولو سوريا، هذه الدول القومية تكون في حالة صراع دائم على امتلاك السلطة أو جزء منها من أجل تحقيق مصالحها في بيئة دولية تسودها الفوضى بسبب غياب سلطة تزع هذه العلاقات الدولية، لكن قوة الدول متفاوتة ومتباينة وهو ما يؤدي إلى الاختلال في استخداماتها حسب طبيعة العدو، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فمبدأ المصلحة الذي يحكم تصرفات الدول يجعل من المبادئ الأخلاقية عاجزة عن تحقيق مصالح الدول في أغلب الأحيان لهذا تكون الدول مضطرة إلى استخدام القوة، بمعنى أن

1- مايكل شيهان، توازن القوى، التاريخ والنظرية، ص 15.

2- الدولة القومية: هي وحدة سياسية اجتماعية تشكل كلاً واحداً منسجماً تماماً في جميع عناصر تكوينه الاجتماعية والسياسية... هناك نوعان من الترابط في المجتمع الإنساني الأمة والدولة، فالأمة هي ترابط بالتشابه، والدولة هي ترابط بالتنظيم السوري، وكل من هاتين الظاهرتين تتحدان في إطار مفهوم الدولة الأمة أو القومية، فكلما نمت الجماعة أو الأمة كلما اندفعت نحو تحقيق ذاتها في شكل أكمل وهو الدولة، ذلك أن الدولة وحدها هي التي يمكن أن تخلع عليها ذلك التعريف.

فالدولة كائن حي يتركب من أعضاء تقوم بالوظائف اللازمة لحياته، وتتوقف صحة هذا الكائن وأمنه على النظام الذي يؤدي به كل عضو وظيفته.

أنظر: محمود حيدر، الدولة، فلسفتها وتاريخها من الإغريق إلى ما بعد الحداثة، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، الطبعة الأولى، 2018، ص 138، 139، 140، 27.

الفعل الحقيقي والواقعي على المستوى الدولي هو فعل القوّة وليس فعل الأخلاق، بناء على هذا، فإنه من أجل توزيع متساوي للقوى بين الدول والمحقق لتقسيم مقبول للمصالح بينها كان لابد من انتهاج سياسة توازن القوى بينها.

يستنتج مما سبق ذكره، أن توازن القوى في العلاقات الدولية يعني بالضرورة وجود عدد من الأقطاب الدولية الأساسية في البيئة العالمية أقلها قطبين، وأن هذا التوازن يهدف إلى خلق حالة من الاستقرار الدولي أو الإقليمي، أما في حالة انعدام الأقطاب الدولية أو وجود قطب واحد فقط فإن العالم في هذه الحالة يؤول إلى حالة الهيمنة، أي هيمنة هذا القطب الوحيد على السلطة في كل العالم، وتصبح الدول الأخرى مجرد تابع له وليس أكثر من ذلك، وهذه هي إحدى الصور لما يراد للعالم أن يصير إليه ونقصد هنا ما يعرف بالدولة الكونية ذات القطب الواحد والمسيطر على كل الجوانب الثقافية والاقتصادية والسياسية تحت مسمى العولمة.

بالعودة إلى توازن القوى وكما أوضحت، أن تعاريفه متباينة فإن صورته متباينة كذلك، وحسب ما جاء في الدراسات المهمة بالعلاقات الدولية فإنه لا توجد صورة واحدة لتوازن القوى، بل له صور مختلفة، هذا الاختلاف في صورته مرده إلى الاختلاف الموجود في العناصر أو الأطراف الدولية - دول أو أحلاف¹ - التي

1- الحلف: هو اتفاق بين طرفين أو أكثر على النصرة والنجدة والمعاونة عند حاجة أحدهم إلى ذلك، وهنا نوعين من الاحلاف:

- الاحلاف العسكرية: الحلف العسكري هو المعاهدة على التناصر والتعاون في القتال.

- الأحلاف السياسية: الحلف السياسي هو المعاهدة على التناصر والتعاون في المجالات السياسية والمواقف الدبلوماسية.

أنظر: هشام محمد سعيد آل برغش، الأحلاف العسكرية والسياسية المعاصرة، دار الكتب المصرية، ط1، 2013، ص 29، 66، 67.

تشكل تركيبته، وكذلك تتباين صورته بتباين الأسس التي يرتكز عليها قطب ما، هذه الأسس يمكن ان تكون عرقية أو دينية أو لغوية أو جغرافية أو اقتصادية أو أيديولوجية، كما أن الأقطاب تختلف فيما بينها حسب عدد الدول المشكلة لها، إذ يمكن أن يزيد أو ينقص هذا العدد حسب الظروف الدولية ومصالح الدول.

5- أنماط توازن القوى:

بالرغم من «وجود الكثير من أنماط التوازن مثل التوازن المرن، والتوازن الجامد، أو توازن الأنظمة المتجانسة وتوازن الأنظمة المتنافرة، وتوازن الأنظمة المعتدلة والأنظمة الثورية... وغيرها، فإنه يمكن إرجاع هذه الأنماط جميعا إلى نمطين أساسيين هما: التوازن المتعدد الأقطاب أو المركب، ويعتمد على تعدد الأقطاب الدولية، والتوازن ثنائي الأقطاب أو التوازن البسيط، ويقوم على ظهور قوتين عظيمتين»¹، يدل هذا على أنه في نظرية توازن القوى ما يهم أكثر هو عدد القوى المتدافعة على السلطة في البيئة الدولية لتحقيق مصالحها، هذا بغض النظر عن الأسس الإيديولوجية التي بنيت عليها ودرجة انسجامها أو تنافرها، لأن المصلحة سوف تلغي في النهاية جميع الاختلافات الموجودة بين الدول التي يضمها قطب واحد، بالإضافة إلى أن أي قطب مهما كان معتدلا فإنه يصبح بالضرورة تائرا إذا كان وجوده أو مصالحه مهددة بالفعل من طرف قطب ثانٍ.

لهذا نقول، إن تقسيم أنماط توازن القوى إلى توازن ثنائي الأقطاب، وتوازن متعدد الأقطاب هو تقسيم يساعد بالفعل في فهم ظاهرة الحرب، لأن الكثير من الدارسين للعلاقات الدولية يعتقدون «أن قضايا الحرب والسلام تتعلق بهذه

1- إبراهيم أبو خزام، الحروب وتوازن القوى، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، الطبعة الأولى، 2009، ص 71.

الأوصاف الأصلية، فالتوازن البسيط هو توازن الحروب والصدمات، أما التوازن المتعدد الأقطاب فهو الذي يرسى النظام الدولي الأكثر استقراراً¹، إذن فشكل توازن القوى له علاقة مباشرة بالأوضاع التي تسود العالم في فترة ما، فكلما تعددت الأقطاب كلما ساد السلام في العالم، وكلما كان هناك قطبان فقط أدى ذلك إلى الصراع والصدام والحروب، وسبب ذلك هو ما سيأتي شرحه.

إن توازن القوى المتعدد الأقطاب حسب هانز جي مورجنتاو هو «توازن لا نقل أطرفه عن ثلاثة، يترتب عليه الاستقرار وحفظ استقلال هذه الأطراف مهما كان أحدها ضعيفاً»²، يلاحظ أن هذا التعريف يذكر عدد الأقطاب من دون التركيز على الأسس المعتمدة في التحالف بين الدول المشكلة للقطب الواحد عدا شيء واحد وهو تحقيق المصلحة المتمثلة في الحفاظ على استقلال الدول المتحالفة وحمايتها مهما كانت ضعيفة.

من جهة أخرى، نقول إن توازن القوى المتعدد الأقطاب يؤدي إلى تعدد مراكز القوة في البيئة الدولية، وهو أمر يؤدي إلى خلق منافسة دولية بين عدة دول أو كتل دولية تكون متكافئة نسبياً من حيث القوة وفق منطق توازن القوى المنتشرة في العالم في هذه المرحلة، وهذا ما يجبر جميع الفاعلين في البيئة الدولية على التصرف بحكمة ووفق شرعية محددة من أجل الحصول على السلطة أو الإمكانيات التي يرغب فيها جميع الأطراف، هذه المنافسة تخلق قيوداً متبادلة ومطبقة من جميع الأطراف في مواجهة بعضها بعضاً.

1- إبراهيم أبو خزام، الحروب وتوازن القوى، ص 72.

2- هانز جي مورجنتاو، السياسة بين الأمم، الجزء الأول، ترجمة: خيري حماد، الدار القومية للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، ص 248.

إن هذه الخاصية التنافسية التي تطبع هذا التوازن المتعدد الأقطاب هي الخاصية الجوهرية التي تقود إلى الاستقرار والسلام، فبتعدد الأقطاب تتعدد سياسات الدول كذلك، وبحكم تنوع المصالح الوطنية لمختلف الأطراف تأخذ خطوط السياسات الكبرى تأخذ اتجاهات كثيرة متوازية ومتقاطعة ومتعارضة، وذلك يفرض على الدول مهارات أكبر في المناورة وانتباها وحذراً أكبر¹، إن المقصود بالإفراط في الحذر وضرورة اكتساب مهارات كبيرة في المناورة هو عدم الثقة في أي طرف من الأطراف الفاعلة في الساحة الدولية أو الإقليمية، وأي صراع بين طرفين هو بالضرورة في صالح طرف ثالث، لأن الصراع المباشر أو الحرب الشاملة هي في الأساس هدر للقوة، وبالتالي تؤدي إلى إضعاف الأطراف المتحاربة وهذا كما أشرنا يكون في صالح الطرف المترص بهما، بتعبير آخر نقول، إن أطراف هذا النمط من توازن القوى غالباً ما تستبعد خيار المواجهة المباشرة أو الحرب من أجل تحقيق أهدافها ، لأنها تكون فرصة لتكتل كل الأطراف الأخرى ضدها من أجل إضعافها أو إخراجها من منظومة التوازن ، ينتج من هذا أن كل طرف يناور من زيادة قوته أو تحقيق أهدافه بطريقة لا تثير تحفظ الأطراف الأخرى، لهذا فالأطراف جميعاً تقبل إلى حد ما بمبدأ التنافس، أي السعي إلى تحقيق الأهداف وفق نظام معين، هذا النظام يعني ظهور منظومة من القواعد التي يمكن أن تكون صريحة أو ضمنية تقبلها جميع الأطراف لأنها تحافظ على توازن القوى وتحفظ وجود هذه الأطراف، فوجود واحترام هذه القواعد التي تنظم العلاقات الدولية - ولو قلت - سوف تؤدي إلى تحقيق السلام والاستقرار الدوليين لفترة تمتد في الزمن حسب نجاعة هذه القواعد ومدى احترامها.

1- إبراهيم أبو خزام، الحروب وتوازن القوى، ص 76، 77.

وعليه فإن أهم الخصائص التي تجعل من توازن القوى المتعدد الأقطاب توازن يحقق الاستقرار والسلام على المستوى الدولي أو الإقليمي هي الطبيعة التنافسية بين مختلف الأقطاب، وخاصة اعتراف كل طرف بقدر من القواعد المتفق عليها بين الأطراف لتنظيم العلاقات الدولية، هذه العلاقات التي تسير في خطوط تحالف متعددة، فيمكن أن تكون متوازية أو متقاطعة أو حتى متعارضة، ولكن في النهاية هذا النمط من توازن القوى يحبر الجميع على الاحتكام إلى العقل والتاريخ يزخر بعديد الأمثلة للتوازن المتعدد الأقطاب الذي حقق السلام العالمي نذكر منها توازن القرن الدبلوماسي (1815-1914م) والذي نشأ بعد هزيمة نابليون.

أما التوازن البسيط أو توازن ثنائي الأقطاب فهو «التوازن البسيط للقوى، وهو الصورة الأكثر وضوحاً، ويقوم على وجود دولتين أو كتلتين متعارضتين في حالة من التعادل السلبي، فإذا كان توازنا بين دولتين يسمى توازن إقليمي وإذا كان توازن بين كتلتين يسمى توازن دولي»¹، مؤكداً في هذه الحالة خاصة لما يتعلق الأمر بتوازن دولي أن يكون هناك مركزين للقوة في العالم، وكل قطب يدور حول دولة عظمى واحدة تشكل نواته التي تجذب إليها الدول الأخرى التي تتقارب معها في الهدف المشترك.

ما يميز هذا النمط من التوازن هو قيامه على التقارب بين الدول على أسس معينة مثل الأسس الإيديولوجية أو الثقافية أو الدينية أو الجغرافية أو الحضارية أو الاقتصادية، كما أنه يتسم بالمواجهة والتصادم بين القطبين مباشرة أو بين دول تنضوي تحت القطبين كليهما فتشكل صراعا بالوكالة عن الأطراف الكبرى، وهنا يصبح العمل الدبلوماسي عديم الفعالية، بحيث يصب حل الخلافات

1- إبراهيم أبو خزام، الحروب وتوازن القوى، ص 97.

بين الطرفين بطرق سلمية وبذلك يكون الاقتراب من مرحلة الحرب، «فتوازن القوى البسيط يشكل مرحلة الاقتراب من الحرب ويؤدي إليها، وهذا استنتاج جوهرى»¹، هذا الأمر نتيجة حتمية لطبيعة هذا التوازن الموسومة بالمعارضة المباشرة والتنافس السافر الذي يظهر من خلال استخدام القوة العسكرية من أجل فرض السيطرة السياسية والاقتصادية على دول معينة، وظاهر هنا أن هذه السياسة المتبعة في حالة التوازن البسيط هي سياسة إمبريالية²

النتائج التي يؤدي إليها هذا التوازن البسيط والمبني على الصراع الحاد، هي إما انتصار أحد الأقطاب على الآخر وبالتالي خضوع القطب المهزوم لإرادة وسلطة القطب المنتصر، وهنا ينتج ما يسمى بالهيمنة، هيمنة قطب واحد على إقليم معين أو على العالم أجمع، أو يؤدي هذا التوازن حرب مباشرة بين القطبين من أجل إعادة التوازن في القوى إلى حالته الأصلية، والحرب قد تعيد التوازن وقد تؤدي إلى الهيمنة أيضا إذا كان الانتصار لأحد الأطراف بصورة تقضي على كل قوة الطرف المهزوم، وعليه نقول إن الفترات الزمانية التي يكون فيها العالم خاضع لتوازن قوى ثنائي الأقطاب تكون زاخرة بالحروب زلا تعرف إلا أوقات قليلة من

1- إبراهيم أبو خزام، الحروب وتوازن القوى، ص 98.

2- الإمبريالية: هي سياسة تتبعها دول معينة، وتعني توسيع السلطة والسيطرة عن طريق استخدام القوة، والتي غالبا ما تكون قوة عسكرية، وتتم من خلال الاستلاء على الأراضي وفرض السيطرة السياسية والاقتصادية عليها، وتعتبر الامبريالية سياسة غير أخلاقية ويستخدم هذا الوصف لإدانة السياسة الخارجية للدول المعادية، فالإمبريالية هي سياسة تمارسها الدول القوية على الضعيفة من أجل السيطرة على المواد الأولية وأسواق للمنتجات الصناعية.

ملول الإمبريالية يمكن أن يدل على نظام سيطرة سياسية أو استغلال سياسي على نطاق عالمي، أو يدل على سياسة ترمي إلى الدفاع عن امبراطورية ما أو توسيعها، أو يدل على أيديولوجية تنادي بطموحات امبراطورية أو أفعال عدوانية.

أنظر: مجموعة من المؤلفين، قاموس الفكر السياسي، الجزء الأول، ترجمة: أنطوان حمصي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، 1994، ص 71-84.

الاستقرار الذي يتصف بالقلق والاضطراب، لأنه استقرار وجد فقط من أجل التحضير لحرب جديدة، والحروب الكبرى التي سجلها التاريخ هي حروب بين قطبين كبيرين مثل حرب طروادة بين أثينا وإسبرطة، وحرب روما مع قرطاجة في حوض المتوسط، والحربين العالميتين الأولى والثانية، فكلما انتهت التكتلات الدولية إلى كتلتين إلا وقامت حروب كبرى، فمنطق التاريخ يدلنا على أن توازن القوى ثنائي الأقطاب هو توازن حرب.

الفصل الثاني:

نهضة فن الحرب

عند نيقولا ميكيافيلي

الفصل الثاني: نهضة فن الحرب عند نيقولا ميكيافيلي.

المبحث الأول: الخلفية النظرية والعملية لفكر الحرب عند نيقولا ميكيافيلي.

1- سيرته العلمية:

ولد نيقولا ميكيافيلي Nicolas Machiavel بتاريخ 03 ماي 1469 م، بمدينة فلورنسا الإيطالية، وهو الابن الأكبر لبرناردو ميكيافيلي Bernardo Machiavel وأمه هي بارتولومي Bartolomea، كتب ميكيافيلي في إحدى مراسلاته الشخصية: «ولدت فقيراً وتعلمت في عمر مبكر ألا أنفق سوى أقل القليل بدلاً من أعيش في ترف»¹، بالرغم من أن والدته كانت ابنة عائلة عريقة، ووالده كان ينتمي إلى عشيرة ثرية تمتلك أراضي واسعة لزراعة الكروم جنوب إيطاليا، لكنه كان مهتم بالكتب ويتقن اللغة اللاتينية وتعلم صياغة العقود المختلفة، هذا بالإضافة إلى شغفه الكبير بالأعمال الأدبية الكلاسيكية خاصة أعمال أفلاطون وشيشرون.

إن هذا التبجيل للثقافة والأدب هو ما دفع برناردو إلى السعي والإصرار كي يستفيد ابنه من ثمار ثقافة النزعة الإنسانية² المزدهرة في فلورنسا في زمنه، لذا

1- جيمس بي أتكينسون، ديفيد سيسس، ميكيافيلي وأصدقاؤه: مراسلات شخصية، نقل عن: روس كينج، ميكيافيلي فيلسوف السلطة، ترجمة: فايقة جرجس، دار كلمات عربية للترجمة والنشر، مصر، الطبعة الأولى، 2008، ص 09.

2- النزعة الإنسانية **Humanisme**: تعد النزعة الإنسانية أحد أهم التيارات التي ظهرت في الفكر الغربي الحديث وأحد أهم الحركات الفكرية والتربوية التي توجت عصر النهضة في أوروبا والتي أثمرت مختلف توجهاته الفكرية فيما بعد، تتلخص هذه النزعة في جعل الكينونة الإنسانية مركز الوجود الحيوي

وعقله المفكر، وقد كانت نزعة متفائلة بالإنسان وبقدراته على العطاء والإبداع والتواصل إلى أقصى حدود الكمال الممكنة.

أول من استعمل هذا المصطلح هو عالم اللغة والمؤرخ الألماني جورج فويت وكان ذلك عام 1856م عندما أراد وصف الحركة التي ازدهرت لإحياء التعليم الكلاسيكي أثناء فترة عصر النهضة، وكلمة إنساني Humaniste مشتقة من المصطلح الإيطالي Umanista في القرن الخامس عشر وتعني المعلم أو الباحث العلمي في الأدب اليوناني، وبعد ذلك بدأ مصطلح الإنسانية يشير إلى الفلسفات والأخلاق التي تهتم بالإنسان كمركز للوجود.

وعليه، فجزور هذا المصطلح Humanisme تعود إلى اليونان من خلال دلالتها على التعليم المتوازن أو نسق المعارف الإنسانية المتمثلة في الفنون الحرة وهي القواعد اللغوية والبلاغة والمنطق وعلم الأعداد والفلك والتجانس الصوتي، وينطوي التعليم عند اليونان على فكرة أن الطبيعة الشخصية الإنسانية يمكن التأثير في نموها عن طريق التعليم، وقد امتدت فكرة التعليم هذه لتصل إلى الرومان، بحيث أصبح التمكن من فنون الخطابة هو السبيل إلى امتلاك القوة والنفوذ، وجدير بالملاحظة هنا أن مفهوم النزعة الإنسانية في ظهوره الأول ارتبط بالدعوة إلى إعادة بناء النظم التعليمية والتربوية، والعودة إلى الآداب القديمة التي تقدم المثل الأعلى في السلوك والمعرفة، وهذا البعد هو المقصود بما ذكرناه مقترباً بزمن نشأة نيقولا ميكافيلي.

ونرى أنه من الضروري القول إن النزعة الإنسانية لم تبق مقتصرة فقط على الدلالة التي سبق ذكرها، بل صارت تحمل معاني أخرى فرضتها حركة التاريخ ومستجدات الفكر والمعرفة، بحيث أعطت النزعة الإنسانية أهمية كبيرة للإنسان وعقله في التمييز وإدراك الأحكام المعيارية، وهذا يعني أيضاً رفض كل أسبقية دينية أو ميتافيزيقية يمكنها أن تحد من إبداع الإنسان وفعاليتيه في التاريخ، والنزعة الإنسانية بهذا المعنى تشكل قطيعة مع كل نظرة لاهوتية قروسطية صادرت كيان الإنسان باسم الإيمان، وتمثل في الوقت نفسه تأسيساً لفلسفة ورؤية جددتين تحل الإنسان محل المركز من الوجود بعد إن كان من الوجود على هامشه، وعليه يمكن أن نحدد للنزعة الإنسانية معاني عدة، فهي لها بعد تاريخي وآخر براغماتي ونجد لها بعد فلسفة وبعد آخر لاهوتي.

نشير في الأخير إلى أن أب النزعة الإنسانية هو بترارك، ولكن هناك العديد من رواد هذه النزعة نذكر منهم دانتي صاحب الكوميديا الإلهية، وإيراسموس الهولندي المدافع عن حماقة، وتوماس مور الإنجليزي، وفي إيطاليا كان من روادها كل من ليوناردو دافنتشي ومايكل أنجلو.

أنظر: مصطفى حنفي، النزعة الإنسانية وإرث الأنوار، دار إفريقيا الشرق، دار البيضاء، 2014، ص 7 إلى 10.

أندري لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة: خليل أحمد خليل، الجزء الأول، دار عويدات للنشر، بيروت، الطبعة الثانية، 2001، ص 74.

بدأ نيقولا ميكيافيلي تعلم مبادئ اللغة اللاتينية في سن السابعة، وفي غضون سنوات قليلة تعلم اللغة اللاتينية والحساب على يد أشهر المعلمين في فلورنسا، بعدها التحق نيقولا بالمؤسسة التعليمية **إستوديو فيورنتينو Studio Fiorentino** وهي جامعة تأسست عام 1348 م¹، وقد استفاد نيقولا من الحياة الجامعية تماما مثل مل أراد له أبوه أن يفعل، بحيث أدرك «جوهر الفروع الدراسية الخاصة بمنهج الحركة الإنسانية مثل البلاغة وقواعد اللغة والشعر والتاريخ والفلسفة الأخلاقية»²، واستمر في دراسة الشعر والأدب والفلسفة حتى بعد انتهائه من المرحلة الجامعية، وتذكر بعض المصادر أنه كان أحد أعضاء جماعة من الإنسانيين التي ضمت باحثين وفنانين وفلاسفة وكان من بين أعضائها الفنان مايكل أنجلو Buonarroti (1475م - 1564م)، ويعزى سبب إلتحاقه بهذه الجماعة إلى الاعتقاد بأن المكونات الصحيحة للتعليم الإنساني الحقيقي هي اللغة اللاتينية، وفن الخطابة، ومحاكاة الكتاب الكلاسيكيين والتاريخ والفلسفة الأخلاقية³، وهذا العناصر التعليمية هي التي تؤهل صاحبها لممارسة السياسة، وهي بالفعل سبب تعيين ميكيافيلي في سن مبكر في منصب سياسي رفيع.

-
- أندري لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة: خليل أحمد خليل، الجزء الثاني، دار عويدات للنشر، بيروت، الطبعة الثانية، 2001، ص 566 إلى 569.
- عاطف أحمد، النزعة الإنسانية، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان القاهرة، الطبعة الثانية، 1999.
- 1- روس كينج، ميكيافيلي فيلسوف السلطة، ترجمة: فايقة جرجس، دار كلمات عربية للترجمة والنشر، مصر، الطبعة الأولى، 2008، ص 12، 13.
- 2 - المرجع نفسه، ص 13.
- 3- كوينتين سكينر، ميكيافيلي، ترجمة: رحاب صلاح الدين، دار هنداي، مصر، الطبعة الأولى، 2014.

2- الخلفية السياسية لفكر ميكيافيلي:

حصل نيقولا ميكيافيلي على المهنة التي تسمح له باستغلال مواهبه وهو في التاسعة والعشرين¹، وهو منصب سياسي مرموق يتمثل في توليه المستشارية للجنة «الثمانية للمراقبة» وهي اللجنة المنوط بها شؤون العدالة الجنائية²، وبعدها حاول في عام 1498م الحصول على منصب السكرتير الأول لمجلس السيادة، لكنه فشل في ذلك، ثم سرعان ما تم ترشحه لمنصب المستشار الثاني، وبذلك وصل نيقولا ميكيافيلي إلى السلطة، وأصبح المستشار الثاني لمجلس السيادة، وهي الوظيفة التي استحدثت لأول مرة عام 1437م للمساعدة في التعامل مع كمية المراسلات الهائلة والمتزايدة باستمرار، ويتألف هذا المجلس من ثمانية سادة إلى جانب الرئيس الرسمي للحكومة الذي يسمى «حامل لواء العدالة»، وقد صاغ هؤلاء التسعة سياسة الجمهورية بالتشاور مع العديد من اللجان مثل لجنة العشر للحرية والسلام ولجنة الثمانية للمراقبة، وكان الأمناء في مجلس السيادة يعدون كافة مراسلاتهم من تقارير وخطابات ومعاهدات³، يضاف إلى هذه المهام يستخدم المستشار الثاني كمبعوث إلى الجهات الأجنبية ويكون مخول ببعض السلطات، كما أنه يقدم المساعدة لمجلس العشر للحرية والسلام⁴، وهو مجلس يشرف على

1- كان قانون فلورنسا في ذلك الوقت ينص على أن سن التاسعة والعشرين هو السن القانوني لممارسة الحقوق السياسية كالترشح للمناصب السياسية والمشاركة في الانتخابات، وقد حددوا سن البلوغ بسن الرابعة والعشرين.

2- روس كينج، ميكيافيلي فيلسوف السلطة، ص 08.

3- المرجع نفسه، ص 16 و 17.

4- سميت هذه الهيئة في مراجع أخرى باسم لجنة العشرة لشؤون الحرب، ولكن المهام المنوطة بها هي ذاتها والمتمثلة في تسير العلاقات الخارجية للدولة.

العلاقات الخارجية للجمهورية، وقد أجبرت هذه الوظيفة نيقولا ميكيافيلي على «أن يمتطي الجواد ويسافر إلى الخارج مع المبعوثين والسفراء الفلورنسين، بدلا من البقاء جالسا على مكتبه يعد التقارير عن الشؤون الداخلية للبلاد، لقد كان نيقولا على وشك أن يرى العالم»¹، ويسجل أرائه عن إدارة شؤون الدولة في زمنه، والتي تعتبر في أغلبها سرداً لتاريخ جرائم وحماقات الحكام ومحن الشعوب كما سنرى لاحقا.

عرفت مدينة فلورنسا ما بين 1492م و عام 1498م العديد من الاضطرابات وتخللتها الكثير من المآسي والفاجعات، إذ توالى عليها السنوات العجاف ومواسم الحصاد الشحيحة، وعرفت المجاعة وحل بها الطعون في عام 1497م وتبعه المرض الفرنسي وهو مرض الزهري، ولكن أعظم كارثة حلت بفلورنسا في هذه السنوات بل بإيطاليا بأكملها هي الغزو الفرنسي على يد الملك تشارلز الثامن، وقد ترك هذا الحدث الأثر البالغ في نفسية نيقولا ميكيافيلي بحيث أصبح يشكل إحدى الخلفيات التاريخية التي بنى عليها نظريته السياسية.

كانت شبه الجزيرة الإيطالية في نهاية القرن الخامس عشر تتألف من أكثر من اثنتي عشر من الممالك والإقطاعات ودول المدينة والجمهوريات، ولكن أقواها هي: دوقية ميلانو، وجمهورية البندقية، ومملكة نابولي، ودولة الكنيسة أو الدول البابوية، وفلورنسا، وقد نعمت هذه الدول بالسلام نتيجة «إبرام ممثلوهم ميثاق عدم اعتداء يسمى ميثاق لودي للسلام عام 1454م، لكن الموازين انقلبت... سارع ملك فرنسا الشاب الطموح تشارلز الثامن ... مُرغما كافة السلطات الإيطالية على

أنظر: كوينتين سكينر، ميكيافيلي، ص 15.

1- روس كينج، ميكيافيلي فيلسوف السلطة، ص 18.

أن تقر وتؤيد أحقيته بالعرش على مملكة نابولي»¹، وفي غضون ذلك خسرت فلورنسا السيطرة على مدينة بيزا التي حكمتها منذ عام 1406م، وقد حاول الفلورنسيون استعادة السيطرة على هذه المدينة لكن تلك المحاولات باءت بالفشل.

جدير بالإشارة هنا أن استرداد مدينة بيزا كان «من أهم البنود الأساسية في جدول أعمال مجلس السيادة وجلس العشر لدى دخول نيقولو ميكيافيلي المستشارية في عام 1498م»²، لكن العائق الأكبر الذي منع فلورنسا من تحقيق هذا الهدف هو أنها «لم يكن لديها جيش خاص بها، لذلك كان عليها أن تدفع للآخرين ... إذ كانت تدفع لجنود مرتزقة ... وكان هؤلاء المرتزقة الذين عرفوا باسم «قادة المرتزقة» شراً لا بد منه بالنسبة للمدن التجارية مثل فلورنسا التي يعكف مواطنوها على الاهتمام بالتجارة بدلاً من الانخراط في الأمور الحربية»³، وهو الأمر الذي اعتبره ميكيافيلي أحد العيوب الكبرى في سياسة فلورنسا، وحاول تصححه حين سعى إلى صياغة كتابه «فن الحرب»، وأهم العيوب التي لاحظها في هذا الشأن هو أن الرجال الذين يقاتلون مقابل المال وليس بدافع الوطنية وحب بلدهم⁴، هؤلاء حسب ميكيافيلي لا يمكنهم أن يحاربوا ببسالة، بل سوف يظهرون الكثير من الكسل والمراوغة والنفاق أثناء المعارك، وهذا كان حال المرتزقة في زمنه، الذين لم تكن مصالحهم الشخصية والمتمثلة في جمع الأموال والغنائم متطابقة تماماً مع مصالح الدولة التي غالباً ما تكون مصالح سياسية أو مصالح مادية ولكنها ليست آنية بل

1- روس كينج، ميكيافيلي فيلسوف السلطة، ص 22 و 23.

2 - المرجع نفسه ، ص 25.

3- المرجع نفسه، ص 25.

4- أنظر: جورج كاستيلان، تاريخ الجيوش، ترجمة: كمال دسوقي، مكتبة الإسكندرية، مصر، د ط، دت، ص 99، 100، 101.

مصالح تتحقق على المدى الطويل نسبيا، هذا الخلاف وعدم التطابق في المصالح يؤدي إلى الإخفاق في تحقيق أهداف الحرب التي تخوضها الدولة وخاصة أهدافها السياسية والإستراتيجية.

وفي شهر مارس من عام 1499م كُلف نيقولا ميكيافيلي من طرف مجلس السيادة بالمهمة الدبلوماسية الأولى، وتمثلت في إقناع أحد قادة المرتزقة بمواصلة الدفاع عن فلورنسا وكان يطلب بالمزيد من الأموال من أجل مواصلة مهمة الدفاع هذه، وقد احتاج ميكيافيلي إلى الكثير من المهارات البلاغية وفن الخطابة التي عرفها من كتاب شيشرون «في الخطابة»، وقد كللت هذه المهمة بالنجاح، ثم توالت عليه مهام أخرى من النمط نفسه، هذا الأمر أكسبه معرفة جيدة بأخلاق وطباع وأطماع وطموح المرتزقة، والتي لم تكن متباينة كثيرا فيما بينها وفق ما وصفه ميكيافيلي والذي كانت نفسه تنفر من سماتهم وفي الوقت ذاته كان يعيب على حكومة فلورنسا «الأسلوب الذي يوصي باعتماده مجلس السيادة والمتمثل في الكلمات المنمقة الجوفاء والتي كانت حجر الزاوية الذي تستند عليه معظم الدبلوماسية الفلورنسية»¹، ولم يكن ميكيافيلي يخفي ضجره من هذا الأسلوب الذي يعتبره أقل شأنا من الأسلوب الذي أوصى به شيشرون، فقد كان يرى أن الأجهزة الحكومية الفلورنسية تبدو متذبذبة وضعيفة على نحو يثير السخرية²، بالإضافة إلى هذا، فقد تكونت عنده - كما أشرنا - أفكار عن قادة المرتزقة وهي في مجملها أفكار سيئة، حيث اعتبرهم منافقين وعدمى المسؤولية أغلبهم يحاربون من أجل حفنة من المال وليس من أجل

1 - روس كينج، ميكيافيلي فيلسوف السلطة، ص 30.

2 - كوينتين سكينر، ميكيافيلي، ص 15.

المثل الوطنية، ولم ير فيهم سوى جماعة من الجبناء والمتآمرين خفية مع العدو، وهذا ما كان ميكيافيلي مقتنعا به في جميع التجارب التي عاشها مع هؤلاء المرتزقة. وفي عام 1500م تم اختيار نيقولا ميكيافيلي لمهمة دبلوماسية جديدة، وهذه المرة من أجل «التفاوض مع أحد أكثر الرجال نفوذا في أوروبا وهو الملك لويس الثاني عشر ملك فرنسا»¹ من أجل طلب العون من فرنسا للاستلاء على مدينة بيزا مرة أخرى، ويهمننا هنا ذكر أن ميكيافيلي قد نوه «في مراسلاته لرؤسائه أن الفرنسيين لا يحترمون إلا أولئك المتسلحين تمام التسليح أو أولئك الذين لديهم النية في الدفع، لكن بكل أسف افتقر الفلورنسيون إلى كلا الحالين»²، وفي هذا إشارة واضحة إلى أسباب القوة التي يرى أنها ضرورية لدولة فلورنسا إذا ما أرادت أت تحافظ على سلطتها على الأراضي التي تمتلكها، ومن جهة أخرى فقد كانت هذه الملاحظة نتيجة تفكير ميكيافيلي الطويل والعميق في أسباب وأوجه عجز حكومة بلده التي كانت تتكون في الغالب من أعضاء النقابات التجارية والصناعية، وكان يرى أنه لا أحد منهم يصلح للمنصب، فما كان يصلح للتجارة والصناعة لم يكن يصلح للسياسة بالضرورة، ولما كان «الرجال الذين تولوا هذا المنصب في قصر السيادة لفترات قصيرة، قليلي الخبرة أو المعرفة، أصبحت فترات توليهم للمنصب تنتهي دون أن يكتسبوا أية خبرات فعلية في الشأن العام... بل أيضا الافتقار المتأصل للمبادرة والاتجاه الواضح من جانب حكومة أضحت مغرمة بالتقوه بحكم جوفاء»³، إن هذا

1- روس كينج، ميكيافيلي فيلسوف السلطة، ص 36 و 37.

2- المرجع نفسه، ص 39.

أنظر كذلك: كوينتين سكينر، ميكيافيلي، ص 16.

3- روس كينج، ميكيافيلي فيلسوف السلطة، ص 38 و 39.

التشخيص لواقع حال الحكومة الفلورنسية هو الذي دفع ميكيافيلي للتوق إلى ظهور ملك قوي في إيطاليا يعيد لها مجدها ويخلصها من العجز الذي تعاني منه على مستوى الحكومات، ويعمل على إيجاد الحل المناسب لمشكلات الحكم والسياسة¹

إن ما زاد في ضعف المدن الإيطالية وعجز حكوماتها هو كثرة الصراعات بين المدن الإيطالية من جهة، وتفاقمها لتبلغ مستوى الحروب الدموية، والصراع العنيف والحروب داخل المدينة الوحيدة من جهة أخرى، ويمكن التمثيل عن الحالة الأولى بالطموح الذي دفع بعض قادة المدن الإيطالية للإغارة على بعضهم البعض من أجل التوسع، مثل ما فعله البابا ألكسندر السادس الذي أنزل «عقوبة الحرمان الكنسي بنواب كل من بيزارو وريميني وفانيسا متعللا بعدم دفعهم الجزية، ومعلنا مصادرة أراضيهم لصالح الكنيسة»²، هذه عينة من بين الكثير من الاعتداءات التي حدثت بين المدن الإيطالية، والأدهى من ذلك، أن أغلب حالات التوسع تتم بمساعدة الأجانب كالفرنسيين أو الإسبان.

أما عن الحالة الثانية، أي الصراعات داخل المدينة الوحيدة، فقد كان ميكيافيلي شاهدا على الصراعات الداخلية في فلورنسا، إذ كلف في عام 1501م بإحلال السلام بمدينة بستويا الخاضعة للحكم الفلورنسي والتي «كان يسودها صراع مستمر بين عائلتين مناوئتين هما آل كانسيليري Cancellieri وآل بانسياتيشي Panciatichi»³، هذا الصراع الذي كان يعبر عنه في اللغة الديوانية في فلورنسا

1- محسن محمد حسن، ميكيافيلي في الميزان، التفسير للنشر والإعلان، العراق، الطبعة الأولى، 2007، ص 17.

2- روس كينج، ميكيافيلي فيلسوف السلطة، ص 45.

3- المرجع نفسه، ص 47.

بنوبات الغضب، كان يخلف في كل مرة المئات من القتلى من الطرفين، لهذا كلف ميكيافيلي من أجل وضع حد وإنهاء تلك النزوات وإحلال السلام.

ومن الأمور التي جعلت ميكيافيلي فيلسوف للسلطة أنه لم يكتفي في هذه المهمة-وغيرها - بمعالجة الوضع وتحقيق ما طلب منه، بل عمل على تحديد مخاطر الوضع بصفة عامة ووصف الطريقة المثلى لفرض النظام داخل المدن وليس في بستويا فقط، كما أنه لم ينس نقد الطريقة التي تتبعها فلورنسا في ذلك، ومن نافلة القول أن نذكر أن ميكيافيلي لم يكون ليصل على نتائجه لو اقتصر فقط على التأمل نظري، ولكن مزج التفكير والتأمل بالتجربة الميدانية¹ التي تزيد عن عقد من الزمن قضاها في أداء مهامه الدبلوماسية والحربية أوصله إلى «شرح الطرق الثلاث البديلة لفرض النظام في مدينة منقسمة الفصائل... يمكن للمرء إما أن يعدم قادة الفصائل، أو ينفبهم خارج المدينة، أو يرغمهم على التوقف عن القتال وتوقيع اتفاقية سلام...والطريقة الأخيرة هي الأشد ضرراً فهي أقلها حسماً وأكثرها لا فاعلية... وقد لاحظ بأسى أن هذه هي الطريقة التي تتبعها فلورنسا... ويرى ميكيافيلي أن الطريقة المثلى لإحلال السلام هي الطريقة الأولى، وعلق بطريقة منتقدة قائلاً: لكن نظراً لأن مثل هذه الإجراءات الحاسمة تتطوي في ذاتها على شيء عظيم ونبييل، فلا يمكن لجمهورية ضعيفة أن تنفذها»²، واضح هنا تماماً أن ميكيافيلي قد أدرك خطر انقسام الفصائل داخل الدولة الواحدة، وأن ذلك يورث فيها

1- يذكر هنا أن فرانسيس بيكون (1561م - 1626م) يعتبر ميكيافيلي مفكراً سياسياً تجريبياً، وأن التجريبية كانت إحدى جوانب فكر ومنهج ميكيافيلي.

أنظر: محسن محمد حسن، ميكيافيلي في الميزان، ص 20.
2- روس كينج، ميكيافيلي فيلسوف السلطة، ص 48، 49.

الضعف والهوان وفيه هدر لطاقتها وصرفها لما يفسد أحوالها بدل من تحويلها إلى بناء قوة المدة التي تكسبها صرامة والحسم في اتخاذ القرارات بدلا من التردد والخوف التي تعيشه دولة ضعيفة مثل فلورنسا جراء صراعاتها الداخلية، وهذا يعكس وعي ميكيافيلي بخطورة ظهور الأمير بمظهر المتردد¹، وضرورة اتخاذ القرارات الجريئة والسريعة في الحرب وفي السياسة.

لم يكن هذا فقط ما استفاده ميكيافيلي من مهامه الدبلوماسية المتكررة داخل البلاد وخارجها، بل وسمح له ذلك بتطوير ملكة أو قدرة أخرى لديه، وهي ملكة الفراسة أو معرفة الرجال وتميز خصالهم وخاصة القادة والحكام، وهو ما كان له مع دوق رومانيا سيزار بورجيا الذي كان عدو لفلورنسا وبشكل خطر دائم عليها، لكن ذلك لم يمنع ميكيافيلي من الإعجاب به وبشخصيته، وقد وصفه ميكيافيلي بأنه في غاية الروعة والفخامة، وما لفت إعجابه فيه منذ البداية هو «عزيمته الصلبة وجسارته المدهشة ... في وقت الحرب تبدو كافة الأحوال الجسام هينة في ناظره، وفي سعيه نحو المجد والمكاسب لا يعرف طعما للراحة ولا يخشى الأخطار ولا يردعه التعب ... يحبه جنوده، وقد اجتذب حوله خيرة الرجال في إيطاليا، مما جعله قائدا منتصرا وجباراً»²، لكن هذه الملاحظات التي كان يعبر عنها ميكيافيلي في مراسلاته إلى رجال مجلس السيادة لم تكن تعني شيئا لهم بحكم أنهم رجال أعمال يفهمون في أمور التجارة وليس في فن الحرب.

1- كوينتين سكينر، ميكيافيلي، ص 16.

2- روس كينج، ميكيافيلي فيلسوف السلطة، ص 55.

بالرغم من أن هذا المجلس تفتن إلى ضرورة اكتساب أعضائه للخبرة اللازمة للممارسة السياسية، وعلى إثر ذلك قام بتغيير لقب رئيس الحكومة من حامل لواء العدالة إلى لقب حامل لواء العدالة مدى الحياة، وهذا من أجل السماح لمن يتولى هذا المنصب أن يستمر في مهامه لأطول مدة ممكنة، وهو ما يضيف على الجمهورية الاستمرارية والاستقرار اللازمين لها، ويكسب الحاكم الحكمة السياسية النابعة من الخبرة والتي تمكنه من ضبط أمور الدولة، إلا أن هذا لم يحل المشاكل السياسية التي تعاني منها مدينة فلورنسا، حيث إنها بقيت تتبع السياسة نفسها والمبنية على التلاعب بالألفاظ الجوفاء بدلاً من اعتماد الأفعال الحاسمة.

بالإضافة إلى ما سبق ذكره، نرى أن سيزار بورجيا هو من ألهم ميكيافيلي بفكرة تكوين جيش من المتطوعين يكون بديلاً عن المرتزقة الذين لا يثق فيهم، بحيث أنه لما توالى النكبات على سيزار بورجيا، وكان على وشك فقدانه الأراضي التي كسبها من قبل، في هذا الظرف بدأ بورجيا في «تجنيد ميليشيات من المواطنين لمواجهة المرتزقة المتمردين، مجندين رجلاً من كل منزل في القرى الرومانية المحيطة، إلى أن حشد في آخر الأمر جيشاً مؤلفاً من ستة آلاف رجل، ألبسهم زيّاً موحداً»¹، وقد انبهر ميكيافيلي بهذه الفكرة وكذلك بالنتيجة التي حصل عليها بورجيا وهي الجيش الذي كونه²، وأغلب الظن أن هذه الحادثة التي عاشها ميكيافيلي كانت هي حجر الزاوية للتوجه الذي تبناه فيما بعد والقاضي بضرورة تكوين وبناء جيش

1 - روس كينج، ميكيافيلي فيلسوف السلطة، ص 59.

2- أنظر: كوينتين سكينر، ميكيافيلي، ص 18.

وطني قوي يحل محل المرتزقة، ويقاوم باسم الوطنية وليس من أجل حفنة مال ، وقد أسهم هذا الأمر بشكل فعال في خلق الميليشيا التي كونها ميكيافيلي على هذا النحو في عام 1506م.

وعلى هذا النحو فإن معظم المهام الحكومية التي قام بها ميكيافيلي والتي عددها خمسة وثلاثون مهمة حكومية منها أربعة في فرنسا¹، كانت تمثل مناسبة له لكي يعيش ويعاين بأم عينه الحيل والخداع ونقض الاتفاقيات - حتى قبل أن يجف حبرها على الورق - بين قادة المرتزقة ورؤساء الدول والأمراء وحتى الباباوات ورجال الدين الذين يفترض أنهم أهل فضائل وأخلاق، وكان موقف ميكيافيلي من هذه الممارسات - وهو موقف لم يكن يخفيه - هو ما سبب له كراهية الناس لشخصه في زمانه ولأفكاره في الفترات اللاحقة²، على اعتبار لأنه لم يقف موقف دانتلي في الكوميديا الإلهية والذي أدان فيها الطرق الملتوية التي يسلكها الساسة، فنجده يقول: «إن الخطايا تتفاوت في خطورتها، فالعنف والخيانة أشد من سائر الخطايا، لذلك فإن مكانهما في أعماق الجحيم»³، أما ميكيافيلي وعلى العكس من ذلك، فقد رأى أن «الأمراء يجيب أن يعرفوا كيف يكونوا كاذبين ومخادعين»⁴، معتبرا أن هذه

1- مجموعة من المؤلفين، قاموس الفكر السياسي، الجزء الثاني، ترجمة: أنطوان حمص، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، دمشق، 1994، ص 211.

2- بحيث منعت الكنيسة كل أعمال ميكيافيلي من النشر من سنة 1557 م إلى غاية 1850م، أي لفترة تزيد عن ثلاثة قرون، وحتى بعد انتشار فكر ميكيافيلي بقي اسمه مرتبط بمذهب سياسي سيء الصيت. أنظر: مجموعة من المؤلفين، قاموس الفكر السياسي، الجزء الثاني، ترجمة: أنطوان حمص، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، دمشق، 1994، ص 212، 213.

3 - دانتلي أليجييري، الكوميديا الإلهية، الجحيم، ترجمة: حسن عثمان، دار المعارف، مصر، الطبعة الثالثة، 1988م، ص 196.

4 - روس كينج، ميكيافيلي فيلسوف السلطة، ص 71.

الصفات هي فضائل يجب أن يتحلى بها الأمير في معاملته مع أئداده من الحكام والرؤساء، وهي دليل على حكمة وقوة الأمير.

الواقع أن ميكيافيلي كان شديد الولع بكل الساسة الأقوياء، فقد كان منبها **بسيزار بورجيا**، ثم أصبح منبها **بالبابا يوليوس** الذي أزاح بورجيا من الساحة السياسية معتمدا على نفس أساليب هذا الأخير، وفي هذا دلالة على أن ميكيافيلي لم يكن منبها بالمناصب ولا بالأشخاص، بل إن ما كان يبهره هو القوة والأفكار والأساليب وطرق الإمساك بزمام السلطة والمحافظة عليها لأطول فترة ممكنة، كما أنه كان يلاحظ ويتساءل عن أسباب سقوط الدول والإطاحة بقادتها في صورة سيزار بورجيا.

وقد اعتمد في بحث الإجابة عن هذا التساؤل على الوسائل المتاحة في زمانه، بما في ذلك علم التنجيم الذي كان واسع الانتشار في الأوساط السياسية في أوروبا، وهنا ظهرت في ذهن ميكيافيلي تساؤلات فرعية أخرى من قبيل «هل كتب مصير الحكام (بورجيا) في النجوم؟ وعليه لم يكن هناك مناص من هزيمته؟ هل الإنسان أشبه بدمية لا حول لها ولا قوة، تتحكم فيه قوى من عالم آخر تحدد مصيره سلفا أم يمكن أن يعارض الإنسان هذه التأثيرات السماوية ويمارس حرية الإرادة والتصرف»¹، أدى تزام هذه التساؤلات في ذهن ميكيافيلي للاهتمام إلى إجابة مفادها أن النجوم ليس لها أي تأثير أو «سيطرة على الفضائل الذهنية والأخلاقية² التي تسمى مقتنيات الروح»¹ وقد تواتر هذا الرأي من أرسطو حتى توما

1- روس كينج، **ميكيافيلي فيلسوف السلطة**، ص 72.

2- أشار **بارتولوميو فيزبوتشي Bartolomeo Vespucci** صاحب كتاب: **في تمجيد علم التنجيم**، نقلا عن أرسطو الذي ناقش في بحثه الأخلاق العظيمة أن النجوم لديها القدرة على السيطرة على مقتنيات

الإكوبيني، واقتبسه أساتذة علم التنجيم في زمن ميكيافيلي، مرددين أن «كافة القدمات قد أجمعوا على أن الإنسان الحكيم هو القادر على أن يغير بنفسه تأثيرات النجوم»²، والمقصود بتغيير الفضائل الذهنية والأخلاقية هو أن الإنسان له حرية التفكير وحرية الفعل والقدرة على اختيار سبيله في الحياة، وذلك اعتماداً على الظروف المحيطة به والأسباب المتاحة له، وعليه وحسب ما فهمه ميكيافيلي من المنجمين فالإنسان هو سيد مصيره.

في أواخر عام 1504 م وبعد حالة الخوف والهلع التي خلفها زحف جيش بارتولوميو دالفياتو وهو أحد قادة المرتزقة على فلورنسا، من أجل الإطاحة بحكومة فلورنسا وإخضاعها للهيمنة الإسبانية بإعادة عائلة آل ميديتشي إلى السلطة، في هذه الأجواء كتب ميكيافيلي قصيدة في الشعر السياسي أسماها **العقد الأول**، وقد سرد فيها الأوقات العصيبة التي عرفت إيطاليا على مدار العقد الأخير، وحملت هذه القصيدة في نهايتها نزعة تفاؤلية، إذ رأى ميكيافيلي أنه يمكن للإيطاليين مرة أخرى أن يمسكوا بزمام شؤونهم الخاصة، لكن بشرط أن «يفتحوا ثانية معبد الإله مارس إله الحرب»³، وبهذه الاستعارة يحث ميكيافيلي الإيطاليين على أن يتوقفوا عن الاستعانة بالمرتزقة الخائنين ويعولوا على أنفسهم في الحرب، وبالأخص على

الإنسان الخارجية مثل الوالدين والأصدقاء والثروة والقوة البدنية ومظهر الفرد، إلا أنها ليس لديها أدنى سيطرة على الفضائل الذهنية والأخلاقية التي دعاها مقتنيات الروح.

أنظر: روس كينج، **ميكيافيلي فيلسوف السلطة**، ص 73.

1- المرجع نفسه، ص 73.

2- المرجع نفسه، ص 73.

3- المرجع نفسه، ص 85.

الميليشيات التي تتكون من أبناء بلادهم¹، وكان هذا النصح يزيد عن كونه مجرد فكر أدبي بل تعداه إلى أن أصبح خطة حكومية جسدها واقعا فيما بعد.

وكما أوضحنا سابقا فإن ميكيافيلي كان مقتنعا تماما بفشل سياسة حكومته التي بددت ثروة فلورنسا في الإنفاق على المرتزقة الذين لم يجلبوا لها سوى الخزي والعار، فقد رأى أنه من غير المقبول أن تضع جمهوريته جل مداخلها في ايدي رجال لا يعرفون الولاء والاستقامة، بل عرفوا في مقابل ذلك بما أطلقوا عليه اسم صفقات بيع الولاء، وهو الامر الذي أقام عليه ميكيافيلي موقفه من دور المال في الحرب²، ولم يكن في الوسع مجادلتة في موافقه هذه المبنية على التجارب والممارسات الواقعية التي سمحت له بمشاهدة وبوضوح تام إحباطات جمهوريته نتيجة جشع وخيانة ونفاق وضعف وجبن قادة المرتزقة، وهو واقع يقتضي حسيبه ضرورة اجتناث كل أنواع الاتكال على هؤلاء المرتزقة المجردين من المبادئ الأخلاقية، ولكن المعضلة التي واجهت ميكيافيلي هي ضرورة إيجاد بديل للحصول على الجنود والأسلحة التي سوف تشكل البديل لهؤلاء المرتزقة.

لم يكن أمام ميكيافيلي من حل لهذه المعضلة سوى صنع ما صنعه سيزار بورجيا حين شكل ميليشية «مؤلفة من رجال يقاتلون في سبيل وطنهم ومن أجل حماية بيوتهم ومزارعهم وأسرهم وليس لغرض الحصول على المال أو النهب»³، وهذه الفكرة كانت قد عرفتها فلورنسا في منتصف القرن الثالث عشر

1- أنظر: ميشيل سينيلا، الميكيافيلية وداعي المصلحة العليا، ترجمة: أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت الطبعة الثانية، 2002، من ص 52 إلى ص 57.

2- المرجع نفسه، ص 87.

3- روس كينج، ميكيافيلي فيلسوف السلطة، ص 90.

ميلادي بحيث «كان لفلورنسا نفسها ميليشيا قومية من أبنائها وهو الأمر الذي كان ميكيافيلي يعلمه جيدا»¹، ومهما كانت النقائص والعيوب التي أدت إلى التخلي عن هذه الميليشيات في بداية القرن 15م، فإن ميكيافيلي رأى أن منطق الدولة يفرض ضرورة ظهورها من جديد لأنها تسمح بوقوع مسؤولية حماية الدولة وتحقيق رخائها على عاتق مواطنيها، وبالتالي فهي أمر في غاية الضرورة والسداد.

وبالفعل، ففي عام 1505م «خول حامل لواء العدالة ومجلس السيادة السلطة لميكيافيلي كي يشرع في تجنيد جيش من المواطنين ... وفي عام 1506م أسس الجيش»²، وقد أخضع هذا الجيش لنظام صارم وذلك من أجل تحقيق الانضباط وتفادي الفرار أو التخلف عن الالتحاق بالجيش، وفي مقابل ذلك منح أفراد الجيش بعض المزايا كالتمتع «بإعفاء تلقائي من أي ديون تحت السداد أو من أي تهمة جنائية»³، وكافت هذه الميليشيا بالطواف بفلورنسا من أجل نشر الأمن وتطهيرها من اللصوص والمتمردين ومثري الشغب والمتاعب، هذا الأمر بعث الشعور بالرضى في نفوس أفراد الشعب والساسة، إذ تلقى ميكيافيلي رسالة تهنئة من حامل لواء العدالة مدى الحياة يقول له فيها: «يجب عليك أن تشعر بالفخر إذ ولد مثل هذا الشيء على يديك، فأرجو أن تصونه إلى أن تصل إلى الغاية المرجوة»⁴، هذه الغاية هي تحقيق الأمن الداخلي والخارجي لفلورنسا.

1- روس كينج، ميكيافيلي فيلسوف السلطة ، ص 90.

2- المرجع نفسه، ص 91.

3- المرجع نفسه، ص 93.

4- المرجع نفسه، ص 94.

بعد حوالي ست سنوات قضاها ميكيافيلي بين العمل الدبلوماسي من جهة وتدريب جيشه من جهة أخرى، انتهى في عام 1512م من «تكوين جيش من أحد عشر ألف جندي من المشاة وخمسمائة فارس»¹، وفي العام ذاته تم اختبار هذا الجيش بعدما زحف على فلورنسا جنود الإسبان الذين دفع لهم آل ميديتشي من أجل إسقاط الجمهورية واستعادة العرش، وبالفعل وبعد حصار يدم طويلا سقطت مدينة براتو²، بحيث فشل جيش ميكيافيلي وسقط حلمه، وظهر للعيان أن هذا الجيش الوطني من الناحية العملية ليس أحسن ولا هو أجدر بالثقة من جيش المرتزقة عديم الأخلاق والمبادئ، وفي 30 أوت من عام 1512م ظفر جوليانو دي ميديتشي بفلورنسا، وأسقط حكم بيرو سورديني الذي غادرها إلى المنفى، أما ميكيافيلي فقد جرد «على الفور تجريدا كليا من كافة صلاحياته، فقد نزعنا أسلحة ميليشيته وسرحت، وحل كذلك مجلس التسع المسؤولين عن المدفعية والميليشيات الفلورنسية»³، وليس هذا فقط، إذ بعد عدة أشهر من عزله وفي بداية عام 1513م تم سجنه بتهمة المشاركة في مؤامرة اغتيال جوليانو دي ميديتشي وتعرض للتعذيب وحشي في سجنه، لكنه لم يعترف أنه مذنب، وتم الإفراج عنه في شهر مارس من نفس العام بعد عفو عام، وظل بعد ذلك لفترة طويلة يناشد بطرق شتى عائلة الميديتشي كي يحظى بفرصة عمل في بلاطهم، لكن دون جدوى، وهذا ما أنزل على ميكيافيلي حالة إحباط شديد، هذه الحالة يمكن لمسها في قصائده

1- روس كينج، ميكيافيلي فيلسوف السلطة، ص 142.

2- أنظر: كوينتين سكينر، ميكيافيلي، ص 27.

3- روس كينج، ميكيافيلي فيلسوف السلطة، ص 148.

وأشعاره¹ التي كتبها في هذه الفترة في مناسبات احتفالية مختلفة، إذ كانت تحمل مشاعر «تشويها الكآبة وتشير إلى أن ميكيافيلي كانت آماله تخيب باطراد»²، هذه الحالة من الضجر واليأس دفعته إلى العزلة في إحدى القرى على مشارف فلورنسا، حيث تفرغ للتأمل الفكري والنشاط الثقافي، وانصرف لقراءة أعمال العظماء من أمثال الإسكندر الأكبر وزينوفون وبوليوس قيصر وغيرهم³، وبعد ذلك بدأ في التأليف في بعض المواضيع مثل «أفعال الرجال وطرقهم في صنع الأشياء»، وكذلك قدم دراسة قصيرة بعنوان «حول الإمارات» ويعد هذا «أول مرجع معروف لعمل ميكيافيلي الذي سيتحول فيما بعد إلى كتاب الأمير»⁴، الذي يدور حول موضوع فن الحكم ويقدم فيه تعليمات عن كيفية حكم الإمارات، وكان قصد ميكيافيلي من وراء تأليف هذا الكتاب هو إهدائه إلى آل ميديتشي من أجل التيسير له للعودة إلى الحياة السياسية في فلورنسا، لكن الميديتشيون رفضوا وبازدراء أفكار ميكيافيلي السياسية ونصائحه للأمرء بناءً على تاريخه السياسي، ولكن أهل الفكر والفلسفة والأدب الذين كانوا يجتمعون في نادي أورتي أوريتشلاي **Orti** و**Oricellari** كانوا يتلهفون لسماع حديثه عن الأفكار التي ضمنها مؤلفاته السابقة، هذا الأمر هو ما دفع ميكيافيلي إلى إعادة قراءة تاريخ الجمهورية الرومانية باحثاً عن أسباب نجاحها ومن ثم سعى إلى تأليف كتاب جديد هو

1- يقول في إحدى قصائده بعنوان *أنشودة النفوس المباركة*:

لذا إن ضحكت أو تغنيت بين الفينة والفينة

فإني أفعلها لأنه ما من طريقة أخرى

لأنفس بها عن دموعي المريرة.

2- روس كينج، *ميكيافيلي فيلسوف السلطة*، ص 163.

3- أنظر: محسن محمد حسن، *ميكيافيلي في الميزان*، ص 14.

4- روس كينج، *ميكيافيلي فيلسوف السلطة*، ص 169.

«المطارحات» الذي يدور حول موضوع كيفية تأسيس جمهورية مزدهرة والحفاظ عليها، لذلك كان هدف ميكيافيلي منه هو «تفسير القوانين العامة لفن الحكم»¹، ويؤسس هذا الفن على التسليم بمبدأ أن الإنسان لا يمكنه أبداً التخلص من حالته الطبيعية التي فطر عليها، كما أنه لا يستطيع أن يحمي ذاته من عاداته أو من طبيعته.

في عام 1520 م، وبأمر من ليو العاشر ورئيس الأساقفة كلف ميكيافيلي بكتابة تاريخ فلورنسا، هذا الأمر وضعه «بين مصاف مؤرخي الجمهورية الفلورنسية المشاهير»²، وفي العام ذاته كان قد أنتهى من تأليف كتاب «فن الحرب» وهو الكتاب الوحيد الذي نشر في حياته، وكان ذلك عام 1521م، ويعتبر هذا الأخير خلاصة مناقشات ميكيافيلي في نادي أورتي أورتشيلاي، وكغيره من مؤلفاته نجد فيه الكثير من الحنين إلى القوة والمجد الذي كان يسود الجمهورية الرومانية³، ويهدف إلى إعادة إشعال روح المحارب الروماني في صدور الإيطاليين، أما من الناحية التقنية فيمكن تصنيف هذا الكتاب في مقام كتب التنظيم العسكري.

بعد اتمامه لكتاب «تاريخ فلورنسا» عام 1525م، عاد ميكيافيلي إلى الممارسة السياسية، بحيث كلف من طرف آل ميديتشي ببعض المهام الدبلوماسية

1- روس كينج، ميكيافيلي فيلسوف السلطة، ص 195.

2- المرجع نفسه، ص 215.

3- ميشيل سينيلار، الميكيافيلية وداعي المصلحة العليا، ص 57.

داخل إيطاليا، ولكنها لم تكن في مستوى مهامه التي نفذها كمستشار ثاني في عهد بيرو سورديني، وبعد سقوط روما في يد الإسبان عام 1527م وسقوط حكومة آل ميديتشي التي تلهف ميكيافيلي لعدة سنوات ليعمل في خدمتها، في هذه الظروف العصبية أصيب نيقولا ميكيافيلي بمرض في معدته وصداع في رأسه ألزمه الفراش حتى النهاية، «وقد جاءت هذه النهاية سريعاً، ففي مستهل فصل الصيف في الحادي والعشرين جوان قضى ميكيافيلي نحبه ودخل - كما هو مرجو - بلاط القديس الموقر»¹، دفن في الثاني والعشرين جوان إلى جانب والده في كنيسة سانتا كروتشي في فلورنسا، «وبعد مضي أكثر من قرنين وبالتحديد في عام 1787م بنى له إينوسنزو سبنازي مقبرة فخمة جديدة في الجناح الجنوبي من الكنيسة وعلى بعد خطوات من مقابر مايكل أنجلو وجاليليو وليوناردو برونو، يظهر نصب تذكاري من الرخام يصور شخصية رمزية لدبلوماسي، ويعلو النصب النقش التالي: ما من رثاء يمكنه أن يوفي هذا الرجل حق قدره»²، إذا كان هذا النقش هو اعتراف بالقيمة العلمية والسياسية والأدبية للرجل³، فإن كتابات المختصين متباينة ومتضاربة بشأنه، وهذا بسبب فكره البالغ التعقيد والمتناقض في بعض الأحيان وهو ما أفضى إلى عدد ضخم من التفسيرات لأفكاره ومواقفه، ويرجح أن سبب هذا الغموض والتعقيد يعود أساساً إلى طبيعة ميكيافيلي وتكوينه، فهو دبلوماسي وكاتب مسرحيات وشاعر ومؤرخ ومنظر سياسي ومزارع ومهندس عسكري وقائد ميليشية عسكرية، وهو بذلك نموذج مثالي لمفكري عصر النهضة.

1- روس كينج، ميكيافيلي فيلسوف السلطة، ص 257.

2- المرجع نفسه، ص 266.

3- محسن محمد حسن، ميكيافيلي في الميزان، ص 17.

3- الخلفية التاريخية لفكر لميكيافيلي:

إن اقتران التجربة العملية لميكيافيلي في المجال السياسي مع طبيعة تكوينه العلمي وُلد لديه شغف بالمعرفة التاريخية بصفة عامة، وبالتاريخ الإيطالي بصفة خاصة بشقيه القديم المتمثل في تاريخ الجمهورية الرومانية والتاريخ الإيطالي المعاصر له والخاص بمختلف المدن الإيطالية، فتجربته السياسية في العمل الدبلوماسي سمحت له بالوقوف على ماهية وطبيعة المشاكل الداخلية والخارجية التي تعاني منها المدن الإيطالية وخاصة مدينة فلورنسا، وبعد إبعاده عن الممارسة السياسية، استغل فترة عزله في ريف فلورنسا في بلورت وتشخيص هذه المشاكل، وكذلك كانت هذه الفترة سانحة له للعودة إلى التاريخ القديم ومسألة القدماء في بلاطهم الموقر عن الحلول الملائمة للمشاكل التي تعاني منها إيطاليا في زمنه.

إن الهدف المعرفي الذي سعى إليه ميكيافيلي من وراء المزج بين تجربته السياسية والدروس التي يمكن استخلاصها من التاريخ هو «تحقيق درجة أكبر من اليقينية في تحصيل المعرفة السياسية، التماساً ليس لعلوم السياسة بل للتربية السياسية¹، فهو يستند إلى أفعال الحكام والقادة الكبار في الماضي ونجاح

1- علم السياسة: هو العلم الذي يبحث في كيفية إدارة شؤون الدولة وأسلوب ممارسة السلطة، أو هو العلم الذي يبحث في أوضاع وموازين القوة وكيفية عكس مكونات ومظهر القوة نفسها على العلاقات بين الأفراد والفئات الاجتماعية، ويعرف كذلك على أنه العلم الذي يبحث في كيفية صنع القرارات الجماعية.

الجمهورية الرومانية، والدروس التي يمكن تعديلها بحسب الظروف»¹، هذه اليقينية في المعرفة السياسية تتجسد في إثراء المدركات عن الدولة والمجتمع والفرد وتحديد القيم المتعلقة بالذات والآخر سواء كان فرد أو مجتمع أو كل العالم، بالإضافة إلى اكتساب المهارات التي تسمح بتكوين الفرد الصالح والنشط والفعال في المجتمع، هذه العناصر يمكن استخلاصها - حسب ميكيافيلي - من الدروس التاريخية التي تقدمها لنا نماذج الدول الناجحة مثل الجمهورية الرومانية، لكن هذه الدروس تبقى قابلة لتعديل حسب الظروف الجديدة في حال ما لم تكن ملائمة تماماً معها.

حين يركز ميكيافيلي على التاريخ لحل مشاكل الحاضر فإنه يشبه الجسم السياسي أو الدولة بالجسم الإنساني كما سيفعل توماس هوبز فيما بعد في كتابه الليفيتان، فميكيافيلي «يشبه رجال الدولة بالأطباء الذين يُلجأ إليهم لمعالجة اضطرابات سياسية»²، وعليه فلا مناص إذن من تشبيه الأمراض التي تصيب الجسم السياسي بتلك التي تصيب جسم الإنسان، ويقع على المشكلات السياسية ما

التربية السياسية: هي أداة لإثراء رأس المال البشري السياسي للمواطن، بمعنى إثراء المدركات والقيم والمهارات السياسية وفق ما يلي:

- مدركات عن الدولة والمجتمع والفرد.

- القيم المتعلقة بالذات والآخر والمجتمع والعالم.

- المهارات في تكوين المواطن النشط والفعال في المجتمع.

أنظر: فيليب إسكاروس، مذهب جديد في السياسة والتربية، ترجمة: عصام قمر، المكتبة العصرية، مصر، ص 89 و 90.

1- دايفد باوتشر، النظريات السياسية في العلاقات الدولية، ترجمة: رائد القاقون، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2013، ص 188.

2- المرجع نفسه، ص 188.

يقع على المشكلات الصحية التي تصيب بدن الإنسان، بحيث إن الاكتشاف المبكر للمرض يكون في غاية الصعوبة ولكن إن حدث وتم اكتشافه فإن علاجه يكون يسيراً، والعكس صحيح، فالأمراض المستقلة تكون سهلة التشخيص ولكن علاجها أمر عسير، ويرى ميكيافيلي أن اكتشاف الأمراض التي تصيب الجسم السياسي في بدايتها تحتاج إلى سياسي بارع له القدرة على استشراف المستقبل، وهو ما يسمح له بكشف المبكر للمشاكل السياسية في الدولة، ويتعامل معها بالفعالية المطلوبة قبل أن تصبح عصية على العلاج وتعرض حياة الدولة للخطر، فالاستشراف أو التبصر كما يسمه أرسطو ينتج من سبيلين أحدهما هو الخبرة التي يكتسبها السياسي من الممارسة، والثاني هو مراجعة الحوادث التاريخية المماثلة وتفسيرها والبرهنة على مقاصدها السياسية، من نافلة القول ذكر أن الاستشراف يسمح للسياسي باقتصاد الجهد أو اقتصاد العنف المشرع.

يتأسس اعتقاد نيقولا ميكيافيلي بإمكانية استخلاص العبر والدروس من التاريخ القديم والحديث للدول وخاصة الجمهورية الرومانية على فكرة الثبات الذي يميز الطبيعة البشرية، يقول في كتاب المطارحات: «كل ما يحدث في العالم في أي وقت كان يملك شبيهاً حقيقياً لما يحدث في الأزمنة الغابرة، وهذا يعود إلى واقع أن البشر هم الأدوات التي سببت تلك الأحداث، وأن البشر يملكون ولطالما ملكوا الأهواء ذاتها، ولذلك يحدث أن تتأتى التأثيرات ذاتها»¹، وإلى جانب قوله بثبات الأهواء البشرية، نجده يقر بثبات الفضائل والقدرة أو الحظ، وفي مقابل ذلك يرى أن

1- نيقولا ميكيافيلي، المطارحات، ترجمة: خيري حماد، منشورات دار الافاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1982، ص 370.

البشر يختلفون من حيث القريحة والخيال، وهذا الاختلاف أو التنوع هو الذي يؤدي في الظروف ذاتها إلى نجاح البعض وإخفاق البعض الآخر في مهام متشابهة.

يتشكل مضمون وماهية الأهواء البشرية حسب ميكيافيلي من الغيرة والحسد والخمول والكراهية والقسوة والعنجهية والمكر والضجر والتذمر وغيرها من الأهواء والعواطف التي يقابل بها البشر بعضهم البعض، والتي تدل على النظرة التشاؤمية لميكيافيلي تجاه الطبيعة البشرية، وهي تتفق تماما مع نظرة توماس هوبز لاحقا، ولكن ميكيافيلي يركز بشكل خاص في تحليله للطبيعة البشرية على الرغبة والطموح، فالبشر حسبهم مفطرون على الرغبة في الحصول على كل شيء، خاصة الحصول على أكبر قدر من الحرية، يقول: «الناس ينشدون التحرر ويرغبون في الحرية»¹، هذه الرغبة يتولد عنها شيء آخر في الطبيعة البشرية وهو الطموح، فالبشر ينتقلون من طموح إلى آخر حسب ميكيافيلي، لأنهم يعتقدون أنه لا يمكنهم ضمان ما يملكون إذا لم يحصلوا على المزيد ولو على حساب الآخرين، وهذا يشكل سببا كافيا لقيام الحرب بين الجماعات البشرية.

لهذا السبب يجادل ميكيافيلي بأن أولى الجماعات البشرية تكونت بفعل توحيد أفرادها من أجل غرض أسمى هو تحقيق أمن الجماعة «ومن أجل هذا الهدف انتخبت رجلا قويا وشجاعا لقيادتها، وإن التهديدات التي طالت سلامة هذا الرجل، هي بالتالي أمن للجماعة، وقد أنشأت تميزاً بين الطيبة والصدق من جهة والخبث

1- نيقولا ميكيافيلي، المطارات، ص 370.

والخيانة من جهة أخرى، وأولئك الذين شكلوا تهديدا وقع عليهم اللوم والتوبيخ، وأولئك الذين كانوا مقربين بالجميل لقائدهم علانية كانوا يحظون بالثناء والاحترام»¹، يفهم من هذا أن ميكيافيلي يسلم بأن الغرض الأول الذي تشكلت من أجله الجماعات البشرية هو الحرب الدفاعية، فهم انتخبوا أقوى الرجال من أجل الدفاع عن الجماعة وتحقيق أمنها، ولكنه يرى أن هذه الجماعات البشرية أصبح عليها الآن واجب القيام بالحروب الخارجية من أجل الحفاظ وتعزيز الصالح العام للدولة والمتمثل في أمنها.

يستنتج من هذا أن الدول مثل الأشخاص تتحفز بالطموح والرغبة الملحة في الهيمنة على بعضها البعض، وهذا بسبب الحسد والكراهية المتبادلة فيما بينها وعليه، فميكيافيلي لا يجد حرجا في القول بجواز استعمال المكر والخداع والمكائد ضد الدول الأجنبية من أجل تحقيق الأمن الداخلي والخارجي وبعبارة أخرى، فالحرب مسموح بها إذا كانت تضمن الصالح العام للدولة، على أنه يمكن القول وعلى نقيض ما قاله ميكيافيلي أن الدول تتحارب ليس بسبب الأهواء التي ذكرها، بل لأسباب أخرى اقتصادية وثقافية يمكن تصنيفها ضمن الصالح العام للدولة.

إن هذه الحروب أو المغامرات الخارجية التي تقوم بها الدولة من أجل مصالحها لا تكون مرتبطة بالحق بقدر ما تكون مرتبطة بحكمة الساسة والقدرة على الحرب والموثوقية أو امتلاك القوة اللازمة لها، فهذه الشروط هي شروط موضوعية وليست أخلاقية، وقد لاحظ ميكيافيلي كما سبق ذكره أن الدول الإيطالية كانت تفتقر

1- دايفد باوتشر، النظريات السياسية في العلاقات الدولية، ص 193.

لهذه الشروط اللازمة لتحقيق النجاح في ضمان أمنها، وهو الأمر الذي جعلها خاضعة دائماً في زمنه للقوى الأجنبية، لذا فقد كان كل همه هو استرجاع أمجاد الجمهورية الرومانية وهذا هو السبب المباشر الذي دفعه للبحث عن أسباب نجاح دول القدماء مثل مقدونيا تحت قيادة فيليب المقدوني أولاً ثم الاسكندر الأكبر ثانياً، وكذلك الجمهورية الرومانية التي استحوذت على إعجاب ميكيافيلي، وسنعرض أهم العناصر التي اعتبرها السبب المباشر في ازدهارها.

3-1- تجربة جمهورية روما:

أعجب ميكيافيلي بجمهورية روما، واعتبرها نموذجاً يحتذى به، خاصة في مرحلة بناء دستورها ومختلف أجهزة الدولة فيها، إذ رأى «أنه من واجب أولئك الذين يرغبون في أن يحكموا حكماً طيباً، وأن يحاربوا ببسالة وشجاعة لإقامة إمبراطورية أن يدرسوا بإمعان وعناية ما فعله الرومان، وأن يفهموا الفضائل التي يمكن أن يعزى إليها نجاح روما»¹، يفهم من هذا أن ميكيافيلي قد أعجب بمجموعة من الخصائص التي شكلت قوة روما وجعلت منها أطول إمبراطورية عمراً في التاريخ، ويمكن تحديد هذه الخصائص فيما يلي:

- شكل حكومة جمهورية روما والذي يحدده دستورها في العهد الجمهوري.
- إتقانها لفنون الحرب والتنظيم العسكري وتركيبية قواتها المسلحة.
- نهج توسعها.
- فضائل حكامها وطرق استغلالهم للدين لسياسة الدولة والمجتمع.

1- ليسلي ووكر، من مقدمة: نيقولا ميكيافيلي، المطارات، ص 82.

لذا نجد ميكيافيلي قسم كتاب المطارحات إلى ثلاثة أقسام رئيسية، ركز في القسم الأول على القرارات التي اتخذتها روما فيما يخص الشأن الداخلي، وركز في القسم الثاني عن الإجراءات التي اتبعتها روما للتوسع الخارجي، أما القسم الثالث فقد خصصه لذكر الأعمال التي أسهم بها حكام روما في عظمتها، ونحن سنحاول التركيز على ما يبرز موقف ميكيافيلي في موضوع الحرب وعلاقته بمسألة التنظيم السياسي.

3-1-1- حكومة ودستور روما:

عند قيام النظام الجمهوري في روما في عام 509 ق م إثر سقوط النظام الملكي، «سمي النظام الجديد باسم Respublica أي ترجمة حرفية للمصطلح **الشيء العام**»¹، فهو النظام الذي يهتم بأمر العامة من الناس أو الأغلبية العظمى من الشعب، في مقابل النظام الملكي الأرستقراطي السابق الذي كان يعنى بمصالح الأغنياء والنبلاء والأشراف فقط، وقد تجسد هذا النظام في الدستور الذي حمل العديد من التغيرات مقارنة بالنظام السابق، يمكن تلخيصها فيما يلي:

- تم الإبقاء على «سلطة الإمبريوم، ولكن تم إعطاؤها لحاكمين إثنين... ولمدة زمنية محددة بسنة واحدة... وكان الشعب كله يشارك في انتخابهما داخل

1- محمود إبراهيم السعدني، **حضارة الرومان**، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، الطبعة الأولى، 1998، ص 75.

الجمعية الشعبية التي كان لها صلاحية إعلان الحرب وإبرام السلام مع أعداء روما»¹، وجدير بالذكر أن مكان انعقاد اجتماعات الجمعية الشعبية كان في ميدان الحرب في ساحة الإله مارس إله الحرب.

- أبقى النظام الجديد على مجلس الشيوخ أو السيناتوس Senatus، فهذا «المجلس المبجل للشيوخ وكبار شخصيات المجتمع الروماني ظل قائماً، يباشر أعماله كهيئة استشارية وليست تنفيذية أو تشريعية»²، وهذا المجلس كان يمثل الطرف الأرستقراطي في الجمهورية الرومانية.

- تم إدخال وتسمية وظائف جديدة³ في مجال الوظائف العامة لغرض «ضمان تأدية كل مواطن لواجباته تجاه الدولة من المشاركة في تأدية الخدمة العسكرية (الالتحاق بالجيش) ودفع الضرائب، كل حسب ثروته وقيام المسؤولين في الدولة بواجباتهم تجاه المواطنين في كافة الأمور»⁴، وهذا فيه دلالة واضحة على الصبغة الديمقراطية للنظام الروماني الجديد.

جلب هذا الدستور اهتمام ميكيافيلي، بحكم أنه قد دمج فيه المشرع «تشريعياً عناصر الملكية والأرستقراطية والديمقراطية، وهو ما أحدث توليفة من الطبقات الاجتماعية التي شكلت النسيج الاجتماعي الأمثل»⁵، وبذلك نجحت العامة

1- محمود إبراهيم السعدني، حضارة الرومان، ص 75 و76.

2- المرجع نفسه، ص 77.

3- من الوظائف الجديدة التي تم إضافتها نذكر على سبيل المثال: نقيب العامة Tribunos، أمين الخزينة العامة Quaestor، الرقيب Ceusor، مسؤول الأمن والتجارة Aedilis، الحاكم القضائي Praetor.

4 - المرجع السابق، ص 77.

5- دايفد باوتشر، النظريات السياسية في العلاقات الدولية، ص 204.

في وضع حد لمشاكلهم ولاستتثار النبلاء بكل الامتيازات دونهم، وعليه فإن هذا الدستور قد سمح بالقضاء على الصدمات العنيفة بين الطبقات الاجتماعية في المجتمع الروماني وخاصة بين طبقة النبلاء وطبقة العامة من الناس، وهو ما يسمح بتحقيق الأمن الداخلي والاستقرار السياسي الضروريين لتطور الدولة وازدهارها.

لكن ميكيافيلي يرى أن هذا الدستور لم يكن لينجح في خلق هذه التوليفة من الطبقات الاجتماعية ويحقق السلم الاجتماعي لولا صلاح الشعب الروماني وتدينه وولائه لوطنه، فهذا في رأيه ما سهل على حكام روما مهمة تسيير شؤون الدولة، وفي مقابل ذلك يقول إن إيطاليا في زمنه كانت على عكس ذلك تماما، فقد كان يعمها الفساد في جميع المستويات، لذا نجده يشدد على ضرورة تعامل الحكام بصرامة مع أفراد الشعب الفاسدين والعصاة، ويصف حال هؤلاء بقوله: «لقد كانوا كحشد كبير قوة شرسة، ولكنهم كأفراد كان الواحد منهم يمتلكه الخوف فيسارع إلى الطاعة»¹، وفي هذا دلالة واضحة لدور الصرامة في تطبيق القانون في إصلاح الشعوب، لكن هذه الصرامة تحتاج إلى قوة لتنفيذها، هذه القوة تتمثل في نظر ميكيافيلي في القوة العسكرية للدولة، ويدل على ذلك اعتقاده أن القوانين مهما كانت جيدة تبقى مجرد حروف إن لم تجد سلاحا يدعمها، لذا فهو يفضل السلاح الجيد عن القوانين الجيدة.

1- نيقولا ميكيافيلي، المطارات، ص 404.

3-1-2- نهج روما التوسعي:

الخاصية الثانية من خصائص روما والتي أعجب بها ميكيافيلي هو نهجها التوسعي، الذي يشتمل على التوسع في الأراضي من جهة والاستزادة في عدد الجال والمواطنين من جهة أخرى، وهذا من أجل هدف أساسي وهو تحويل المدينة إلى إمبراطورية، فبالنسبة إلى ميكيافيلي «الإمبريالية هي توسع أو امتداد للحافز الطبيعي للرغبة بالمزيد، والحصول عليه متى كانت ثمة المقدرة على ذلك، لأن العيش وفق المصادر المتوفرة ليس فضيلة»¹، وعليه فإن دوافع الحرب التوسعية حسب ميكيافيلي هي دوافع طبيعية وهي جزء من بنية الحرب، أو يمكن القول بأن الحرب بالنسبة للإمبراطورية هي مثل الماهية التي تسبق الوجود، فيجب من ناحية الحكمة العملية على الدولة أو أي كيان حكم آخر أن يؤسس من أجل هدف التوسع، ويبرر ميكيافيلي هذا الأمر بالجزم أن يستحيل «على أي دولة أن تبقى أبدا متمتعة بسلام بحرياتها... فإذا لم تغزو فإنه سيتم غزوها، وإن يكن لها عدو خارجي فسيكون لها عدو داخلي»² وعليه فإن الفكرة التي يريد ميكيافيلي إيصالها إلينا تتمثل في أن القوة تعزز الأمن، ومن دون الأمن تكون حرية

1- دايفد باوتشر، النظريات السياسية في العلاقات الدولية، ص 207.

2- المرجع نفسه، ص 207.

الجمهورية في خطر، وينتج من هذا أن التوسع الخارجي أو الهيمنة الخارجية تعتبر
شرطا مسبقا للحرية في الداخل

بالإضافة إلى طريقة استخدام القوة العسكرية في التوسع، يحدد ميكيافيلي
ثلاثة طرق أخرى للتوسع، الطريقة الأولى تقوم على «تشكيل عصابة تضم عدداً من
الجمهوريات التي لا أفضلية لأحدها فيها ولا سلطة ولا رتبة تفوق ما للأخرى فيها
من سلطة ورتبة»¹، والثانية تتمثل في «تشكيل الأحلاف التي تحتفظ لنفسك فيها
بالقيادة بالمركز الذي تقيم فيه السلطة المركزية، وبالحق في المبادرة ... أما الطريقة
الثالثة فهي تحيل الدول الأخرى إلى أتباع بدلا من حلفاء»²، الملاحظ أن هذه
الطرق الثلاثة قائمة كلها على مبدأ تقسيم السلطة في الأحلاف، ويبدو واضحا أنه
يجب ألا تقل سلطة الجمهورية عن سلطة أي عنصر من عناصر الحلف، ويجب
السعي دائما لاكتساب حق طاعة الحلفاء لأوامر الجمهورية من دون اللجوء إلى
ضرورة استخدام القوة المادية أو العسكرية، بل باستخدام طرق أخرى أكثر نجاعة
وأقل كلفة مثل إعطاء حق المواطنة للأجانب مقابل قبولهم الخضوع لأوامر السلطة
المركزية، فهذه الطريقة تعتمد أساسا على ما نسميه الآن بالقوة الناعمة.

3-1-3- التدين الروماني:

1- نيقولا ميكيافيلي، المطرحات، ص 445.

2- المصدر نفسه، ص 446.

رأى ميكيافيلي ضرورة تقليد جمهورية روما في مسألة التدين والممارسات الدينية من عدة جوانب لا يمكن ذكرها جميعا في هذا المقام، لأن ما يهمنا بالخصوص هو ما له علاقة بموضوع الحرب، نقول، إن الدين عند الرومان كان يشكل وسيلة فعالة لتحقيق التماسك الاجتماعي، وفي الوقت ذاته هو أداة في يد الدولة للتحكم في أفراد الشعب وتوجههم الوجهة التي تخدم مصالحها، ومرد ذلك هو «طابع الديانة الرومانية ذي الصبغة الاجتماعية التشريعية ... إذ تصوغ الإنسان ليس بوصفه مسؤولا عن أعماله الخاصة فحسب وإنما باعتبار أن النظر في سير نظام العالم يعود إليه عبر أداء طقوس معينة في الزمان والمكان وبالشكل الأكثر ملاءمة»¹، إن الديانة الرومانية تشكل وسيلة تحكم في الشعب من خلال إخضاع ما هو لما هو مقدس، وتفرض الالتزام بالمسؤولية الجماعية تجاه النتائج - السلبية أو الإيجابية - التي تفضي إليها الطقوس الدينية والمظاهر الشعائرية.

وتبع ذلك فإن ميكيافيلي يعزي نجاح الشعب الروماني في تحقيق إمبراطورتيه إلى تعبدتهم السليم للآلهة وإخلاصهم الديني، وهو ما أدى إلى أن كفأتهم الآلهة بما يعرف بالسلم الإلهي، لأن في نظره إمبراطورية كروما لم يكن في وسع دستورها وحده إحلال السلام فاحتاجت إلى وجود الدين بجانب الدستور، وذلك من أجل حمل الشعب الروماني شديد العنف والقسوة على تعود الطاعة المدنية

1- ميشال مسلان، علم الأديان: مساهمة في التأسيس، ترجمة: عزالدين عناية، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 2009، ص 36 و37.

وممارسة فنون السلام، فالدين حسبه هو الأداة اللازمة قبل أية أداة أخرى للحفاظ على وجود الدولة المتحضرة¹، فالديانة الرومانية هي ديانة مدنية هدفها الأسمى هو صلاح الدولة، وهذا على نقيض حال الديانة المسيحية في زمن ميكافيلي والتي يعتقد أنها ابتعدت كثيرا عن المسيحية الأصلية بحيث «أفسدها الأوصياء عليها حين شدد الشارحون على الأخروية والخلاص والتواضع بدلاً من حب الحياة ومحبة الوطن وتمجيده»²، إنه يرفض هذا التواضع الذي توصي به المسيحية وهو تقريبا الموقف نفسه لفرديريك نيشته القائل: «المسيحية هي كذلك إلغاء للمجتمع، إنها تفضل كل ما يزدريه المجتمع، تنمو في صفوف الحقرين والمذمومين والبُرص من كل صنف وجباة المكوس والبلغايا والدهماء الجهولة (المذنبون) وتحتقر الأغنياء والعلماء والنبلاء والفضلاء والناس المهذبي السلوك»³، فكليهما نظر إلى الدين نظرة سياسية عملية أو علمانية وليس نظرة لاهوتية.

من جهة أخرى نجد الدين في جمهورية روما قد لعب دوراً محورياً في مسألة الحرب وما يرتبط بها، فقد جعلوا للحرب آلهة وهي الإله مارس، الذي شكل موضع عبادة شعائرية متواصلة ولها صلة مباشرة بإعلان الحرب وشنها وبعقد اتفاقيات السلام، فاجتماعات الجمعية الشعبية المخولة باتخاذ قرارات الحرب كانت تعقد في ساحة الإله مارس، بالإضافة إلى هذا، يخبرنا التاريخ الروماني «كيف كان الدين عاملاً مساعداً في السيطرة على الجيوش وتشجيع العامة على إخراج أفضل

1- نيقولا ميكافيلي، المطارحات، ص 260 و 261.

2- دايفد باوتشر، النظريات السياسية في العلاقات الدولية، ص 213.

3- فرديريك نيشته، إرادة القوة، ترجمة: محمد الناجي، إفريقيا الشرق، المغرب، 2011، ص 88.

الرجال وفي إحقاق العار بأسوائهم»¹، وقد كانت أهم وسيلة دينية ساعدت في التحكم في الجيوش الرومانية هي أداء يمين الولاء من طرف الجنود والذي يعتبر يمين الولاء المقدس المغاظة، لهذا نجد الأغلبية من الرومان والجنود على وجه الخصوص «كانوا أكثر خوفاً من الحنث بيمين من مخالفة القانون، إذ يجلبون سلطان الله أكثر من إجلالهم لسلطان الإنسان»²، وعليه فالدين الروماني كان يتدخل لإرغام الجنود على حب الوطن والولاء له وطاعة القوانين كلما كانت القوانين غير كافية لحملهم على ذلك.

ويجادل ميكيافيلي عن أسبقية الدين على السلاح أو القوة العسكرية في الدول الناشئة، يقول: «حيث يوجد الدين يصبح من السهل تعليم الناس استخدام السلاح، أما حيثما توجد الأسلحة، ولا يكون ثمة وجود للدين، يضحى من الصعب إدخاله ونشره»³، فالدين هنا هو عامل حاسم بشكل كبير في تذليل مهمة الحاكم عن طريق التأثير على الشعب من أجل تحقيق الحاكم لمشارعه السياسية، وينتج من هذا أن الدين سبب من أسباب عظمة الدول، وإهماله أو الإنقاص من قيمته فيسبب خرابها وانهيائها، ويرى ميكيافيلي أن هذه الحقيقة هي التي جعلت أغلب المشرعين يلجؤون إلى القول بأن الله هو الذي أمر بما جاء في شريعتهم، وعليه نجده يوصي أنه «يتوجب على حكام أية جمهورية أو مملكة أن يحافظوا على المبادئ الأساسية التي تصون لهم وجودهم، وإذا علموا هذا سهل عليهم أن يصونوا

1- نيقولا ميكيافيلي، المطارات، ص 262.

2- نيقولا ميكيافيلي، المطارات، ص 261.

3- المصدر نفسه، ص 262.

تدين دولتهم، مما يؤدي إلى الحفاظ عليها متحدة وطيبة»¹، أما حال الحكام في زمنه فلا هم حافظوا على الدين ولا الكنيسة حافظت على الدين والوطن، بل وكانت سببا في منع تحقيق وحدة المدن الإيطالية، ذلك لأنها لم تكن من القوة بحيث تستطيع إخضاع حكام المدن الإيطالية الطغاة، وتوحد بذلك إيطاليا، ولا هي ضعيفة فتجعل الأمر في يد دولة أجنبية تتكمن من إخضاع الجميع لسلطانها، وما زاد من حسرة ميكافيلي هو أن إيطاليا تضم مقر الكنيسة الكاثوليكية وكذلك عاصمة جمهورية روما القديمة وهي رمز السلطة الدنيوية للإمبراطورية الرومانية، وهكذا «فإن الكنيسة لم تكن في يوم ما قادرة على احتلال إيطاليا بأسرها، كما لم تسمح لغيرها باحتلالها، وعلى هذا فقد كانت السبب في الحيلولة دون وجود إيطاليا تحت حكم رأس واحد»²، فالدين سواء كممارسة أو كمؤسسة في زمن ميكافيلي لم يخدم إيطاليا كما خدمها في زمن الجمهورية الرومانية، وبالتالي فقد شكل أحد الأسباب التي جعلت من إيطاليا فريسة للأقوياء والبرابرة، ولو احتفظت إيطاليا أو غيرها من الدول المسيحية بالروح الدينية التي رسمها لها مؤسسها لكانت في وضع أكثر قوة وسعادة واتحاد.

وكما أوضحنا، فإن ميكافيلي قد اهتم بالتأثيرات المدنية والسياسية للدين بغض النظر عن التأثيرات الروحية وأبعاده الميتافيزيقية كفكرة الشر أو فكرة الخلاص التي ركزت عليها المسيحية في زمنه، أنه يريد إبراز دور الدين في الإصلاح

1 - المصدر نفسه، ص 266.

2- نيقولا ميكافيلي، المطارات، ص 269.

السياسي والعسكري الذي كان يحلم بتحقيقه في إيطاليا، أي جعل الدين منبعاً للقوة والشجاعة والعنفوان والمجد والاستقرار والتقدم، عنصراً للاتحاد وليس للفرقة، عامل بناء للدولة ودفع للمدينة لتصير إمبراطورية لا عامل هدم وهدر للطاقة، دينا يسعى للحياة ولا يطلب الموت والخلص، هذه الصفات هي الصفات التي يجب على الشعب أن يستمدّها من الدين من أجل الرقي والتقدم وبناء إيطاليا التي تنافس أقوى الدول في زمنه مثل فرنسا وإسبانيا.

3-1-4- الجانب العسكري لروما.

الميزة الرابعة من مميزات الجمهورية الرومانية والتي رأى فيها ميكيافيلي نموذج يحتذى به هي الجيش الروماني، فالقوات العسكرية الرومانية كانت مشكلة من المواطنين وليس من المرتزقة، والقادة كانوا من النبلاء ملاك الأراضي أما الجنود فأغليبيتهم من الفلاحين اللذين يتم استدعاؤهم للخدمة العسكرية على نفقتهم الخاصة في إطار واجبهم كمواطنين¹، وهذا الأمر قد عمل ميكيافيلي على تحقيقه بنفسه في أرض الواقع في جمهورية فلورنسا.

كما نال النهج المتبع من طرف الرومان في فرض النظام والانضباط في الجيش قدر هام الاهتمام عند ميكيافيلي، فالصرامة في تطبيق النظام والعقاب الوحشي الذي كان ينزل على الجنود العصاة غرس في نفوس الجنود خوفاً من

1- دايفد باوتشر، النظريات السياسية في العلاقات الدولية، ص 218.

عواقب الفشل يفوق الخوف من الموت أو من مواجهة العدو، وفي مقابل ذلك وفرت القيادة العسكرية لأفراد الجيش الروماني إمكانيات كبيرة لجمع الثروة وبلوغ المناصب السياسية والحصول على الدعم في الانتخابات لمناصب الجمهورية، فمنهج الرومان في فرض النظام في صفوف الجيش كان يقوم على مبدأ الترغيب بالمال والجاه والترهيب بالعقاب والخزي والعار، عكس جيوش المرتزقة التي عرفها ميكيافيلي في زمنه والتي يمكن تلخيص أخلاقها فيما عرف بصفقات بيع الولاء.

أما فيما يخص قادة الحرب فرأي ميكيافيلي من رأي ما كان عليه الرومان الذين جعلوا القيادة والسلطة العسكريتين غير متميزتين عن مركز سلطة المدينة، فقيادة الجيش أثناء الحرب كانت في يد قائد واحد، وبالرغم من وجود قنصلين منتخبين إلا أنهم كانوا يرفضون القيادة الجماعية في أية حرب من الحروب، باعتبار «أن الواجب الأول لحاكم أي شعب هو أن يوفر لهذا الشعب أسباب السلامة والأمن، بأن يخصص لحمايته العدد الكافي من القوات، بينما يعمل ما من شأنه الحيلولة دون تحول هذه القوات المسلحة عينها إلى خطر يتهدد الشعب الذي تقوم بحمايته، ويوضح هذا الرأي أحد المبررات التي خولت لأوغسطس تولي مثل هذه السلطات الواسعة، فقليل إن تقليد القيادة العليا لقائد واحد هو السبيل الأمثل إلى تنسيق الدفاع عن الملك»¹، والسبب في تفضيل الرومان توحيد قيادة الحرب مرده إلى عدة اعتبارات أهمها منع الطموحين من القادة من تزعم الثورات وبالتالي منع

1- م.ب. تشارلزورث، الإمبراطورية الرومانية، ترجمة رمزي عبده جرجس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 2003، ص 38.

حدوث الفتن والانقسامات في الجيش، وكذلك من أجل إخضاع القوات المسلحة لسيطرة القائد وتجنب خضوعه هو لسيطرتها عن طريق مساومته بالولاء مقابل امتيازات معينة، والاهم من كل هذا هو سرعة اتخاذ القرار في المعركة ووحدة الهدف والرؤية في الحرب لأن تعدد القواد يؤدي إلى تعدد الرؤى وبالتالي تشتت قوة الجيش، وفي هذا نجد ميكيافيلي يستحسن رأي **تيتوس ليفي** حين قال «قدم حماة الشعب الثلاثة صورة صحيحة لتفاهة إشراك عدد من الأشخاص في السلطة التنفيذية لإدارة الحرب من الحروب، إذ كان كل منهم ميالا إلى إتباع رأيه الخاص به، ولما كانت آراؤهم مختلفة فقد أتاحوا للعدو فرصته»¹، وعليه فمن الحكمة جعل قيادة شؤون الحرب في يد رجل واحد فذلك أصلح للجيش والدولة والشعب وفيه دلالة قوية على مقدرة القائد في أحكام سيطرته على جيشه وسعة حيلته في ذلك، وهذا على النقيض تماما عما كان يحدث في جيوش المرتزقة التي كانت تعتمد عليها جمهوريات وإمارات إيطالية في حروبها، فالجيش يقوده قائد المرتزقة الذي يسعى إلى نيل حفنة من المال والحفاظ على سلامته وسلامة جنوده، أما الأهداف العسكرية والسياسية من الحرب فقد كان يحددها المفوض الدبلوماسي، وفي الغالب يوفد الساسة أكثر من مفوض واحد، وهذا التباين في الأهداف والتعدد في القادة هو في نظر ميكيافيلي أهم الأسباب التي أدت إلى الكوارث التي حلت بإيطاليا.

1 - نيقولا ميكيافيلي، المطرحات، ص 661.

- المبحث الثاني : فن الحرب عند ميكيافيلي:

1- الصلة بين التنظيم السياسي والتنظيم العسكري:

استهل نيقولا ميكيافيلي كتابه «فن الحرب» بالقول: «يعتقد الكثيرون من الناس الآن أنه لا يوجد ما هو أكثر تعارضا وتنافرا من التعارض والتنافر الموجود بين الحياة المدنية والحياة العسكرية...ولكن إذا وضعنا في الاعتبار مؤسسات القدماء فسوف نجد أن هناك علاقة حميمة ووثيقة بين هاتين الحالتين، وأنهما ليسا فقط متلائمتين ومتسقتين مع بعضهما، بل حتما هما متصلتان ومترابطتان»¹، ويرى ميكيافيلي أن سبب هذا الاعتقاد في وجود تباين بين الحياة المدنية والحياة العسكرية هو الاختلاف الموجود بين المدنيين والعسكريين من ناحية الشكل الخارجي والسلوكي وكذا الأهواء، إذ يجب على العسكري أن يظهر ما يوحي أنه على استعدادا لمواجهة

1- نيقولا ميكيافيلي، فن الحرب، ترجمة صالح صابر زغلول، دار الكتاب العربي، مصر، الطبعة الأولى، 2015، ص37.

كل أشكال العنف التي ستجانب المدنيين في أغلب الأحيان¹، أما المدنيين فكانوا غير معنيين بالانضباط العسكري ولا بارتداء الزي الموحد وهم في حاجة للسلوك في الحياة وفق ما يفعل العسكري.

لكن الفحص الدقيق للواقع يثبت ما ذهب إليه ميكيافيلي من وجود صلة وثيقة بين الحياة المدنية أو السياسية والحياة العسكرية، هذه الصلة جعلتهما متلائمتين ومتسقتين، لأن كل ما يمكن أن يشكل جزءا من الحياة المدنية والسياسية من فنون وأدب وعلوم ودين ومنظومة قانونية وكل العناصر الثقافية التي وجدت في المجتمع من أجل خدمة أفرادها، لن تتمكن من تحقيق الغرض الذي وجدت من أجله أو ربما لن تحقق وجودها أصلا « إذا لم تدعمها وتدافع عنها القوة العسكرية، تلك القوة التي إذا ما تم أداؤها وتطبيقها بطريقة سليمة فسوف تحافظ على تلك القوانين والطقوس وتحافظ على استمرار سلطتها»²، نرى هنا بشكل واضح الدور الحاسم الذي جعله ميكيافيلي للقوة العسكرية وتأثيرها الفعال والمباشر في الحياة السياسية والمدنية، لكنه يشترط لكي يكون هذا الدور دورا إيجابيا أن توظف القوة العسكرية بطريقة سليمة ، وهذا الشرط له علاقة مباشرة بالقائد أو الأمير الذي بيده زمام هذه القوة، وعليه، يمكننا أن نصل من ذلك إلى «أن كيان وعظمة كل دولة يضمن ويؤكد كل منهما إذا حظيت القوة العسكرية بنصيبها الصحيح ومكانتها الحقيقية من

1- الحروب في عصر ميكيافيلي وما قبله كانت عبارة عن اقتتال بين جيشين في مكان وزمان محددين في الغالب، ولم تكن الحرب تصل إلى المدنيين العزل والنساء والأطفال والشيوخ، لذا فخطر الحرب كان يعني الجنود فقط دون غيرهم.

2 - نيقولا ميكيافيلي، فن الحرب، ص 38.

النظام السياسي للدولة»¹، فالأمير أو الحاكم عليه أن يعي أن وجود دوله وعظمة ملكه واحتفاظه بسلطته كلها متوقفة على القوة العسكرية التي يجب حسب ميكيافيلي أن تتال اهتمام خاص من طرف الأمير وتحظى بمكانة خاصة في دولته، هذا الاهتمام تفرضه حاجة الدولة الملحة إلى دور القوة العسكرية في استقامة النظام السياسي.

إذا سلمنا بأن ما هو سياسي يتجسد فيما هو قانوني فإنه «لا يمكن أن توجد قوانين صالحة إلا حيثما وجدت أسلحة قوية»²، وحيثما وجدت أسلحة قوية توجد قوانين صالحة»³، أي أنه لا يمكن لأي دولة أن تقيم نظاما سياسيا صالحا أو أي نظام آخر من أنظمتها إذا افتقرت إلى نظام عسكري وأمني صالح، فصلاح الدولة قائم حسب ميكيافيلي على صلاح القوة العسكرية، ونرى أن الربط هنا بينهما مستساغ حسب الأدلة الواقعية التي قدمها ميكيافيلي، إذ دعم موقفه بسرد أمثلة تاريخية استوحاها من دراسته لتاريخ القدماء خاصة جمهورية روما، وأثبت على من خلالها أن أساس الدولة هو التنظيم العسكري، هذا من جهة ومن جهة أخرى نجد أن موقفه هذا يركز على التجارب السياسية العملية التي عاشها وملاحظته المباشرة لواقع الحكومات الإيطالية في زمنه والتي أثبتت له بشكل لا مجال معه للشك أن فقدان موطنه لحريته كان بسبب فشل المنظومة العسكرية لوطنه والقائمة أساسا

1- فيليكس جلبرت، رواد الاستراتيجية الحديثة، الفكر العسكري من ميكيافيلي إلى هتلر، الكتاب الأول، ترجمة: محمد عبد الفتاح إبراهيم، د ط ، د ت ، ص 19.

2- الفكرة ذاتها يكررها في كتاب الأمير وكتاب فن الحرب، فقد ذك في هذا الأخير «إن أفضل القوانين سوف تداس إذا لم تحظ بالدعم من القوة العسكرية، فالجيش للدولة كالسقف للقصر يحمي ما بداخله».

أنظر: نقولا ميكيافيلي، فن الحرب، ص 38.

3- نيقولا ميكيافيلي، المطارحات، ص 717.

على جنود المرتزقة، هذا الفشل العسكري كان سبب مباشر في فقدان إيطاليا لاستقلالها إذ صارت تحت سيطرة الجيوش الأجنبية وبالأخص الجيش الفرنسي والجيوش الإسبانية، لهذا كان «تحقيق دور القوة العسكرية¹ في الحياة السياسية هو المغناطيسية التي جذبت نحوها كل تفكير ميكيافيلي السياسي»²، وعليه فإنه من أجل تغير واقع إيطاليا - إيطاليا زمن ميكيافيلي - لابد من تغير النظام السياسي الذي يسيرها ، وهذا بدوره يستوجب بالضرورة تغير نظامه العسكري بهدف بناء قوة عسكرية يمكنها توحيد إيطاليا، وهذا بفعل الصلة الوثيقة بما هو سياسي وما هو عسكري، فأى تغير في أسس النظام العسكري يكون له تأثير لا يمكن تجنبه في الميدان السياسي الذي يفرز بدوره تأثيرات مماثلة على باقي الجوانب الأخرى في الدولة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وبهذا تتضح لنا ضرورة بحث تصور ميكيافيلي لإصلاح المنظومة العسكرية.

1- القوة العسكرية والتنظيم العسكري لهما علاقة بكل البناء الاجتماعي في العصر الوسيط وعصر النهضة، فمن الناحية الاقتصادية هناك ارتباط وثيق بين العسكري أو الفارس الذي يستغل الأرض والسيد الذي يمثل الجانب القانوني أو السياس، فالفارس له أن يستغل الأرض مقابل الالتزام بأداء الخدمة العسكرية في زمن الحرب نصره لهذا السيد، هذا يعني أن هناك نوع من تبادل لمنفعة اقتصادية انية مقابل خدمة عسكرية مؤجلة أو محتملة، وهذا يتفق تماما مع النظام الإقطاعي الذي أفرزته هذه المرحلة.

ويطرح ميكيافيلي العلاقة ذاتها بين ما هو عسكري وما هو ديني، فالقدماء كانوا يحثون الشعب بصفة عامة والجنود على وجه الخصوص على الإخلاص وحب السلام والخوف من الله، ويقدم في كتابه فن الحرب مجموعة تساؤلات بصيغة الاستفهام التقريري من أجل إثبات أن العسكري هو من يجب أن يكون مخلص لبلده ومؤتمن عليه وهو الأكثر محبة للسلام لأنه أكثر من يعاني من ويلات الحرب، وهو من يجب عليه الالتزام بطاعة الله باعتبار أنه معرض لخطر الموت في كل لحظة.

2- فليكس جلبرت، رواد الاستراتيجية، الكتاب الأول، ص 20.

2- طبيعة الجيش:

إن إحدى أهم النقاط التي ركز عليها ميكيافيلي في التصور الذي قدمه لإصلاح المنظومة العسكرية هي الجيش الذي يشكل محور القوة العسكرية، وله دور حيوي في الدولة، بحيث «لا توجد دولة يمكنها حماية نفسها بدون جيش، إن لم يكن لدى الدولة جيش خاص بها، فإنها تصبح مضطرة لتوظيف قوات أجنبية»¹، فالمجتمع بما يحتويه من أفراد ودين وعلوم وفنون واقتصاد لا يمكنه أن يزدهر إلا في ظل الأمن الذي يوفره الجيش²، لهذا عمد ميكيافيلي إلى تقديم رؤية تفصيلية عن الجيش تشمل جميع جوانبه، النشأة والتكوين والتدريب والتنظيم والانتشار والتوظيف، وسوف نركز على أهم الجوانب ذات الصلة بالتنظير السياسي والفلسفي ونحاول الابتعاد عن تلك القضايا التقنية ذات الطابع العسكري البحت.

إن ميكيافيلي المفتون بالوطنية والقومية يرفع بصوت عالٍ من أجل جيش وطني قوي تكون أهم مميزاته هي الولاء فقط لبلده وليس للمال والغنائم التي يحصل

1- نيقولا ميكيافيلي، فن الحرب، ص 70.

2- يمكن ربط هذه المسألة بالثلاثية التي تشكل دور أو علاقة دورية في الفكر السياسي المعاصر، وهي ثلاثية الأمن والتنمية والديمقراطية، فهذه الثلاثية التي تعتبر أساسية في حياة كل دولة تريد تحقيق التطور والازدهار لشعبها، لكن المعضلة أن كل عنصر من هذه العناصر الثلاثة مشروط بالعنصرين الآخرين، فلا يمكن تحقيق الأمن إلا بالتنمية الاقتصادية والديمقراطية، ولا يمكن تحقيق التنمية إلا بالأمن والديمقراطية، والأمر سيان فيما يخص الديمقراطية المشروطة بالأمن والتنمية، ونلاحظ هنا أن ميكيافيلي قد فصل في الأمر وجعل الأمن هو الأولوية الأولى للدولة وبه تتحقق التنمية وتطور الدولة ورخاؤها.

عليها عند انتهاء الحرب، وهو إن يرافع لهذا فإنما يفعل ذلك انتقاداً ورفضاً لجيش المرتزقة الذي عرفته إيطاليا في زمنه، والذي شكل ظهوره نهاية جيش الإقطاع، وقد كان السبب الرئيسي في ظهور جيوش المرتزقة هو رغبة الكثير من المحاربين اتخاذ الحرب كمهنة من أجل كسب الأموال، بمعنى ان السبب في ظهوره هو سبب اقتصادي وتجاري بحت، وقد ادرك ميكيافيلي ذلك حين قال أنه «لا يجب على أي إنسان أن يتعامل مع الحرب كعمل تجاري ... وإذا كان الأمير أو الحاكم رجلاً حكيماً، فلن يسمح لأي من رعاياه أو مواطنيه باتخاذها كمهنة وحيدة له»¹، ذلك لأن ميكيافيلي يعتبر هذه الممارسات أو المسارات المهنية لا يمكن أن تتفق مع الصالح العام للدولة وينبغي تجنبها بل وتجرمها، وقد سعى إلى تسوية موقفه هذا بالقول إن الحرب إذا ما أصبحت مهنة فإنها تلزم صاحبها بالتخلي ببعض الصفات التي تورثها الحرب مثل الجشع والاحتيال والقسوة، وهذا بغض النظر عن مكانة من يمتن مهنة الحرب سواء كان جندياً أو قائداً، ويضيف أنه وفق منطق وطبيعة هذه المهنة يكون على الدولة واجب الاستغناء عنهم في زمن السلم وتحتفظ فقط بعدد قليل منهم لغرض حماية القلاع والحصون، وبالتالي يصبح من الضروري على هؤلاء المرتزقة اتخاذ أحد السبيلين التاليين:

1- إما السعي لمنع السلم والاستمرار في حالة الحرب من أجل ضمان استمرار عملهم الحربي التجاري.

1 - نيقولا ميكيافيلي، فن الحرب، ص 51.

2- اتخاذ جميع التدابير والوسائل اللازمة من طرف الجنود لجمع ما يكفي من الإمدادات والمؤن لأنفسهم في وقت الحرب بحيث لا يحتاجون لشيء بعد انتهاء الحرب¹.

يعني هذا أن أجل الحرب ومداها وأهدافها لن تكون أبدا مرتبطة إلا بالنفع المادي للمرتزقة والذي يستند بطبيعة الحال إلى جشعهم واحتيالهم، ولن يكون اعتبار للأهداف السياسية التي من أجلها نشبت الحرب وتم توظيف هؤلاء المحاربين في تحديد نهاية الحرب، وربما هذا هو السبب الذي جعل ميكيافيلي يرى أن بداية الحرب مرتبطة بإرادة الأمير ولكنه لا يملك أن يضع لها حدا وقت ما شاء ذلك.

ومن نافلة القول التأكيد على أن أي سلوك من السلوكيين المذكورين أعلاه للمحاربين المرتزقة يعتبر سلوكا ضد الصالح العام للدولة سواء للحكام أو للشعب، لأن الحرب في نظر ميكيافيلي تحمل معها الكثير من الشرور كالسرقة والقتل ومختلف أشكال العنف، واستخدم المرتزقة في الحروب يمنع إحلال السلم لأن قادة المرتزقة عادة ما يلجؤون إلى التحايل على الأمراء الذين يقاتلون لأجلهم، فتجدهم يتعمدون التهاون في القتال ويعملون على عدم حسم المعركة فيطيلون عمر الحرب وذلك رغبة في المزيد من الكسب، أما الجنود فيلجؤون إلى نهب ممتلكات المدنيين بدون وجه حق، وهذه الأفعال لا تقع على العدو شعبه فقط بل يمكن أن يتعرض لها شعوب الدول الحليفة وحتى تلك التي يحارب من أجلها جيش المرتزقة، باعتبار أن العلاقة التي تربهم لا تتعدى كونها علاقة تجارية بحتة يتم وفقها تبادل

1 - المصدر نفسه، ص 52.

خدمة حربية مقابل أموال معلومة، وعليه يمكن أن نستنتج من هذا أن ميكيافيلي يعتبر الحروب التي تخوضها الدول بجيوش المرتزقة تحمل من الشرور ما يفوق بكثير تلك الحروب التي تخاض بالجيوش الوطنية، وهذا بحكم أن أخطر حالة يمكن أن توجهها الجيوش الوطنية هي حالة الحرب، أما جيوش المرتزقة فأخطر حالة بالنسبة لها هي حالة السلم لأنهم في النهاية هم مجرد تجار ولاء، ويعتقدون حقا أن «الحروب تصنع اللصوص والسلام يعلقهم على حبل المشنقة»¹، فهذا المبدأ يعبر بصدق عن خلفية تفكير جيوش المرتزقة.

بناء على ما سبق ذكره ينصح ميكيافيلي بتقليد القداماء خاصة جمهورية روما واتباع سنتهم ومحاكاتهم في تكوين الجيش وبنائه وتقدير قيمة إخضاعه للنظام الجيد وفرض الانضباط على المنتسبين إليه، فإذا كان قد رفض أن يتعامل أي إنسان مهما كانت مهمته أو مكانته الاجتماعية مع الحرب كمهنة أو عمل تجاري، واعتبر ذلك مرادفا للصوصية والاحتيال والجشع، فإنه في مقابل ذلك يقر بأن «الرجال الصالحين هم الذين لا يجعلون من الحرب مهنتهم الوحيدة ... ولا يتوقعون أية مكافأة إلا العناء والكدر والخطر ثم المجد لقاء خدماتهم»²، يدل هذا أولا على أن الجندي الصالح في نظر ميكيافيلي لا ينبغي أن يمتن الحرب بل عليه أن يمتن مهنة أخرى في وقت السلم، ولكن حين نشوب الحرب يترك مهنته الأصلية وينظم إلى الخدمة في الجيش طوعا وليس اضطرارا، ومن ناحية ثانية يؤكد ميكيافيلي على

1 - نيقولا ميكيافيلي، فن الحرب، ص 53.

2- المصدر نفسه، ص 55.

أن الحرب بالنسبة للجيش الوطنية هي فرصة لطلب المجد وشرف الدفاع عن الوطن ولا تخاض طلبا للمال نظير عنائها والخطر الذي يصحبها، وبهذا ينقل ميكيافيلي أعمال الحرب من كونها إحدى أبشع وجوه الرذيلة واللصوصية والجشع وخدمة المصلحة الشخصية البحتة، إلى رفعة أسمى الفضائل باقترانها بطلب المجد وشرف خدمة الوطن ونكران الذات وتحقيق الصالح العام للدولة والمجتمع.

كما أن الالتحاق بالجيش الوطني يكون طوعية، كذلك بعد انتهاء الحرب تكون عودة المحاربين طوعية لحياتهم الطبيعية ومزاوتهم لمهامهم السابقة ويستدل ميكيافيلي مجدد بالقدماء قائلا: «كان الجنود يضعون أسلحتهم بسعادة أكبر مما حملوها بها ويستأنف كل منهم العمل الذي كان يحصل به على قوته، لم يكن أحد منهم أية رغبة في الحياة على السلب والنهب»¹، وهذا كان حال المحاربين في جمهورية روما، وهكذا أراد ميكيافيلي أن يكون حالهم في زمنه، إذ بعد انتهاء الحرب وعقد اتفاق السلام يعود القادة إلى ولاياتهم والسادة إلى رعاية ممتلكاتهم والجنود إلى وظائفهم، وبهذا فالجميع يخوض «الحرب رغبة في تحقيق السلام العادل، ولن يقوم أي شخص بتعكير السلام لإثارة الحرب»²، وهنا يكمن جوهر الاختلاف بين الحروب التي يخوضها جنود المرتزقة والحروب التي تشنها الدول بجيوشها الوطنية، فالأولى هي حرب من أجل غاية المال والثانية هي حرب من أجل السلام العادل والفرق واضح بين النمطين، النمط الأول يتسم بالميوعة وفتور روح القتال نتيجة التركيز على الكسب المتوخى منها، أما النمط الثاني فيتميز بروح جديدة للبطولة العسكرية يتقدم فيها الصالح العام على المصلحة الشخصية وطلب

1- نيقولا ميكيافيلي، فن الحرب، ص 55.

2- المصدر نفسه، ص 59.

السلام على الحرب كمهنة، هذا الارتقاء في القيم يتطلب إصلاح سياسي وتوفير روح جديدة متجسدة في القائد أو الأمير ، ويجب أن يركز هذا الإصلاح على رفع القيم السياسية فوق باقي القيم الشخصية الأخرى.

3- تكوين الجيش:

إذا سلمنا مع ميكيافيلي بأن وجود الدولة يقتضي التوسع بالضرورة، فإن هذا وجود المشروط للدولة يقتضي منطقيا وجود الجيش الذي عليه مواجهة العدو ميدانيا والانتصار عليه من تحقيق الغاية التي وجدت من أجلها الدولة، ولكن الجيش ليس معطى بشكل مسبق وإنما ينبغي تشكله، وهذا الأمر لا يعني فقط حسب ميكيافيلي جمع الرجال بشكل عشوائي، وإنما يتطلب القيام بمهام عديدة كالتسليح وفرض النظام والانضباط وتدريب أفراده بشكل متكرر ودائم.

وقبل كل هذا يرى ميكيافيلي أن أول خطوة من خطوات تشكيل الجيش هي ضرورة «اختيار الرجال المناسبين لهذا الغرض، وأطلق القدماء على هذه العملية مصطلح الانتقاء»¹، أي اختيار الجنود من أفراد الشعب وفق معايير محددة أهمها الكفاءة والقدرة على أداء مختلف أعمال الحرب، وقد اختلف القدماء فيما يخص هذه المعايير، فالرومان اعتقدوا أنه يجب انتقاء الرجال من المناطق ذات المناخ المعتدل لأن رجال هذه المناطق في نظرهم يمتازون بالشجاعة والحذر، أما

1- نيقولا ميكيافيلي، فن الحرب، ص 63.

رجال المناطق الحارة فيمتازون بالسرعة والفتنة ولكنهم ليسوا شجعانا، على عكس رجال المناطق الباردة الأقوياء وأصحاب الشجاعة ولكنهم مملون وأصحاب بلادة وبطء في الفهم، ويعيب ميكيافيلي على التصنيف للرجل أنه يكون متاحا للملك الذي يملك العالم بأكمله بحيث يمكنه أن يختار جنوده من أي منطقة شاء، لهذا يقول: «فأنا أرى أن تقوم كل جمهورية أو أمير باختيار رجاله من مقاطعته سواء الباردة أو الحارة أو المعتدلة، لأن الانضباط الجيد والتدريب الجيد يخلق جنودا جيدين في أي دولة، وعيوب الطبيعة يمكن إصلاحها من خلال الفن والصناعة والمثابرة»¹، وعليه فإن ميكيافيلي يقدم الانتماء القومي للجنود عن أي معيار آخر، وهذا من أجل ضمان عنصر الارتباط العاطفي بالوطن والتعلق به، أو تحقيق العاطفة القومية، وهو الأمر الذي سوف يشكل الدافع القوي لدى الجنود من أجل الدفاع عن الوطن بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، وطلب المجد والشرف بدلا من الأموال والمصالح الشخصية، وبهذا يضمن قائد الجيش وجود شعور مشترك يوحد أفراد الجيش ومعنى واحد لوجودهم معا وللعمل الذي يقومون به، أما ما أسماه ميكيافيلي بالعيوب الطبيعية في الجنود فإنه يرى أنه يمكن إصلاحها عن طريق التدريب وفرض النظام.

في السياق ذاته، يرفض ميكيافيلي اختيار الرجال من بلاد أجنبية لضمهم لجيشك، معللا موقفه هذا بأنه غالبا ما يكون هؤلاء الأجانب هم من بين أسوء الرجال في بلدهم، سواء من ناحية الكفاءة أو القدرة القتالية أو من الناحية الأخلاقية

1- نيقولا ميكيافيلي، فن الحرب، ص 64.

والانضباطية، لذا فهم أسوء من يمكن أن يكون مستعدا للخدمة تحت رايتك، فالدولة التي توظف قوات أجنبية تكون حسب ميكيافيلي أكثر عرضة للفساد والانهيار، باعتبار أن الدولة التي تعتمد فقط على القوات التي تتألف من رعاياها يكون لها في الغالب عدو واحد تخشاه وهو العدو الخارجي، أما تلك الدول التي تعتمد على القوات الأجنبية فلها في الواقع عدوان، الدول الأجنبية من جهة وقواتها التي تطلب المزيد من الأموال من جهة أخرى¹، لذا يجزم ميكيافيلي بالقول أنه «لا يمكنك أبدا القيام باختيار جيد من خارج بلدك لأن جمعهم سيئون»²، وحتى في حالة ما إذا لم يجد القائد ما يكفي من أهل بلده لملئ كتائب جيشه فال ينبغي له الاستعانة بالأجانب، لأنه في هذه الحالة لا يقوم بانتقاء الجنود بل هو يقوم بتعينهم وضم كل من هو قادر على حمل السلاح، ولا يملك أن يختار الأصلح فقط، وينتج أن «يكون من الصعب فرض الانضباط في الجيش»³، فالانضباط له علاقة مباشرة بطريقة اختيار الجنود، فإذا كان اختيارهم عن طريق عملية الانتقاء فإن انضباطهم يكون يسيرا، أما إذا كان عن طريق التعيين فإنه من الصعب على القائد ان يفرض الانضباط في صفوف الجيش، وهذا بسبب أخلاق الجنود من جهة وحاجة القائد إلى جهود كل جندي مهما كان سيئا، ويلخص ميكيافيلي هذه المسألة بقوله: «الطريقة التي رجحتها ... أنه يجب أن يختار الأمير جيشه من رعاياه، ويقوم باستغلال سلطته للقيام بمثل هذا الاختيار ... ومن الأفضل اتخاذهم (الجنود) من

1- يبدو أن ميكيافيلي لم يفكر في مسألة الخيانة وانشقاق الجيوش حتى ولو كانت مكون من أبناء الوطن الواحد، وهذا الانشقاقات قد تكون بسبب الولاءات المختلفة أو بحكم الانتماءات الأيديولوجية المختلفة أو غير من الأسباب التي تشتت وحدة الجيش.

2- نيقولا ميكيافيلي، فن الحرب، ص 64.

3- المصدر نفسه، ص 65.

المناطق الريفية لأنهم اعتادوا على تحمل المشاق والصعاب، وهم الأقل فساداً»¹، فهذه هي أهم المعايير التي يجب اعتمادها حسب ميكيافيلي في انتقاء الجنود، لأنها تجمع بين تحقيق العاطفة القومية والقدرة على تحمل مشقة وصعاب أعمال الحرب كما تضمن الانضباط، وينتج من هذا جيش طيع وسهل الانقياد لأوامر القائد.

من أجل أن يميز القائد من بين الرجال من يصلح للحرب، يحدد ميكيافيلي طريقتين لذلك بحيث «يجب الحكم على الفضيلة الأخلاقية للرجل الذي خدم بالفعل إما عن طريق التجربة التي مررنا بها فيما يخص سلوكه السابق، أو من خلال الحدس المحتمل ونستخلصه من سنهم ووظيفتهم ومظهرهم»²، الطريقة الثانية تخص فئة الجنود الذين لم يسبق لهم العمل في الجيش، من جهة أخرى نجد ميكيافيلي يرفض أن تكون طبيعة مهنة الأشخاص عاملاً محددًا لفضائلهم الأخلاقية، ولكنه يقر في ذات الوقت بأفضلية الرجال أصحاب المهن والحرف التي تتطلب منهم استعمال كلتا يديهم، فهذا أفضل للحرب في نظره، أما فيما يخص أخلاق وسلوك الجنود فيؤكد على ضرورة التعامل بصرامة فيما يخص هذا الأمر ويرى وجوب توفر فضيلتين أساسيتين في الجنود وهما فضيلة التواضع وفضيلة الصدق، بالإضافة إلى ميزة الحذر وعدم انتهاك القانون عند امتلاك السلاح.

بالإضافة إلى ما سبق ذكره في مسألة تكوين الجيش فإن ميكيافيلي يميز بين نمطين من الجيوش وهما الجيش الجديد والجيش المستمر، فلما يتعلق الأمر

1- المصدر نفسه، ص 66.

2- نيقولا ميكيافيلي، فن الحرب، ص 74.

بتكوين جيش جديد لم يكن له وجود من قبل، أي تأسس من العدم فإنه ينبغي انتقاء جنود من فئة عمرية ما بين السابعة عشر إلى الأربعين سنة، ولكن إذا تعلق الأمر بالتجنيد العسكري من أجل تدعيم صفوف وكتائب جيش مستمر في الخدمة منذ فترة معتبرة فيجب انتقاء جنود في حدود سن السابعة عشر أو أكثر بقليل، لأن الجيش في هذه الحالة يحتوي على عدد كافٍ من الرجال في سن النضج ، ويفهم من هذا أن ميكيافيلي يفضل أن يكون الجيش متكون من مزيج يجمع بين الشباب اليافع ورجال في سن النضج، أي الجمع بين عنصرين هما قوّة الفتوة وخبرة الرجال الناضجين.

وعليه نقول إن أهم ما يوصي به ميكيافيلي عند تكوين الجيش هو اعتماد انتقاء الجنود وليس تعيينهم، وعلى القائد أن ينتقي جنوده من رعاياه وليس من رعايا بلاد أجنبية، وهذا من أجل ضمان خلق العاطفة القومية التي ستشكل عنصر جامع لأفراد الجيش، وإلى جانب ذلك جعل ميكيافيلي مجموعة من المعايير التي ينبغي أن تتوفر في الجنود أهمها القدرة على تحمل مشقة أعمال الحرب والانضباط والتحلي ببعض الفضائل الأخلاقية كالتواضع والصدق والحذر واحترام القانون، ويوصي القائد في النهاية بضرورة العمل على توفير مزيج من الرجال يجمع بين أهل القوّة والفتوة وأهل النضج والخبرة.

4- الانضباط العسكري:

لم يختلف موقف ميكيافيلي في مسألة الانضباط العسكري عن مواقفه في المسائل السابقة الذكر، بل صنع فيه كعمود صنعه بحيث أراد إحياء روح جيوش جمهورية روما في حروبها بما في ذلك تلك التي خسروها، إذ لم يفتخروا بشيء أكثر من افتخارهم بصلابتهم وثباتهم في القتال، ولم يظهروا أدنى إشارات الخوف حتى في أسوأ الظروف مثل الظروف التي وضعهم فيها حنيبعل، وقد رأى ميكيافيلي في هذا التصرف للجيش الرومانية قيمة الشجاعة التي لم تكن سوى ثمرة الانضباط العسكري الذي عرفت به.

تدل كلمة الانضباط في المعاجم اللغوية عن حالة من التقيد بالنظام والواجب، وهي حالة تتطلب كفاءة في التنفيذ، وبالتالي فمصطلح الانضباط يستخدم للدلالة على النظام والالتزام، وعليه يصبح الربط بين الانضباط العسكري والشجاعة أمراً مستساغاً، كما يمكن التسليم مع ميكيافيلي بأن «الرجال غير المنظمين أو الغير منضبتين لا يتم الاعتماد عليهم ... النظام الجيد يجعل الرجال شجعاناً والارتباك يجعلهم جبناء»¹، فالانضباط في القوات المسلحة هو بمثابة روح الجيش ويشكل العنصر الأساسي في تقوية كفاءة الجيش وقدرته القتالية، لأن الانضباط يقضي على الخوف ويزرع الشجاعة في نفوس الجنود، وهذا ما قصده ميكيافيلي بقوله: «الانضباط الجيد والتدريب الجيد يخلق جنوداً جيدين في أي دولة، وعيوب

1 - نيقولا ميكيافيلي، فن الحرب، ص 106.

الطبيعة يمكن إصلاحها من خلال الفن والصناعة والمثابرة»¹، فالجندي الجيد هو الجندي المنضبط والذي خضع لتدريب منظم وينمي قدراته القتالية باستمرار ويكون قادر على ضبط نفسه والتحكم في قدراته العقلية والمعنوية والجسدية، ويسلم بالخضوع لقائده أو السلطة المقررة، فهو يتصف بالجدية والالتزام والدقة وحسن أداء الواجب والتفاني في العمل ونكران الذات وطاعة الأوامر.

لقد لاحظ ميكيافيلي أن هذه الصفات أصبحت نادرة الوجود في جيوش زمنه، وهذا الأمر لا يخص الجيوش الإيطالية فقط بل هي ميزة عامة في اغلب الجيوش الأوروبية إلا القليل منها مثل الجيش الألماني الذي رأى فيه النموذج المثالي لجيوش عصره مثلما كانت جيوش روما² وجيش الاسكندر مثال يحتذى به عند القدماء، يقول في هذا: «في الواقع كل شيء يستحق التقليد في الانضباط العسكري في هذه الأوقات مستمد من تلك الدول، حيث الغيرة من جيرانهم ومقت فكرة العبودية، فيأخذون كل الوسائل المناسبة للدفاع عن حرياتهم وبالتالي تستمر على الدوام حرة ومحترمة»³، واضح هنا أن ميكيافيلي قد جعل الدافع الأول للتحلي بالانضباط في القوات المسلحة هو الدفاع عن حرية الدولة والشعب وتجنب الوقوع في العبودية، والأمر ذاته نجده في جمهورية روما التي أجبرت جيوشها على

1- المصدر نفسه، ص 64.

2- يرى مونتيسكيو (1689م-1755م) أن المحارب الروماني هو أقوى جسما وأحسن تدريباً من خصمه، إنه يعتمد على نفسه، الشجاعة طبع له وخصلة يغذيها الشعور بقوته الذاتية، وكخلاصة يقول إنه لم توجد قط أمة استعدت للحرب بمثل احتراس روما وخاضت غمارها بمثل حزمها وهمتها.

أنظر: مونتيسكيو، تأملات في تاريخ الرومان أسباب النهوض والانحطاط، ترجمة: عبد الله العروبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 2011، ص 35 و 36.

3- نيقولا ميكيافيلي، فن الحرب، ص 130.

الانضباط خوفا من الشرور التي تحقق بها والمتمثلة أساسا في الخوف من الوقوع في العبودية وسلب ممتلكاتها وإحراق الدمار بها فهذا ما «أجبرهم على الحفاظ على حسن الانضباط بجيوشهم وتكريم أولئك المتفوقين في فن الحرب¹»، ولكن الأمر أصبح مختلف في زمن ميكيافيلي خاصة في المدن الإيطالية، بحيث لاحظ أنه قد غاب هذا الخوف من الوقوع في العبودية ، وأصبح أسوأ ما يتخوف من الأمراء هو إجبارهم على دفع الجزية، ففي زمن جيوش المرتزقة أصبح يمكن للدول التي تتعرض للغزو أن تفدي نفسها بتقديم مبالغ مالية لقادة المرتزقة، وبهذا تتفادى الوقوع في الشرور التي ذكرناها، وقد أدى استخدام المال وثروات الدول في هذا المجال «إلى عدم اهتمام الرجال بمواجهة الصرامة والمصاعب المستمرة للانضباط العسكري²»، وهذا الإهمال للانضباط العسكري لم يكن موقف خاص بالأفراد فقط، بل أصبح موقف دول برمتها، إذ أصبحت «العديد من الدول ترى أنه يمكنها فداء نفسها ومنع الخراب والدمار بالفدية، ولا تعرض نفسها ورعاياها إلى القلق المستمر الناتج عن الانضباط العسكري وتدريباته³»، وبذلك تكون هذه الدول قد اختارت أن تعيش حياة الكسل والتراخي والحياة الخالية من المتعب، وتكتفي بالسعي وراء التجارة وكسب الأموال تاركة مصيرها بيد آلهة الحظ فورتونا التي تحدد كل شيء بشكل مسبق وما على الإنسان إلا مسايرتها.

1- المصدر نفسه، ص 128.

2- نيقولا ميكيافيلي، فن الحرب، ص 128.

3- المصدر نفسه، ص 129.

السبب الثاني الذي دفع الناس إلى فقدان الرغبة في القتال حسب ميكافيلي هو الدين، ويقصد الدين المسيحي، يقول: «قد أحدث الدين مثل هذا التغيير في أسلوب الحياة والقيم البشرية لدرجة أنهم لم يعودوا بحاجة إلى الدفاع عن أنفسهم كما كانوا يفعلون من قبل»¹، فالدين المسيحي أصبح عاملاً معطلاً للعمل الحربي منذ انتشاره في العالم الأوربي، فالدول والحضارات والامبراطوريات التي عرفت أروبا قبل المسيحية كانت دول محاربة وتوسعية، فدياناتها السابقة عن المسيحية كان ديانات تحث على الحرب سواء الديانة الوثنية أو كتب العهد القديم، وربما صورت لنا الملحمة الشعرية لفرجيل² والتي كتبت ما بين عامي 29 و 19 ق م حقيقة دور الدين في الحرب، فالبطل إيناس Aeneis الذي سافر من طروادة إلى إيطاليا وأصبح فيما بعد يشكل أصل كل الرومان، وقد وصفه فرجيل في صورة الإنسان الذي يعظم الآلهة (الإله جوبتير) ويهتدي بهديها، بحيث كان يعلم إيناس «عن المجد القادم للطرواديين وروما وإمبراطورتها العظيمة، مجد سيتحقق ضد شعوب عديدة وتدميرها، من النيل إلى بحر قزوين، ومن ضمنها الحرب التي سيشنها إيناس نفسه في إيطاليا لتأسيس روما... وكان بقدر إيناس أن يشكك في شرعية الحروب القادمة وبعداة الحرب والغزو والاستعمار والإمبراطورية ولكنه لم

1-المصدر نفسه، ص 127 و128.

2- تسمى هذه الملحمة الشعرية باسم الإنيادا كتبتها فرجيل ما بين عامي 29 و 19 قبل الميلاد، بطلها هو إيناس Aeneis، شاب سافر من طروادة إلى إيطاليا حيث أصبح يشكل أصل الرومان، وصفه فرجيل في صورة الإنسان الذي يعظم الآلهة ويهدي لها الهدى.

يفعل ذلك»¹، إن في هذا دليل كافٍ على أن الإمبراطورية الرومانية قد تأسست على الحروب التي دعت إليها وباركتها الديانة الوثنية وعلى رأسها الإله جوبيتر.

على النقيض من هذا فالديانة المسيحية - كما سبق ذكره- كانت عامل معطل للحروب خاصة في القرون القليلة التي سبقت عصر ميخائيلي، فالمسيحية من الناحية التاريخية تعتبر دين تسامح وحب وسلام، لهذا كانت الكنيسة الكاثوليكية في بداية عهدها تنادي بمبدأ تكريه سفك الدماء «وهو مبدأ ماثل باستمرار في كتابات آباء الكنيسة وتشريعات المجامع، إذ كان ينظر إلى المشاركة في الحرب على أنها شر، والقتل يشكل انتهاكاً للوصية الخامسة (من وصايا الرب)، ولطخة الدم تنقل الضمير المسيحي، فحتى لو لطح مسيحي يديه بالدم في حرب عادلة فإنه يظل إثماً مع ذلك»²، والأكثر من هذا مما يثبت رأي ميخائيلي في دور الدور السلبي للدين المسيحي في الحرب هو أنه «في زمن كان يتعين فيه على المسيحيين أن يدافعوا عم أنفسهم ضد غارات أولئك الذين كانوا (المسيحيين) يعتبرونهم وثنيين، كان قتل الوثني يعتبر جريمة قتل»³، وقد وصف العديد من آباء الكنيسة دعاة الحرب بأنهم أبناء الشيطان والحرب في حد ذاتها شيء شيطاني، وهذا الموقف كفيل بتغيير سلوك الناس وقيمهم كما ذكر ذلك ميخائيلي، فالدين وفق هذا الموقف

1 - جون دوكر، أصل العنف، الدين والتاريخ والإبادة، ترجمة: علي مزهر، سلسلة دراسات فكرية جامعة الكوفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2018، ص 209.

2 - توماش ماستناك، السلام الصليبي، الجماعة المسيحية والعالم الإسلامي والنظام السياسي الغربي، ترجمة: بشير السباعي، المركز القومي للترجمة، مصر، الطبعة الثانية، 2009، ص 30.

3- المرجع نفسه، ص 30.

كان يحمل ما يكفي من المبررات لدفع الناس لاختيار حياة الكسل والتراخي والابتعاد عن الانضباط العسكري وما اعتبره رجال الدين شرورا للحرب.

ومن أجل إحياء هذا الانضباط العسكري في نفوس الجنود قدم ميكيافيلي في كتابه **فن الحرب** مجموعة من قواعد العامة للانضباط العسكري، رأى أنها واضحة وشائعة في الأوساط العسكرية، ويجب أن يعرفها القائد أو الأمير، أغلب هذه القواعد تخص القائد لكن فيها ما يخص الجنود أو ما يقع عليهما معا القائد والجندي، وقد صاغها ميكيافيلي بعد اطلاعه على طبائع جنود الجيوش الإيطالية في زمنه ومقارنة هذه الطبائع بتلك التي كان عليها جنود جمهورية روما، ولم يخفِ هذه لطبائع جنود زمانه التي وجدها تختلف اختلافا جوهريا عن طبائع وفضائل جنود جيوش جمهورية روما وجيوش الإسكندر المقدوني.

ركز ميكيافيلي في هذه القواعد على اظهار الجوانب الإيجابية للانضباط العسكري ودوره في تعويض النقائص الطبيعية التي يعاني منها الجنود، إذ ربط مثلا الشجاعة والانضباط العسكري قائلًا «القليل جدا من الرجال هم شجعان بطبيعتهم، لكن حسن الانضباط والخبرة تصنع العديد منهم أيضا»¹، فالانضباط شرط لشجاعة، ولكنه إذا غاب فلن تنفع الخبرة وحدها في تكوين جيش مهاب الجانب، وقد لاحظ ميكيافيلي أنه كان ينبغي أن تكون الجيوش الإيطالية من أقوى الجيوش

1 - نيقولا ميكيافيلي، **فن الحرب**، ص 282.

في عصره بحكم الخبرة التي اكتسبتها من الحروب الكثيرة التي خاضتها، لكنها بقيت عاجزة عن الدفاع عن حرمة البلد والشعب، وهذا راجع حسب ميكيافيلي إلى انعدام الانضباط في صفوف أفرادها، فغياب الانضباط يولد اضطراب الجيش، فمن كان «لديه اضطراب أكثر في قواته... فغالبا ما سيفقد الميزة التي حصل عليها سابقا وسيهزم»¹، فالاضطراب في الجيش يورث الهزيمة في الحرب، لهذا يؤكد ميكيافيلي على ضرورة فرض النظام والانضباط في الجيش ويميز بين طريقتين لإبقاء الجنود في حالة نظام جيد، فقبل الحرب يكون ذلك عن طريق الترهيب والعقاب، ولكن «عند وجودهم في أرض المعركة يكون عن طريق الآمال والمكافآت والثواب»²، فالترهيب والعقاب ضروريان لإرغام الجنود للالتحاق بكتائبهم وتجنب العصيان وحثهم على العمل بجد أثناء التدريب، أما الثواب وزرع الأمل أثناء المعركة فغرضه دفع الرجال للقتال بشجاعة وخلق الحافز لذلك في نفوسهم، كما أنه يمنع انقسام الجيش وتولي جزء منه أو التحاقه بقوات العدو، وعليه فالانضباط يخلق ويكرس العديد من الصفات التي من الضروري أن يتحلى بها المحاربون مثل الطاعة والقدوة الحسنة والكفاءة في تأدية الواجبات والمحافظة على الأسلحة والعتاد وغيرها من الصفات، فهذه المميزات إذا ما توفرت في جيش ما فهي كفيلة بإحداث الفرق أثناء المعركة، يقول ميكيافيلي: «إن مزايا وفضائل جنودك لها نتائج أفضل بكثير من أعدادهم»³، وعليه فإن ميكيافيلي يعطي للرجال دور حاسم في الحرب، ولكنه يشترط فيهم التحلي بالانضباط أكثر من أي شيء آخر، إذ يعلنها صراحة

1- المصدر نفسه، ص 283.

2- المصدر نفسه، ص 284.

3- نيقولا ميكيافيلي، فن الحرب، ص 283.

أنه «يمكن الاعتماد على حسن النظام والانضباط في الجيش أكثر من الشجاعة»¹، فالجيش المنضبط حسب ميكيافيلي هو الجيش الصالح لأنه يؤثر بالإيجاب على الجانب السياسي في الدولة وهو إحدى الشروط الضرورية في الدول الناجحة، ويبرر ميكيافيلي موقفه هذا بالتأكيد على أن «الحصول على قوانين صالحة وحلفاء صالحون على السواء يعتمد على امتلاك جيش صالح»²، وبهذا يعود إلى الربط بين ما هو سياسي بما هو عسكري ويجعل الأساس الأمتن لأي دولة هو الجيش القوي والصالح.

5- القائد أو الأمير:

يعلن ميكيافيلي في الفصل الرابع عشر من كتاب الأمير أنه «على الأمير ألا يستهدف شيئاً غير الحرب وتنظيمها وطرقها، وألا يفكر أو يدرس شيئاً سواها، إذ أن الحرب هي الفن الوحيد الذي يحتاج إليه كل من يتولى القيادة»³، فالهدف الرئيسي للأمير هو الحرب ولا شيء سواها، أي عناصرها المتضمنة في طرق تنظيم شؤونها وتعلم طرق خوضها، ويلخص ذلك ميكيافيلي بمصطلح فن الحرب الذي يحمل مدلوله الاستراتيجية الحربية والتعبئة والتكتيك الحربي، ويضاف

1- المصدر نفسه، ص 8365.

2- دايفد باوتشر، النظريات السياسية في العلاقات الدولية، ص 265.

3- نيقولا ميكيافيلي، الأمير، ترجمة: خيري حماد، دار الأفاق الجديدة، بيروت، لبنان، الطبعة السابعة، 1975، ص 131.

إليه فن العمليات الذي يبحث في الأسس النظرية والتطبيقية لخوض المعارك والعمليات والحرب بالكامل¹، فهذا الفن هو ما يحتاج إليه من يتولى القيادة، والسبب في ذلك حسب ميكيافيلي هو أن الاهتمام بفن الحرب واتقانه لا يسمح فقط للأمرء الذين يولدون أمرء بالمحافظة على دولهم، بل يسمح كذلك لأبناء الشعب بالوصول إلى تلك المرتبة، أما ازدياد هذا الفن فهو «السبب الرئيسي في ضياع الدول وفقدنها»²، وفي هذا دلالة واضحة على وجود علاقة تلازمية بين إتقان فن الحرب والحصول على الدول والإمارات ومحافظة الأمير على سلطته عليها، كما يذكرنا هذا بموقف ميكيافيلي القاضي ببط ظهور الدولة إلى الوجود أو تأسيسها بمسألة التوسع أو الحروب التوسعية، وبهذا تتلازم الدولة والحرب في الوجود وتتماهيان في شخص الأمير أو القائد، ويدل هذا مرة أخرى على الصلة التي يعقدها ميكيافيلي بين ما هو سياسي وما هو عسكري في الدولة.

إن الأمير الذي تتماهى فيه الدولة والحرب لا ينبغي له أن يفكر أو يهتم بالترف والرخاء أكثر من اهتمامه بالحرب والسلاح، لأنه إن كان جاهلاً «بالمسائل العسكرية يتعرض ... إلى احتقار جنوده، بينما يشك هو بدوره في ولائهم وإخلاصهم»³، فجهل الأمير بفن الحرب يؤدي إلى كسر وتدمير لب العلاقة التي

1- محمد عبد القادر الدغستاني، فن الحرب الصيني القديم، دار أمنة، عمان، الأردن، 2013، ص 7 و8.

2- نيقولا ميكيافيلي، الأمير، ص 131.

3 - نيقولا ميكيافيلي، الأمير، ص 132.

تربط القائد بجيشه والمتمثلة في رابطة الولاء¹ التي تتجلى في التفاني الإرادي والعملي والدائم من قبل الجنود تجاه قائدهم ووطنهم، وهذا ما يدفعهم ليهب كل فرد منهم نفسه لخدمة وطنه طواعية، وعليه ففكرة الولاء مرتبطة كذلك بفكرة الحرب ولها دور حاسم فيها، «فالحرب توفر فرصة هامة ونادرة للإخلاص النابع من الولاء، فإذا ما اختفت الحروب تفقد المدينة واحدة من أفضل قيمها (يقصد الولاء)»²، فالحرب والولاء فكرتين مرتبكتين برابطة وثيقة وعليه يستنتج ميكيافيلي أن الأمير حين يهتم بإحدى هاتين الفكرتين فهو يهتم بالأخرى بالضرورة.

إن اهتمام الأمير بالحرب لا يكون مقتصرًا فقط على أيام الحرب، بل يجب أن «لا يسمح لأفكاره بأن تذهب بعيدا عن مراس الحرب، وعليه في أيام السلم أن يكون أكثر اهتماما بها من أيام الحرب»³، وعليه فأيام السلم حسب ميكيافيلي ما هي المرحلة إعداد لحرب جديدة، أو هي مرحلة سلم مسلح، وربما كانت نتيجة الحرب متعلقة بدرجة الاهتمام والاستعداد لها في وقت السلم، فكلما زاد اهتمام الأمير بها في وقت السلم كان اقترابه إلى النصر والظفر به أكبر.

1 - يصف ديفيد هيوم فكرة الولاء بقوله: «إذ أؤكد، أنه على الرغم من أن واجب الولاء يقوم منذ البدء على الالتزام بالعهد، ويدعمه لحين من الزمن ذلك الالتزام، إلا أنه سرعان ما يضرب جذوره بذاته ويكون له واجب أصل وسلطة»، فالولاء والخضوع حسب ديفيد هيوم غرضه الحفاظ على أي نظام ثابت في المجتمع من أجل تحقيق المصلحة العامة، وهذا يتقارب مع ما أشار إليه ميكيافيلي.

أنظر: ديفيد هيوم، رسالة في الطبيعة البشرية، ترجمة: عبد الكريم ناصيف، دار الفرقد، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، 2016، ص 542 و544.

2- جوزايا رويس، فلسفة الولاء، ترجمة: أحمد الأنصاري، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، الطبعة الأولى، 2002، ص 37.

3- نيقولا ميكيافيلي، الأمير، ص 132.

لكن طبيعة الاهتمام بالحرب في أيام السلم تختلف عن طبيعة الاهتمام بها أثناء الحرب، إذ يرى ميكيافيلي أن الأمير يتمرس على الحرب أيام السلم «بواسطة أحد السبيلين وهما العمل والدراسة»¹، أي أن الميراس ينقسم إلى جانب نظري وجانب تطبيقي يتمثل في محاكاة أحداث الحرب، وسوف نبين ما يتوجب على الأمير مراعاته في كل جانب.

الجانب النظري قائم على العقل، ويعتمد فيه الأمير على قراءة «التاريخ وأن يدرس أعمال الرجال البارزين، فيرى أسلوبهم في الحروب ويتفحص أسباب انتصاراتهم وهزائمهم، ليقلدهم في هذه الانتصارات ويتجنب الوقوع في الأخطاء التي أدت الهزائم، وأن يفعل كما فعل غيره من الرجال في الماضي»²، نلاحظ هنا أن ميكيافيلي قد صنع كمعهد صنيعة بحيث جعل من القدماء قدوة للأمير الذي يريد أن يحوز النصر في الحرب، وهذه الوصية بتقليد القدماء واعتماد الأساليب ذاتها للظفر بالنصر في الحروب تدل على اعتقاده بأن طبائع الناس لا تختلف من عصر إلى آخر وأن أسباب النصر يمكن أن تكون ذاتها وكذلك بالنسبة لأسباب الهزيمة، فالحرب كاستراتيجية عند ميكيافيلي تعتمد في جزء كبير منها على التقليد والمحاكاة للقدماء في أساليبهم وخدعهم وغيرها من الأمور المتعلقة بها، ولكن على النقيض من هذا نرى ضرورة التذكير بقول ميكيافيلي بأن الإجراءات ذاتها حين يطبقها قائدان يمكن أن تؤدي بأحدهما إلى النصر والآخر إلى الهزيمة، وهذه

1- المصدر نفسه، ص 132.

2- نيقولا ميكيافيلي، الأمير، ص 134.

المفارقة تجرنا إلى التطرق إلى الجانب الثاني من جوانب ميراس الأمير للحرب أيام السلم وهو الجانب التطبيقي.

إن الجانب التطبيقي أو ناحية العمل في التمرس على الحرب لا يكون مقتصرًا على الأمير فقط حسب ميكيافيلي بل يشمل كذلك الجنود، إذ «يتوجب عليه بالإضافة إلى الإبقاء على جنوده في حالة من التدريب والنظام ... أن يعود جسمه على المشاق، وأن يدرس في غضون ذلك طبيعة البلاد»¹، فإذا كانت قضية الانضباط العسكري وطرق فرض النظام في الجيش قد تطرقنا إليها في العنصر السابق، فإن الشق المتعلق بالأمير يمكن أن يدركه «بطريقتين: أولهما أن يعرف الإنسان كل شيء عن بلاده، وأن يقرر أحسن السبل للدفاع عنها، وثانها أن معرفته وتجاربه في منطقة واحدة تحمله على تفهم المناطق الأخرى التي يضطر إلى مراقبتها»²، وعليه فمعرفة البلاد من الجانب الجغرافي وإسقاط هذه المعرفة على البلدان الأخرى المشابهة لبلده يسهل على الأمير أمور التخطيط الحربي ووضع الاستراتيجيات الحربية وحصار المدن وقيادة المعارك وغيرها من العمليات الحربية، فهذه المعارف هي التي تصنع الفرق بين أمير وآخر رغم أنهم اتبعوا الإجراءات ذاتها، ولهذا يوصي ميكيافيلي الأمير العاقل بتتبع هذه الأساليب في أوقات السلم لكي يكون متأهبًا لمواجهة العدو وقادر على التغلب على الصعاب التي تواجهه أثناء الحرب.

1- المصدر نفسه، ص 132.

2- نيقولا ميكيافيلي، الأمير، ص 132، 133.

وحيث تدق طبول الحرب يصير اهتمام الأمير مركز على جوانب أخرى، تتلخص في مجملها في تطبيق أهم ما استفاده من استعداداته في فترة السلم، وأهمها حسب ميكيافيلي هي الرجال والأسلحة والمال والمؤن، لأنها تشكل «عصب الحرب، ولكن من بين هؤلاء الأربعة، أول اثنين هما الأكثر ضرورة، حيث إن الرجال والأسلحة سيقومون دائما بإيجاد المال والمؤن، ولكن المال والمؤن لا يمكنهما دائما تكوين وإنشاء الرجال والأسلحة»¹، وبهذا يؤكد ميكيافيلي موقفه من جيوش المرتزقة التي اعتمدت المدن الإيطالية في زمنه عليها، حيث أغدقت عليها بالأموال من أجل إقناعها بالدفاع عنها، ولكن في النهاية لم تفعل هذه المدن سوى أنها وضعت ثرواتها في أيادي قادة المرتزقة الذين لم يحققوا لها الأمن المنشود.

من جهة أخرى يرى ميكيافيلي أنه على الأمير أن يهتم أثناء الحرب ببعده من كل الجوانب، بحيث يراقب حركاته وخطته الحربية، وفي مقابل ذلك يخفي قدر المستطاع خطته هو عن عدوه، والوقوف على مقدار قوة العدو ومقارنتها بقوته، والتأكد من عدم وجود جواسيس في مخيمه، ويلخص كل هذا في قاعدة واحدة مفادها «كل ما يخدم العدو ضار بك، وكل ما يمكنه أن يحدث ضررا له فيمكن أن يخدمك»² يعني هذا أن معرفة أحوال العدو من حيث العدد والعدة

1- المصدر نفسه، ص 284.

2- نيقولا ميكيافيلي، الأمير، ص 282.

يعتبر مصدر قوّة لك، فإذا عرف القائد مقدار قوته ومقدار قوة العدو جيدا فنادرا ما يخطئ في اتخاذ القرار حسب ميكيافيلي.

كما يوصي ميكيافيلي بضرورة الاقتصاد في استخدام القوّة واعتماد الطرق الأقل كلفة لهزم العدو، إذ يرى «أن إخضاع العدو بالجوع أفضل من السيف»¹، وألا يشترك في الاشتباك إلا إذا كان مجبرا على ذلك بحكم الضرورة التامة، وأن يقسم العمل بانتظام بين الكتائب ويتأكد بنفسه من عدم تكليف الكتيبة ذاتها بأكثر من عمل واحد حتى يتفادى الارتباك والإجهاد عند بداية المعارك، وأن يعطي العناية اللازمة بالمخزون الكافي من المؤن والذخيرة²، وإلا فإن الهزيمة هي مصيره المحتوم.

وتبع ذلك نقول إن ميكيافيلي يقيم فكره على المبدأ القائل بأن الدولة يجب ألا تهتم سوى بمصلحتها العليا، وبما أن الأمير هو رأس هذه الدولة فلا بد أن يسعى لتحقيق هذه الغاية ويجب أن يكون «ممجدا للقوّة والكفاءة فوق جميع الأشياء»³، فالقائد أو الأمير لا يمكن اختياره إلا بناءا على المؤهلات التي أهلته لذلك ورجحت كفته بالمقارنة مع أقرانه، يقول ميكيافيلي: «إذا كان الابتكار الجاهز والسريع ضروريا

1- المصدر نفسه، ص 282.

2- نيقولا ميكيافيلي، الأمير، ص 283.

3 - جون هرمان راندال، تكوين العقل الحديث، الجزء الأول، ص 312.

ومشرفا في أية مهنة فيجب أن يكون كذلك في فن الحرب قبل كل شيء»¹، وعليه فأهم المؤهلات التي يجب أن تتوفر في القائد هي القدرة على الابتكار في الوسائل والطرق التي يمكن تشكل إحدى أسباب النصر في الحرب وتضمن حفظ بقاء الدولة.

لتحقيق هذا الغرض الذي خرج لأجله الجيش، يفضل ميكيافيلي أن يتولى قيادته الجيش قائد واحد لا أكثر، ويعتبر أن القيادة الجماعية هي في الغالب مصدر إزعاج وقد تكون سبب لمنع النصر وتحقيق الهدف، لذا فمن «الأفضل أن يعهد بها بالجملة إلى رجل وسط في ترويه وحكمته من أن يعهد بها إلى رجلين يتمتعان بالكفاية البارزة مع اقتسامهما الصلاحيات بينهما»²، ويرجع سبب ذلك إلى أن القيادة الجماعية تؤدي إلى اختلاف الرؤى ووقوع الخلافات بين القادة وهذا ضره بين ووقوعه حاصل قبل نشوب المعارك والاشتباك، كما يمكن أن ينشوء الضرر من القيادة الجماعية ليس بفعل الخصومات والتعارض في المواقف والغيرة الحاصلة بين القادة، بل من تقاعس أحدهم وقعوده عن أداء دوره وإهماله عمله كقائد ورفضه تقديم المساعدة لا من خلال العمل ولا من خلال المشورة.

يضاف إلى هذا أن القيادة الجماعية تقتضي بالضرورة اتخاذ قرارات جماعية وبالإجماع، وهذا ربما أدى إلى عدم التوافق على الأفكار المبتكرة والغير

1- نيقولا ميكيافيلي، فن الحرب، ص 286.

2- نيقولا ميكيافيلي، المطارات، ص 663.

مألوفة وخاصة تلك التي فيها مخاطرة كبيرة في تنفيذها، وهذا ما يجعل من القرارات الصادرة عن القيادة الجماعية قرارات متوقعة وتفنقر لعنصر المفاجأة، يعني هذا أن القيادة الجماعية قد تكون سببا مباشرا في منع بروز عبقرية القائد وتميز أسلوبه، لهذا نجد ميكيافيلي يجزم بالقول إنه «من الخير في إدارة شؤون الساعة أن يعهد بالقيادة العليا إلى يدي رجل واحد»¹، ولكن لا يعني هذا أن ميكيافيلي يرفض فكرة المشورة حول القرار المناسب بل، يرى ضرورة ذلك إذ يقول: «بعد تشاورك مع العديد حول ما يجب عليك القيام به، تشاور مع عدد قليل جدا بخصوص ما ستقوم بتنفيذه في الواقع»²، فأشراك القادة المساعدين في الرأي واجب على القائد لكن القرار الأخير يجب أن يكون له وحده فقط.

كما يطرح ميكيافيلي بهذا الخصوص تساءلا آخر مفاده هل من الأفضل أن يكون لدى الدولة قائد ممتاز وجيش سيء أو من الأحسن أن يكون لها قائد سيء وجيش ممتاز؟ يجيب عن هذا التساؤل بما ينسجم مع تصوره لتكوين الجيش، يقول: «أرى أن في وسع الإنسان أن يضع مزيدا من الثقة في القائد الذي يجد الوقت الكافي لتدريب رجاله والفرصة اللازمة لتسليحهم»³، وعليه فهو يرى أن القائد هو الذي يصنع الجيش إذا توفرت له الظروف المناسبة لذلك وليس العكس.

1- المصدر نفسه، ص 662.

2- نيقولا ميكيافيلي، فن الحرب، ص 284.

3 - نيقولا ميكيافيلي، المطارات، ص 656.

بعد أن انتهى من وصف وتحليل ما ينبغي أن يكون عليه الأمير العاقل في أيام السلم وفي أيام الحرب، يعود ميكيافيلي إلى انتقاد أمراء المدن الإيطالية في زمانه، فأظهر عيوبهم المتعلقة بشخصهم وتلك المتعلقة بطرق تسيير شؤون دولهم، وسعى إلى إثبات وجود علاقة وطيدة بين الجانبين، ويجادل هنا أنه «لا يمكن في الواقع لوم الشعب على هذا (أي الحالة التي هي عليها إيطاليا في أيامه) وإنما حكامهم»¹، هؤلاء الحكام الإيطاليون الذين كانوا من الضعف والجبن ولفترة طويلة بحيث لم يتمكنوا من وضع القوانين العسكرية التي تغرس الفضيلة الأساسية في الجيش وهي فضيلة الشجاعة سواء عن طريق انتقاء من هم أهل لها أو عن طريق فرض الانضباط والنظام، وبذلك أصبح هؤلاء الأمراء في نظره هم أهل للاحتقار والسخرية، ومرد ذلك هو جهلهم بما ينبغي للأمير أن يهتم به، إذ اعتقدوا «أنه كاف بالنسبة للأمراء... التفوق فقط في الهزل واللعب وتقويض وخذاع بعضهم البعض ... والانغماس في الكسل والخمول، والتخلص من الفخر العسكري وترقية القوادين والطفيليات المتسلقين، وإهمال كل أنواع الجدارة والامتياز، وترهيب كل من يسعى للإشارة إلى شيء مفيد أو يستحق الثناء»²، فهذه الطبائع السيئة هي عنوان فسادهم وسبب فساد الشعب وصعوبة إصلاحه حسب ميكيافيلي، وهي حالة ناتجة عن انعدام التبصر لدى هؤلاء الحكام، وكان هذا كافي لوضعهم هم وشعوبهم تحت رحمة الغزاة، ولخص في النهاية ما ينبغي أن يكون عليه القائد أو الأمير بقوله: «يجب على القادة أن تكون مساعهم الأساسية هي تعريض أجسامهم لجميع أنواع المشقة والتعب وتحصين عقولهم ضد الخطر والخوف من الموت لذلك حارب يوليوس

1- نيقولا ميكيافيلي، فن الحرب، ص 291.

2- نيقولا ميكيافيلي، فن الحرب، ص 291 و 292.

قيصر والاسكندر المقدوني وجميع هؤلاء الرجال والأمراء الممتازين دائما على رؤوس جيوشهم»¹، وعليه فالقائد يجب أن يجمع بين قوّة الجسم وسداد الرأي وإتقان الفعل والعمل ورغبة الإقدام.

6- الحرب:

سبق وأن قدمنا وجهة نظر ميكيافيلي حول الحكمة العملية من تأسيس الدولة أو الجمهورية أو أي كيان حكم، ورأينا أنه جعل هذه الحكمة في التهيؤ للتوسع أو الإمبريالية، والتي اعتبرها «توسع أو امتداد للحافز الطبيعي للرغبة بالمزيد، والحصول عليه متى كانت ثمة المقدرة على ذلك ... والعيش وفق المصادر المتوفرة ليس فضيلة»²، فالحروب بين الدول هي نتيجة الحافز الطبيعي الذي يدخل في بنية الدولة، وعليه يمكن القول إن الحروب سواء الدفاعية أو الهجومية التوسعية هي إحدى أسباب نشأة الدول أو أي كيان حكم، أو أنها من أهم هذه الأسباب وفق ما يمكن فهمه من موقف ميكيافيلي، لكن ما يهمنا أكثر هو أنه اعتبر الحرب سلوك طبيعي للدولة التي يفترض أنها وجدت من أجل أن تصير إمبراطورية.

¹ - المصدر نفسه، ص 292.

² - دايفد باوتشر، النظريات السياسية في العلاقات الدولية، ص 207.

يمكن انطلاقاً مما سبق ذكره اعتبار الحرب عند ميكيافيلي عملاً مبرراً ومقبولاً مادامت تخدم مصلحة الدولة وغايتها، فهو «قد حاول تحديد مفهوم الحرب انطلاقاً من تحقيق سلطة قوية وقادرة على فرض ذاتها داخلياً ونفوذها خارجياً»¹، لهذا نجد أن فهم فكرة الحرب عند ميكيافيلي تستوجب الارتكاز على تصوره لمجموعة مسائل تشكل الإطار العام لهذه الفكرة، وتتمثل هذه المسائل في صفات القائد أو الأمير، ومسألة تكوين الجيش وغاية وجود الدولة وأسلوب قيادتها، وضرورة المحافظة على السلطة التي يعتبرها ميكيافيلي «الأساس الذي يقوم عليه مفهوم الحرب»²، فالقائد من واجبه القيام بالحروب من أجل حماية سلطته ودولته وشعبه من العدو الداخلي والعدو الخارجي، كما يتوجب عليه حماية أحلافه وأتباعه، وهو في ذلك يعتمد على الجيش الذي ينبغي أن يتكون من أبناء وطنه، فالحرب من هذا المنظور تفرضها الضرورة الاستراتيجية على الأمير حتى وإن كانت ممقوتة من طرف الرعية.

إن الحرب عند ميكيافيلي يعلنها الحاكم أو القائد ولكن نهايتها تبقى مفتوحة، وليس لأحد أن يقرر إنهاؤها إلا الظروف التي يخلقها القتال الميداني، يقول ميكيافيلي: «لما كان من الميسر لكل من يملك السلطة اللازمة أن يبدأ أية

1- ناصر الدين سعيدوني، مفهوم الحرب في عصر النهضة، مجلة عالم الفكر، العدد 36، الكويت، 2007، ص 149.

2- ناصر الدين سعيدوني، مفهوم الحرب في عصر النهضة، ص 150.

حرب يشاؤها، دون أن يتيسر له إنهاؤها»¹، فالحرب هي أهم شأن من شؤون الأمير، ويكون نشوبها بالسبب ذاته الذي وجدت من أجله الدولة، والمتمثل في التوسع والحفاظ على السلطة، وإذا قمنا بتحليل هذا السبب فإننا نجد أن ميكيافيلي يقول بوجود طريقتين أساسيتين لنشوب الحرب وهما كالتالي:

الطريقة الأولى تكون بالهجوم على أراضي الدول المجاورة من أجل ترحيل جزء من الشعب وطلباً لأرض جديدة، وذلك بعد أن تصبح أرض الدولة عاجزة عن توفير كل حاجيات شعبها، وفي هذه الحالة «من الضروري كل الضرورة التخلص من جميع السكان، طالما الشعب الجديد يعيش على ما كان يعيش عليه الشعب الأول»²، تعتبر هذه الطريقة طريقة استعمارية بحتة تعتمد على أسلوب الإبادة، وهي الطريقة ذاتها التي اعتمدها الإمبراطورية الرومانية في شمال إفريقيا وكذلك فعل الإسبان والإنجليز والفرنسيين حين تم اكتشاف أمريكا، إذ أنهم أبادوا ما يقارب مئة وعشرون مليون شخص من السكان الأصليين لأمريكا³، وبقيت هذه

1- نيقولا ميكيافيلي، المطارحات، ص 467.

2- المصدر نفسه، ص 461.

3- يقول **منير العكش**: «أدى تطبيق تقنيات العمل بالسخرة والتجويب الاجباري والترحيل الجماعي وتحطيم المعنويات إلى شحذ أنياب العامل الطبيعي، وإلى ما يعرف بالشنات الكبير الذي اقتلع عددا كبيرا من الشعوب الهندية من أوطانها وساقها إلى الغرب أو الشمال الكندي فرارا بحياتها وحياء أبنائها من الإبادة الجماعية»، وفي السياق نفسه يصف **أوليفي لوكور غرانميرزون** سياسة الدول الاستعمارية في تصريف الفائض السكاني نقلا عن **بورديي** وهو أستاذ الجغرافية الطبية بمعهد الأنتروبولوجيا، قائلا: «إن البؤس هو السبب الأصلي لهذه الظاهرة في أوروبا، فقد عرفت كل من بريطانيا العظمى وألمانيا وإيرلندا، وما استرعى اهتمامه أكثر هو نجاح المملكة المتحدة في استخدام موادها غير الصالحة ومن لديها من المتمردين والمدمنين على الإجرام لتعمير ممتلكاتها فيما وراء البحار، ثم شبه المجتمعات الأوربية بالكائنات

السياسة متبعة من طرف الدول الاستعمارية إلى غاية النصف الثاني من القرن العشرين، وبالمختصر نرى أن هذه الطريقة تعتمد على التوسع والحصول على أراض جديدة من أجل تصريف الفائض السكاني من جهة وتوفير المزيد من الموارد للدولة من جهة أخرى وهذا تحقيقاً للسلم الداخلي.

أما الطريقة الثانية في نشوب الحرب فسببها راجع «إلى مطامع الأمراء أو الجمهوريات، وهي المطامع التي تستهدف إقامة الإمبراطوريات، والتي تتطوي تحت موضوعها الحروب التي شنها الإسكندر الأكبر، وتلك التي شنها الرومان»¹، وهذا يدل على أن اشتداد رغبة الأمراء في بناء الإمبراطوريات وسعيهم للاستحواذ على ما يمكنهم من ذلك يقتضي إتباع أساليب التوسع التي سبق ذكرها، وإحدى أهم هذه الأساليب هي إقامة الأحلاف السياسية مع احتفاظ الأمير لنفسه بحق القيادة واتخاذ القرار، أو جعل الدول الأخرى مجرد أتباع، فهذه الحالة يمكن أن تؤدي في أي لحظة إلى إفساد العلاقة بين الدول الكبرى أو الأقطاب الدولية، وذلك بمجرد أن تعتدي إحدى الدول الكبرى على أحد أتباع أو أحلاف الدولة الأخرى، وهو ما يجعل

الحية التي بلغت مرحلة الشيخوخة حيث تراكمت الفضلات والنفايات وكثر عدد الأفراد المتخلفين إلى درجة تهدد بإثارة اضطرابات خطيرة، ثم راح يؤكد أن حماية الجسم الاجتماعي يقتضي التخلص منهم تماماً كما يلفظ الجسم أي عضو أجنبي»

أنظر: منير العكش، أميركا والإبادات الجماعية، دار رياض الرايس للكتب والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2002، من ص 40 إلى ص 45.

وكذلك: أوليفي لوكور غرانميزون، الجمهورية الإمبراطورية، في سياسة الدولة العنصرية، ترجمة: مسعود حاج مسعود، دار القصبه للنشر، الجزائر، 2009، من ص 348 إلى ص 366.

1- نيقولا ميكيافيلي، المطارات، ص 460.

هذه الأخيرة في حالة اضطرار لخوض الحرب ضد الدولة المعتدية دفاعاً عن حليفها.

الحرب في هذه الحالة لا يمكن تجنبها من ناحيتين: فمن الناحية الظاهرية يكون الأمير ملزم بها «إذ يبدو لهم أنه من العار أن لا يدافعوا عن قدم لهم الولاء وأصبح من حلفائهم»¹، وعليه فالحجة الظاهرة لهذه الحرب تكمن في سعي الأمير للاحتفاظ بشرفه وشرف دولته بالالتزام بالوفاء بالعهد التي قطعها مع حلفائه، وهذا ما يجعل من هذه الحجة حجة أخلاقية بامتياز، وقد وظفها ميكيافيلي بشكل ملائم في وصفه للعلاقات الدولية.

لكن من الناحية الواقعية أو من ناحية جوهر الحقيقة فإن ميكيافيلي يرى أن الأمير يشن هذه الحرب لأنها فقط تخدم أطماعه ورغبته الشديدة في إقامة إمبراطورته، ويقول في هذا السياق: «اعتقدوا بأنهم إذا لم يسارعوا إلى الدفاع عنهم، فإن هذا قد يقيم العوائق في طريق كل من يفكر بالخضوع لسيطرتهم»²، فالحرب من الناحية الواقعية إذن هي خطوة استراتيجية يسعى من خلالها الأمير للحفاظ على سلطته، ويدعم بها نهمه وتطلعاته التوسعية الإمبريالية، وعليه نرى أن البعد الأخلاقي الظاهري للحرب ما هو إلا مجرد غطاء لهذا البعد الحقيقي الواقعي، وصدق هذا الاستنتاج مشروط بصدق الطرح الميكيافيلي القاضي بكون غاية

1- نيقولا ميكيافيلي، المطارات، ص 466.

2- المصدر نفسه، ص 466.

تأسيس الدولة يستهدف الفتح والمجد وليس الخلود إلى الراحة والاكتفاء بما هو ميسر فقط، لذا فإن الأمير لن يرضى أن يخسر سمعته التي يحتاج إليها من أجل تحقيق الأهداف التي يرمي إليها، وهنا يتجلى لنا الربط بوضوح بين ما هو عسكري وما هو سياسي.

إن التوسع وبناء الإمبراطوريات ليس هدفا في حد ذاته، بل هو اختيار غرضه الحصول على شيء آخر حسب ميكيافيلي الذي يرى أن «الذين يشنون الحروب بدافع الاختيار أو الطموح هو الحصول على شيء ما، والحفاظ على ما يكسبونه، وإن يسيروا لتحقيق ذلك من طريق يوصل بلادهم التي هي وطنهم إلى الثراء لا الفقر»¹، فالهدف الحقيقي من هذا النوع من الحروب هو تحقيق ثراء الدولة، وهو الهدف الذي يتطابق مع موقف ميكيافيلي من عصب الحرب، حين جعله في الرجال الشجعان والأسلحة الجيدة أكثر من كونه في المال والمؤن، وأكد أن الرجال والأسلحة يمكنهما أن يوفرنا المال والمؤن، ولكن المال والمؤن لا يمكنهما إيجاد الرجال الشجعان والأسلحة.

حين يركز ميكيافيلي في الحرب على الرجال والأسلحة، فإنه يوصي في ذات الوقت بأن تكون الحرب قصيرة وساحقة قدر الإمكان، من أجل تفادي الإفراط في الإنفاق عليها، فكلما طال أمد الحرب وجب على الأمير دفع أجور الجند وتوفير

1- نيقولا ميكيافيلي، المطارات، ص 456.

المؤن لهم، وهو ما يشكل عبئاً ثقيلاً لخزنة الدولة، ولكن في حالة العكس، أي إذا «لم يتخلوا عن مبدئهم الأساسي في إنهاء الحرب بسرعة وفق ما تسمح به الظروف الزمانية والمكانية»¹، فهذا يؤدي إلى تقليص نفقات الحرب من جهة، والحفاظ على حياة الرجال من جهة أخرى.

كما أن الحرب القصيرة المدة - وخاصة في حالة النصر - تؤدي جعل قيمة الغنائم أعلى بكثير من قيمة نفقات الحرب، وهو ما يسمح باغتناء الدولة وتحقيق الرخاء لأفراد شعبها، لأن الأمراء لن «يجدوا أنفسهم ملزمين بفرض الضرائب على المدينة للإِنفاق على مشاريعهم، وقد أدى هذا الإجراء في وقت قصير إلى ثراء الخزنة العامة»²، ومن الواضح أم المال أو الذهب يكون في الغالب هو هدف للحرب أكثر من كونه وسيلة لها، بمعنى أن الدولة الغنية والتي تكون عاجزة عسكرياً يصبح ثراؤها سبباً في تعرضها للغزو نتيجة طمع الأعداء فيه، وهكذا يلحق الدمار بالدولة بسبب المال الذي قد جمعه الأمير من أجل الدفاع به عن شعبه وملكه، وعلى ضوء هذه الشواهد يؤكد ميكيافيلي أن «الذهب لا يؤلف عصب الحرب كما يفترض الكثيرون، وإنما عصبها خيرة الجنود»³، فالمال ضروري لا محالة لكن قيمته مثل قيمة طبيعة البلاد في الحرب، تكون قيمة ثانوية إذا ما قورنت بقيمة الجنود الصالحين.

1- المصدر نفسه، ص 457.

2- نيقولا ميكيافيلي، المطارات، ص 458.

3- المصدر نفسه، ص 470.

نستنتج مع ميكيافيلي أنه ووفق هذا الطرح نجد أن هناك «ثلاثة أمور على جانب كبير من الضرورة للحرب، وهي وفرة الجنود البواسل، وحكمة القادة، وحسن الطالع»¹، فرغم تأكيده على ضرورة تكوين جيش وطني ذي نزعة قومية تدفعه للدفاع عن وطنه وأهله وأملاكهم، ويكون مدربا تدريباً كافياً ومسلحاً تسليحاً عسكياً ويكون تحت إمرة قائد واحد ذو دراية كافية بشؤون الحرب وأعمالها، إلا أن ميكيافيلي لم يتمكن من استبعاد دور الحظ أو دور آلهة الحظ فورتونا، بحيث جعل حسن الطالع أمر حاسم في أي حرب، ورأى أن الحروب تميزت بطابع الامتزاج بين الحظ والفضيلة والروية، الأول خاص بالآلهة والثاني خاص بشجاعة الجند وأما الثالث فهو من خصال القائد أو الأمير.

1- المصدر نفسه، ص 472.

الفصل الثالث: تصور

الحرب عند فلاسفة

العقد الاجتماعي.

الفصل الثالث: تصور الحرب عند فلاسفة العقد الاجتماعي

المبحث الأول: الحرب كحالة طبيعية عند توماس هوبز¹.

قدم توماس هوبز فلسفته السياسية في ثلاثة كتب رئيسية وهي كتاب **عناصر القانون** نشره عام 1640م، وكتاب **في المواطن** نشره عام 1642م والكتاب الثالث هو **اللفياتان** نشر عام 1651م، هو أهم مؤلفات هوبز باعتبار أنه يحتوي «كل فكر هوبز، وكتابات الأخرى إما أنها تحضيرات للمؤلف الكبير، أو أنها تنمات أو ملاحق»² لهذا الكتاب، ورغم أهميته عند المهتمين بالفلسفة في العصر المعاصر إلا أن برتراند راسل ذكر أنه «حين نشر اللفياتان سنة 1651م لم يرق ضايقت الحكومة الفرنسية، ومن ثم، هرب إلى لندن سراً... وامتنع عن كل نشاط

¹ - توماس هوبز Thomas hobbes (1588-1679) هو أحد أبرز فلاسفة القرن السابع عشر بإنجلترا اشتغل بالفلسفة والقانون والتاريخ، ومارس العديد من المهام السياسية، كما ساهم في بلورة والتأسيس للكثير من المفاهيم الفلسفية والسياسية على غرار مفهوم العقد الاجتماعي والسلطة المطلقة والنظام الملكي المطلق، ويحسب كذلك ممن اسسوا في أوروبا للفكر الليبرالي المبني على حق الفرد والمساواة الطبيعية بين جميع البشر.

² - فرانسوا شاتليه، أوليفيه دوهامل، إيفلين بيزيه، **معجم المؤلفات السياسية**، ترجمة: محمد عراب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، الطبعة الثالثة، 2014، ص1164.

سياسي»¹، ومهما يكن فإن كتاب اللفياتان يبرز واقعية فكر هوبز من جهة ونزعتة المادية من جهة أخرى، وهاتان النزعتان مهمتان لفهم موقف توماس هوبز من موضوع الحرب.

من المؤكد أن الظروف السياسية التي عاشها هوبز وخاصة الحرب الأهلية الإنجليزية (1642-1651م) كان لها الأثر البالغ في كتاباته خاصة في كتاب اللفياتان، وهو يشبه في ذلك افلاطون الذي كتب الجمهورية متأثراً بالحروب الإسبرطية الأثينية، لكن هوبز كان واقعياً في طرحه الذي أراد به أن يقدم تحليلاً واقعياً ومنطقياً للأحداث السياسية التي عاشها أو تلك التي تتبأ بحدوثها، ومهما كانت درجة تأثر هوبز بهذه الحرب الأهلية في كتاباته فإن برتراند راسل يرى أنه «أياً ما كان، فإن الأفكار التي اقتنع بها تقوّت عندما تحققت مخاوفه»²، أي أن هوبز كانت له قراءة صحيحة للوضع، وتوقع حدوث هذه الحرب، وشهادة راسل هنا تؤكد واقعية هوبز وقدرته على التنبؤ واستشراف المستقبل، وهذا أسمى من مجرد التأثر بالواقع فقط.

¹ - برتراند راسل، تاريخ الفلسفة الغربية، الفلسفة الحديثة، ترجمة محمود الشنيطي، دار التنوير للطباعة والنشر، لبنان، الطبعة الأولى، 2018، ص 62، 63.

² - برتراند راسل، تاريخ الفلسفة الغربية، الفلسفة الحديثة، ص 62.

1- الفرد محور للحرب:

تدور الفكرة الرئيسية في كتاب اللفياتان حول إشكالية تأسيس الدولة تكون فيها السلطة الشرعية مجتمعة في يد صاحب السيادة الذي يضمن تحقيق السلام لرعيته من خلال استنزاف مصادر الحرب، لذلك اهتم هوبز بتحليل فكرة الحرب وركز في ذلك على الفرد أو الرعية، عكس ميكيافيلي الذي ركز في بحثه لفكرة الحرب على الأمير أو الحاكم، وقد خصص هوبز القسم الأول من كتاب اللفياتان لبحث فكرة الإنسان كفرد وتحليل طبيعته ومختلف أبعادها من أجل تحديد مختلف أشكال الصراع بين الأفراد، وبذلك يمكنه الوقوف على مصدر الحروب، وانتهى في هذا القسم إلى أن الإنسان هو كائن ذو ثلاثة أبعاد، فهو إنسان بما هو جسم طبيعي، ومواطن بما هو عضو في جسم سياسي، ومسيحي بما هو عضو في جسم مجازي أي في الكنيسة الكاثوليكية.

هذه الأبعاد الثلاثة هي ما يحتمل أن يكون مصدراً للتوترات، باعتبار أن الصراعات تتجسد حسب هوبز في شكل صراع بين الإنسان والمواطن، وصراع بين الإنسان

والمسيحي، وصراع ثالث بين المواطن والمسيحي¹، هذه الصراعات هي التي يحتمل كما قولنا أنها تؤدي إلى الحالة التي تتبأ بها هوبز وهي حالة الحرب الأهلية التي يصفها بحالة موت الدولة، والحل حسبه ليس في القضاء أو إلغاء هذه الصراعات وإنما هو في السعي لإدراك أسبابها ثم العمل للحد منها أو تهدئتها.

يرى هوبز أن أهم الأسباب المباشرة للحروب الأهلية هي أسباب سياسية ودينية، أي أنها حروب سياسية دينية من أجل السلطة أو التفرد بها، لذا فالقضاء على هذه الحروب حسبه يستوجب تفكيك بنية الدولة المتكونة من نظامين متوازيين أحدهما سياسي مدني والثاني ديني وروحي، ثم إعادة بنائها بشكل يقضي بإخضاع الكل لسلطة واحدة، وهو ما يراه هوبز كحل لمشكلة الحروب الأهلية، ولكي يحقق هوبز هذا المشروع الفكري السياسي يحتاج للعودة إلى ما يسمى بالحالة الطبيعية ليصور لنا الأسباب الحقيقية التي تدفع بالأفراد للوقوع في حالة حرب الجميع ضد الجميع.

كانت غاية هوبز هي صنع حيوان اصطناعي من خلال تقليد «الطبيعة أي الفن الذي صنع به الله العالم ويحكمه»²، فالإنسان يخلق الدولة كحيوان اصطناعي ويمنحه الحياة عن طريق تقليد الله في خلقه للعالم، يوضح هوبز الأمر أكثر بقوله: «ذلك أنه بواسطة الفن يخلق ذلك اللفياتان الضخم المدعو جمهورية أو

¹ - فرانسوا شاتليه، معجم المؤلفات السياسية، ص 1164.

² - توماس هوبز، اللفياتان، ص 17.

دولة civitas باللاتينية، والذي ليس سوى إنسان اصطناعي»¹، وجعل مهمة هذا الإنسان الاصطناعي هي سلامة الشعب، والأهم بالنسبة لموضوع بحثنا هو أن هوبز قد وصف الحالات التي يمكن أن يوجد عليها هذا الجسم الاصطناعي، وقد حددها في ثلاثة حالات «الوئام هي الصحة، والعصيان هي المرض، والحرب الأهلية هي الموت»²، فما يطلبه هوبز هو حالة الوئام بين أفراد الدولة من جهة وبين الشعب والسلطة من جهة أخرى، ويسعى لتوفير الشروط اللازمة لتفادي الأسباب المؤدية لحالة الحرب الأهلية التي وصفها بحالة موت الدولة.

اعتمد توماس هوبز على منهج يمكنه من وصف طبيعة هذا الإنسان الاصطناعي الذي يعده عملا فنيا، ويكون بفضلهم بمقدور الناس وضع حد لحروبهم أو تهدئتها، هذا المنهج هو منهج استقرائي يقوم على النظر في أربعة أمور: «أولا: في مادته وصانعه، وكلاهما الإنسان. ثانيا: في كيف يصنع، وبأية معاهدات، وماهي حقوق الملك، وقوته، أو سلطته العادلة، وما الذي يحفظها وما الذي يحلها. ثالثا: في ماهية الدولة المسيحية.

أخيرا، في ماهية مملكة الظلام»³، يتضح لنا من خلال هذا أنه هناك ثلاث مفاهيم مفتاحية في فلسفة هوبز السياسية يمكن اعتبارها أساسية لفهم موقفه من الحرب

1- المصدر نفسه، ص 17.

2- المصدر نفسه، ص 18.

3 - توماس هوبز، اللفياتان ، ص 18.

وهي أولاً مفهوم الإنسان، ثانياً مفهوم الحالة الطبيعية، ثالثاً مفهوم مشروعية السلطة.

فيما يخص الإنسان يرى هوبز أن الناس متشابهون في الأفكار والأهواء وفي طريقة الاستدلال العقلي، كما أنهم يتماثلون في الأمل والخوف والرغبة، وهم كذلك متساوون بالطبيعة في القدرات الجسدية والذهنية، هذه المساواة تُنتج أمالاً متساوية لدى الناس من أجل بلوغ غايتهم وأهدافهم، «والمشكلة الإنسانية تتجلى في مشكلة غاية أو غايات الإنسان، إن معنى الحياة بالنسبة للإنسان يكمن في بلوغ غايته»¹، والواقع يدلنا على وجود العديد من الغايات لدى الناس مثل المتعة واللذة والشهوة وغيرها، وقد لاحظ هوبز أن أغلب هذه الغايات قد تزيد حدة إلحاحها عند الفرد أو تنقص حسب كمية الإحساس باللذة أو الألم الذي ينشأ عن موضوعها عند فرد ما، ولكن الغاية المشتركة بين جميع الناس هي غاية المحافظة على ذاتهم.

إن تعدد الغايات الإنسانية، وتساوي الناس في القدرات الجسدية والذهنية، وسعي الجميع لتحقيق غاياته بدافع آمالهم المتساوية في ذلك، هي جميعها أمور تخلق منافسة شرسة بين الأفراد في الحالة الطبيعية وتؤدي بهم إلى حالة فقدان الثقة المتبادلة بينهم، خاصة فيما يتعلق بالغاية الكبرى والمتمثلة في سعي المرء لحفظ بقاءه وممتلكاته وعائلته، فالمنافسة من أجل تحقيق الغايات هي التي تؤدي إلى خلق الصراع بين الأفراد، وعليه فأسباب الصراع كامن في الطبيعة البشرية وقد حددها هوبز بما يلي: «المنافسة التي تحمل الناس على الهجوم في

1 - فرانسوا شاتليه، معجم المؤلفات السياسية، ص 1166.

سبيل منافعهم، وفقدان الثقة التي تحمل الناس على الدفاع عن أمنهم، المجد والشهرة التي تدفع الناس على الهجوم في سبيل سمعتهم»¹، فالأفعال البشرية حسب هوبز بما في ذلك الحرب كفعل بشري يمكن تفسيرها في حدود الغاية، ووفق هذا المنطق فالناس سوف يظلون في حالة حرب الجميع ضد الجميع في الحالة الطبيعية وسوف يستمر ذلك إلى غاية خضوعهم جميعا لسلطة قوية ومشتركة، ويفسر هوبز ذلك بكون الإنسان ليس حيوانا سياسيا كما يعتقد أرسطو، فالطبيعة عند هوبز تفرق الناس أكثر مما تجمعهم، بحيث أن الطبيعة الإنسانية لا تجعل من الفرد مواطنا بالفطرة بل تجعله محاربا ضد الكل من أجل تحقيق غاياته، لأن بنية هذه الطبيعة تتكون من حب الذات والغرور والمجد والرغبة في التغلب على الآخر والحصول على الاعتراف بالتفوق.

2- الحرب حالة طبيعية:

إن حالة الحرب لدى هوبز لا «تتعلق بقرار سياسي بل تتجذر في فضاء الطبيعة الإنسانية... يمكن القول إنها حالة أو ظاهرة طبيعية مستخلصة من تحليل الطبيعة الإنسانية، وخاصة من الشرط الطبيعي للبشر، وهي علاوة على ذلك واقع يمكن مشاهدته ومعايشته في كل فراغ سياسي»²، فالحرب عند توماس هوبز هي حالة طبيعية، وليست ظاهرة ميتافيزيقية مرتبطة بقوى مفارقة كما يخبرنا الفكر

1- توماس هوبز، اللفياتان، ص 134.

2- البكاي ولد عبد المالك، العقل والحربة في فلسفة هوبز السياسية، جداول للنشر والترجمة والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2013، ص 127.

الديني¹ أو الفكر الأسطوري الذي سبقه، فالحرب هي ظاهرة إنسانية تجد مصدرها في العناصر المشكلة للطبيعة الإنسانية، وتتجسد في حرب الكل ضد الكل كما قلنا يعتمد فيها المرء على قوته والخاصة وفطنته فقط، ويرى هوبز أن حالة الحرب الطبيعية لا وجود فيها لأي مظهر من مظاهر المدينة والتحضر، وليس هناك مجتمع قائم، والأسوء من كل هذا انها حالة يسودها الخوف المستمر وخطر الموت العنيف، فهي حالة تتصف فيها حياة المرء بالعزلة والفقر والتوحش.

وعليه فالحرب التي يقصدها هنا هوبز هي الحرب الأهلية التي يفترض أنها تميز الحالة الطبيعية، وليس يقصد هنا الحرب بين الدول بل على العموم هي حالة تميز الفترة التي سبقت ظهور الدولة أو الحياة المدنية، وعلى وجه الخصوص تميز فترة الوقوع في حالة الفراغ السياسي حسب هوبز، ويبرر ذلك بقوله: «الحرب لا تكمن في فترة المعركة فحسب، أو قتال فعلي، بل في فسحة من الوقت تُعرف فيه الرغبة في المقاومة عن طريق المعركة بصورة كافية، وبالتالي لابد أن تراعى فكرة الوقت في طبيعة الحرب، كما تراعى حالة الطقس، لأنه كما أن طبيعة الطقس الرديء لا تتمثل في نزول المطر مرة أو مرتين، بل في استمرار سوء الطقس لعدة أيام متتالية، فكذلك لا تتمثل طبيعة الحرب في قتال فعلي، بل في الميل العلني له

¹ - نذكر هنا على سبيل المثل لا الحصر ما جاء في التراث اليهودي الذي يعكس نفسية الاضطهاد وعقلية السبي وروح الانتقام من المخالفين لهم في الدين، فقد شاعت في هذا التراث نصوص تدعو إلى الحرب وإلى إبادة الآخرين وإلى تدمير كل مظاهر الحياة عند الشعوب الأخرى باعتبارها كما زعموا أوامر الرب الذي جعلوه محاربا ومتعطشا إلى الدماء وأطلقوا عليه اسم رب الجنود، ولسنا في محل لتفنيد ما نسبته اليهود للنبي الله موسى عليه السلام زورا وتحريفا، ولكن لإيضاح البعد الديني لظاهرة الحرب.

أنظر: محمد عمارة، حقائق وشبهات حول الحرب الدينية والجهاد والقتال والإرهاب، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، 2010، من ص 27 إلى ص 31.

في جميع الأوقات التي لا يكون فيها ضمان للعكس أي السلام»¹، نلاحظ هنا توافق تصور هوبز للحرب مع ما ينص عليه المنظور القانوني للحرب باعتبارها فترة من الزمن تحكمها منظومة قانونية خاصة، ولا تقتصر على حالة الاقتتال فقط بل تتعداها إلى حالة غياب ما يضمن بسط السلام بين الأفراد، وهذا الضمان هو السلطة التي تقيدهم، فالحرب عند هوبز هي السلوك وفق مبدأ عدم الثقة المتبادل بين الأفراد نتيجة غياب ضامن للسلام، والسبيل الوحيد للإنسان من أجل ضمان سلامته وأمنه في هذه المرحلة هو «أن يفرض سيطرته بالقوة أو بالخداع على أكبر عدد ممكن من الناس، حتى يقضي على كل قوة يمكن ان تشكل خطراً عليه، قوة كبيرة بما يكفي لجعله في موضع الخطر، وليس هذا بأكثر مما يتطلب حفظه لذاته، وهو أمر مسموح به بوجه عام»²، فعلى الرغم من إقرار هوبز أن الحرب هي حالة طبيعية لكن نلاحظ هنا أنه يصبغ هدفها بالصبغة الاستراتيجية حتى ولو تعلق الأمر بفرد واحد، فهي لا تختلف كثيرا عما ذكره **كلاوزوفيتز** حين اعتبر الحرب سوى مبارزة على نطاق واسع تختصر صورتها في اثنين من المتصارعين يسعى كل منهما بفعل قوته لإجبار خصمه على الخضوع لمشيئته وجعله عاجزا عن إبداء أية مقاومة، ويبقى الأهم من ذلك هو موقف هوبز من الحرب في الحالة الطبيعية بحيث يعتبرها أمر مقبول من أجل هدف نبيل وهو الحفاظ على الذات.

لكن المشكلة حسب هوبز أن هذا الأمن المنشود عن طريق الحرب لا يمكن أن يتحقق في ظروف يمارس فيها الجميع الحرب أو مستعدون لممارستها في

¹ - توماس هوبز، **اللفياتان**، ص 134.

² - توماس هوبز، **اللفياتان**، ص 133.

أي لحظة، فهي «تجعلهم قادرين على اجتياح وتدمير بعضهم البعض»¹، أي أنه من التناقض اللجوء إلى الحرب واستخدام القوّة الشخصية والاحتيايل من طرف الجميع من أجل طلب الأمن والحفاظ على ذواتهم، إذ لا يمكن أن يجتمع الشيء وضده من أجل تحقيق الغاية ذاتها.

أشرنا إلى أن الحرب أمر مسموح عند توماس هوبز، فهو لا يدينها في الحالة الطبيعية، لأنها ناتجة عن طبيعة الإنسان وانفعالاته، فيرى أن «رغبات الإنسان وانفعالاته ليست في ذاتها خطيئة، ولا تكون الأفعال التي تصدر من هذه الانفعالات خطيئة، حتى تعرف قانونا يحرمها، فهي لا تستطيع أن تُعرف، حتى توجد قوانين، ولا تتوجد أي قوانين حتى يقبلها الشخص الذي يوجدها»²، يستفاد من هذا أن الحرب عند هوبز كما أنها ليست ظاهرة ميتافيزيقية، فهي كذلك ليست ظاهرة أخلاقية، فلا يمكن الحكم على الحرب من وجهة نظر أخلاقية كما فعل من تكلم عن الحروب العادلة، والسبب الأساسي في ذلك هو انعدام أي شكل من أشكال القانون لوضعي في هذه الحالة الطبيعية، والتي لا تعترف إلا بفاضلتين أساسيتين هما القوّة والاحتيايل، وعليه يمكن الجزم أن هذه المرحلة لا مكان فيها لفكرة الصواب والخطأ والعدل والظلم، ولا توجد فيها ملكية خاصة، فكل شيء ملك لكل إنسان يستطيع الحصول عليه وبإمكانه المحافظة عليه، يلخص هوبز هذه الميزة لحالة الحرب بقوله أنه حيثما لا توجد سلطة عامة لا يوجد قانون، وحيثما لا يوجد قانون

¹ - المصدر نفسه، ص 135.

² - توماس هوبز، اللفياتان، ص 135، 136.

لا يوجد ظلم¹، هذا القانون لا يمكن أن يوجد إلا بالاتفاق بين جميع الأفراد، وبالتالي فحالة الحرب هذه لا يمكن تجاوزها إلا بجهد وعمل إنساني كذلك.

قد يعترض البعض بالقول إن حالة الحرب الطبيعية التي يتحدث عنها هوبز ليست حالة تاريخية ولم يعرفها الإنسان بالفعل، يجيب هوبز عن هذا الاعتراض بالقول إن هذه الحالة ليست بالضرورة حالة تاريخية، بل حالة الحرب يمكن أن نصل إليها بالافتراض المنطقي لحالة تنعدم فيها السلطة السياسية القادرة على توحيد الجميع بقوتها وتقضي على جميع أشكال العنف بين الأفراد، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يمكن الاستدلال على صحة الطرح التي تتضمنه حالة الحرب الطبيعية بما يحدث بين الملوك والأمراء وأصحاب السيادة، أو بين الدول في الوقت الراهن، فما ذكره هوبز ينطبق على حالة هؤلاء الملوك وتلك الدول، فهم في الغالب يعيشون في وضعية المتصارعين من الناحية السياسية ومن الناحية التجارية والاقتصادية، ويمارسون الجوسسة على بعضهم البعض في كل القطاعات ويتنافسون على الثروات ويعقدون الأحلاف والمعاهدات ثم ينقضونها، فهم في حالة عدم الثقة المتبادلة ومنافسة ويسعون للمجد والشهرة، فحالتهم حالة حرب حقيقية كما وصفها هوبز في غياب سلطة حقيقية تقضي على الفوضى السائدة في العلاقات الدولية، فهذا الظرف يجعل من أصحاب السيادة أو الدول في علاقتهم مع بعضهم البعض أشبه بالأفراد في الحالة الطبيعية، ويخضعون لنفس القوانين والأوضاع السائدة في هذه المرحلة، وبالتالي يمكن الاستنتاج مع هوبز أن الحرب بين الدول

¹ - فريديريك كوبلستون، تاريخ الفلسفة، المجلد الخامس، ترجمة: محمود سيد أحمد، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، الطبعة الأولى، 2003، ص 55.

هي كذلك حالة طبيعية لا يمكن إدانتها ما لم تتوصل هذه الدول إلى اتفاق وإبرام عقود واتفاقيات تضمن لها حالة السلام.

في إطار الحرب بين الدول ذاته، نرى أنه جدير بالملاحظة أن هوبز في مقدمة كتاب اللفياتان شبه الدولة بالإنسان الاصطناعي وفي هذا اتساق مع قوله بأن حالة الحرب بين الدول هي حالة طبيعية، لكن في موضع في المؤلف نفسه يصف هوبز الدولة بالإله الفاني، يقول: «هذا اللفياتان الكبير أو بالأحرى ومن باب الحديث بمزيد من الوقار، هذا الإله الفاني الذي ندين له بالسلام والدفاع، وهو أدنى مرتبة من الله، الله الغير الفاني»¹، هوبز يشبه الدولة بالإله من حيث القوة والسلطة والافعال فهي التي تدافع عن الأفراد وتضمن لهم السلام، وتخوض الحروب ضد الدول الأخرى، ومن هنا يمكن فهم حالة الحرب بين الدول هي حالة حرب بين آلهة فانية، وهو أمر موجود في الأساطير اليونانية التي اعتبرت الحرب فن الآلهة، وإن كانت الحرب كذلك كما يقول اليونان فإنها لن تكون حالة طبيعية وإنما حالة ميتافيزيقية، ومهما يكن فالغالب عند هوبز هو أن حالة الحرب بين الدول هي نتيجة لطبيعة الإنسان.

3- الانتقال من حالة الحرب إلى حالة السلام:

يعتقد هوبز أن الإنسان لن يتمكن من الإفلات من حالة الحرب الطبيعية إلا بما تحتويه بنية طبيعته المتكونة من الأهواء والعقل، فبعض الأهواء الإنسانية هي التي

¹ - توماس هوبز، اللفياتان، ص 180.

تجعل المرء ينفر من الحرب ويميل إلى السلام، وهذه الأهواء هي ذاتها التي قادته إلى ويلات الحرب، وتتمثل هذه الأهواء في «الخوف من الموت، والرغبة في الأشياء الضرورية لحياة مريحة، والأمل في أن يحصل عليها»¹، إن عاطفة الخوف من الموت العنيف هي نفسها التي تجعل الناس يدركون العبثية التي يعيشونها في حالة الحرب.

من جهة أخرى فالأمل في الحصول على حياة مريحة وبلوغها بالجهد والعمل، يدفعهم إلى السلام ، هذا بالإضافة إلى دور العقل الذي يطرح «بنوداً مناسبة للسلام قد يتوافق الناس عليها، وهذه البنود هي ما يسمى أيضاً بقوانين الطبيعة»²، فالعقل هنا يقصد به هوبز الوعي، ويعتبر أن الوعي بعبثية الحرب ضروري لوضع حد لحالة الحرب الطبيعية هذه، بحيث إن «ما يفعله العقل هو أنه يبين كيف يمكن أن تكون الرغبة الأساسية في المحافظة على الذات فعالة»³، إذاً الوعي الذي يتولد من الخوف من الموت العنيف جراء الحرب الشاملة يخلق في العقل تصور مستقبلي مبني على الأمل الموجود في المرء، ويُقدر الشروط الضرورية للحصول على رغباته، خاصة الرغبة الأساسية المتمثلة في الحفاظ على ذاته من دون الاضطرار لخوض حرب ضد الجميع، هذه الشروط يراها هوبز تتحقق في اتفاق الناس على احترام القوانين الطبيعية.

¹ - المصدر نفسه، ص 137.

² - توماس هوبز، اللفياتان ، ص 137.

³ - فريديريك كوبلستون، تاريخ الفلسفة، المجلد الخامس، ص 56.

بناء عليه، فإننا نقول كما أن الحرب حالة طبيعية ومصدرها الانفعالات والأهواء الإنسانية، فإن السلام عند هوبز يمكن أن يكون مصدره الانفعالات والأهواء والإنسانية نفسها ولكنه ليس حالة طبيعية بل هو حالة أخلاقية أو مدنية قائمة على احترام الاتفاق الواجب ابرامه بين الناس كما سنرى لاحقاً.

انطلاقاً من التصور الذي قدمه توماس هوبز حول الانتقال من حالة الحرب إلى حالة السلام، يمكننا البحث عن الآلية التي يوظف بها العقل والأهواء من أجل استنزاف مصدر الحرب والانتقال بالأفراد من حالة الحرب الطبيعية إلى حالة السلام، وبالعودة دائماً إلى كتاب اللفياتان نجد مصدر مشكلة الحرب الطبيعية في الحرية التي يتمتع بها كل فرد في هذه الحالة، إذ يستطيع المرء فعل كل ما يراه أو يقدر أنه مفيد لحفظ بقائه، ويربط هنا الحق الطبيعي بالحرية ويقول: «الحق بمقتضى الطبيعة هو حرية كل إنسان باستخدام قوته وفق ما يشاء هو نفسه، من أجل الحفاظ على طبيعته، والحفاظ على حياته، وبالتالي يفعل كل ما يرى بحُكمه وعقله أنه أفضل السبل لتحقيق ذلك»¹، فهذه الحرية الفردية تمنح الفرد الحق اللامحدود في فعل كل ما يراه مناسباً، وبالطريقة التي يعتقد أنها كفيلة بحفظ حياته، والحكم الوحيد الذي يعتبر المرجع في تقرير طبيعة الفعل وطريقة تحقيقه هو إرادة الفرد المبنية على درجة وعيه بالأمر.

يشمل هذا الحق حتى جسم الآخرين، لأن «حالة الإنسان هي حالة حرب الجميع ضد الجميع، ينتج عن ذلك أنه في حالة كهذه، يملك كل إنسان الحق على كل

¹ - توماس هوبز، اللفياتان، ص 138.

شيء، بما فيه الحق على جسم الآخرين»¹، واضح من خلال هذا، أن هوبز يجعل من هذا الحق اللامحدود مصدر الحرب، وفي الوقت ذاته هو مصدر الشعور الدائم للمرء بالأمن في هذه الحالة، وذلك مهما عظمت قوته واتسعت حكمته، وبالتالي « فإنه من المبادئ أو القواعد العامة للعقل، أن على كل إنسان أن يجتهد في سبيل السلام بقدر ما يمتلك الأمل في بلوغه، وحين لا يستطيع أن يبلغه بإمكانه أن يبحث عن كل مساعدات وفوائد الحرب ويستعملها»²، فوعي المرء بأن حالة الحرب التي يحيها والتي لا يملك فيها ضمان سلامته، هذا الوعي الصادر عن العقل ينصح بالسلام، وكذلك تفعل بعض الأهواء، فحين يعود الإنسان إلى تحكيم العقل حسب هوبز، فإنه سوف يضع السلام كأولوية أولى في الحياة، وهذا يظهر لنا من خلال حياة العزلة التي يعيشها المرء في حالة الطبيعة، نتيجة فقدان الثقة في الآخرين، ولكن هوبز لا يستبعد خيار الحرب، بل يجعله في المقام الثاني، ويلجأ إليه الإنسان حين يعجز عن إيجاد السلام، ولكن الحرب لا تكون عبثية هذه المرة، بل هي حرب يخوضها المرء وهو يسعى نحو هدف محدد، إذ انه يخوض الحرب ويتقصى فيها الفوائد والمساعدات التي يمكنها أن تقدمها له من أجل حفظ بقائه، وهنا تكمن صعوبة حالة الحرب، لأنه إذا كانت فائدة السلام واضحة في الغالب، فإن فوائد الحرب ليست كذلك دائماً.

¹ - المصدر نفسه، ص 140.

² - توماس هوبز، اللفياتان، ص 140.

يظهر في هذه المرحلة دور العقل، الذي يتمثل في بيان «كيف يمكن أن تكون الرغبة الأساسية في المحافظة على الذات فعالة»¹، هذه الرغبة الأساسية تصبح فعالة في تحقيق هذا الهدف عن طريق تغير موضوع التفكير من الحرب إلى السلام، فإذا كان المرء في حالة الحرب يفكر في كيفية استخدام قوته ومكره من أجل الانتصار على الجميع، فإنه في هذه المرحلة الثانية سوف يسخر قوته العقلية للتفكير في هدف آخر، وهو اقتراح قبل كل شيء مواد تكون ملائمة للسلام، ويسعى بناءً عليها للوصول إلى اتفاق بين الأفراد، هذه المواد هي ما يعرف بقوانين الطبيعة.

يفهم هوبز قانون الطبيعة على أنه «مبدأ عقلي يمنع الإنسان من فعل ما يدمر حياته أو يقضي على وسائل الحفاظ عليها»²، إن هذه القوانين الطبيعية هي مبادئ عامة للعقل ومشاركة بين جميع الناس، وهي تشكل منبع الأمل في الوصول إلى الاتفاق بين الناس بشأنها، كما أنها تمثل أمر العقل السليم الذي يدرك الأشياء التي ينبغي استبعادها من أجل المحافظة على حياة المرء وعلى سلامة أعضائه بأقصى ما يستطيع، وعليه فإن توماس هوبز يرى في القوانين الآلية المثالية لاستنزاف مصادر الحرب.

4 - عن القوانين في إقامة السلام:

¹ - فريديريك كوبلستون، تاريخ الفلسفة، المجلد الخامس، ص 56.

² - توماس هوبز، اللفياتان، ص 139.

ذكر هوبز في اللفياتان تسعة عشر قانوناً من قوانين الطبيعة، ونحن سنركز على تلك التي تخدم موضوع بحثنا، ولو أنه اعتبارها جميعاً مما يمثل «القوانين التي تملّي السلام كوسيلة لحفظ البشر في الجماعات، وهي تتعلق فقط بنظرية المجتمع المدني»¹، فهذه القوانين هي المبادئ العقلية التي يؤسس عليها المجتمع المدني أو الحالة المدنية التي تتميز بالسلام، وقد أقر هوبز في نهاية سرده لهذه القوانين أن استنتاجها قد يبدو معقداً، ويصعب أن يلاحظها الناس جميعاً بالصيغة التي صاغها بها، خاصة المشتغلون بتحصيل الحاجات المادية الأساسية للحياة من مأكّل ومشرب وغيرها، لذلك عمد إلى تلخيصها لتكون سهلة الفهم حتى بالنسبة للمرء الأقل مقدرة على ذلك، بالإضافة إلى هذا فقد ذكر هوبز أهم خصائص هذه القوانين الطبيعية وهي كآلاتي:

- هي قوانين تلزم بالرغبة في أن تتم، أي يلزم بها الجميع وليس فئة خاصة فقط.
- هي قوانين ثابتة وأبدية، فلا يمكن أن مثلاً أن يحدث «أن تكون الحرب حافظة للحياة، والسلام مدمراً لها»²، فهي قوانين طبيعية ذات صبغة ميكانيكية وهي النزعة العلمية التي ميزت عصر هوبز.
- هذه القوانين يسهل التقيد بها عن طريق الجهد الصادق والمتواصل، والشخص الذي يحقق القانون يكون عادلاً.
- العلم بهذه القوانين هو الفلسفة الأخلاقية الحقيقية والوحيدة، لأن الفلسفة الأخلاقية ليست سوى العلم بالخير والشرفي المتواصل والمجتمع البشري³، تبين

¹- المصدر نفسه، ص 163.

²- توماس هوبز، اللفياتان، ص 164.

³- المصدر نفسه، ص 164.

هذه الخاصية أن هوبز جعل من الحالة المدنية أو حالة السلام حالة أخلاقية بامتياز، عكس حالة الحرب التي قال إنها حالة طبيعية انفعالية، ولا يمكن نعتها بأي صفة أخلاقية.

- القوانين الطبيعية التي درج الناس على تسميتها بالقوانين، ما هي في الحقيقة سوى استنتاجات أو نظريات تتعلق بما يؤدي إلى حفظ الناس لأنفسهم والدفاع عنها.

يرى هوبز أن هذه القوانين هي مبادئ عقلية، ولكن حتى إذا سلمنا مع من يرى أنها قوانين منزلة من الله، فهي تبقى تحمل اسم القوانين بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، وإن لم تكن أوامر إلهية فهي تشبه المبادئ الإلهية، وبهذا فإن هوبز يجعل كل فرد من أفراد الشعب معني بهذه القوانين ويرفع التناقض المحتمل بين القوانين الطبيعية والمبادئ الإلهية.

بما أن هذه القوانين تتعلق فقط بنظرية المجتمع المدني، فإنها تمثل قواعد ومسلّمات تقودنا إلى «الاستنباط الفلسفي للمجتمع والحكومة، إنها تجيب عن السؤال: ما هي الشروط التي وفقا لها يصبح الانتقال من حالة الحرب الطبيعية إلى حالة المجتمعات المنظمة والمعقولة؟ هذه الشروط أو القوانين مغروسة في ديناميكا الطبيعة البشرية نفسها»¹، هكذا يكون هوبز قد أوضح أن هذه القوانين الطبيعية تضمن من خلال الالتزام بها الانتقال من حالة الحرب إلى حالة السلام، ومن الحالة الطبيعية التي تعتبر حالة حياة العزلة بالنسبة للأفراد إلى الحالة المدنية

¹ - فريديريك كوبلستون، تاريخ الفلسفة، المجلد الخامس، ص 57.

والحياة الاجتماعية وتأسيس الدولة، فالقوانين هي التي تحقق مصلحة أو آمال الفرد عن طريق تكوين مجتمعات منظمة، ويمكن هنا ملاحظة أن هذه القوانين لا تغير طبيعة البشر الأنانية ولكنها تجعل منها طبيعة أنانية مستتيرة.

ذكرنا أن هوبز قد حدّد تسعة عشر قانوناً من قوانين الطبيعة يرى أنها كفيلة بتحقيق السلام، لكننا سنركز على ثلاث قوانين رئيسية من هذه القوانين وهي:

القانون الأول: وهو أهم قانون طبيعي، ويمثّل القاعدة العامة للعقل التي تتكون من جزأين وينص الجزء الأول على أن «يسعى المرء إلى السلام ويتبعه، والجزء الثاني يتضمن ملخص حق الطبيعة، وهو أننا نستطيع بكل السبل أن ندافع عن أنفسنا»¹، إن هذا القانون الطبيعي الأساسي يأمر كل إنسان بالسعي إلى السلام وإتباعه، ولكن في الوقت نفسه يتضمن هذا القانون الحق في المحافظة على الذات، أي الوعي بأننا نستطيع أن ندافع عن ذواتنا بكل الوسائل المتاحة، فهوبز يفرق هنا بين السعي إلى السلام عن قناعة ووفق مبدأ الندية والمساواة و الحالة التي تدعو إليها المسيحية وفق مبدأ إذا لطمك رجل على خدك الأيمن فصغر له خدك الأيسر.

القانون الثاني: ينص القانون الطبيعي الثاني أنه «على الإنسان أن يكون مستعداً حين يكون الآخرين أيضاً مستعدين، أن يتخلى عن حقه في كل شيء بالقدر الذي يراه ضروري للسلام وللدفاع عن نفسه، وأن يرضى لنفسه بقدر من الحرية إزاء

¹ - توماس هوبز، اللفياتان، ص 140.

الآخرين يساوي قدر حريتهم إزاءه»¹، هذا التنازل عن الحقوق هو في صالح كل فرد، لكن ينبغي أن يكون تنازلاً متبادلاً وقائماً على مبدأ المساواة في ذلك، لكنه لا يشمل الحق في الدفاع عن حياته الخاصة، ويشبه هوبز هذا القانون بالقانون الإنجيلي أو القاعدة الدينية القائلة: أياً يكن ما تطلب أن يفعله الآخرين لك، هذا هو ما عليك فعله لهم وهذا قانون يشمل كل البشر، وهذا المبدأ في التعامل بالمثل يحمل معنى جوهري يمكن أن يوحد كل التصورات الموجودة حول فكرة العدالة²، واضح هنا أن توماس هوبز لا يتحدث من موقع الحالة الطبيعية، بل يتكلم من موقع مواطن مسيحي لا يريد لدولته أن تنهار بفعل السقوط في حالة الحرب الأهلية نتيجة صراع حول السلطة بين ما هو ديني وما هو مدني، فلما يقول أنه قانون كل البشر، فهو يعني أنه حتى ولو لم يكن المرء مؤمناً، فإنه يمكن أن يسلم بهذا القانون الطبيعي، وهذه الخطوة هي بداية تفويض سلطة الكنيسة وإبعادها من الحياة السياسية، فهو لما يسوي بين المؤمن وغير المؤمن في الخضوع للقانون، فإنه بذلك يخضع الجميع للسلطة المدنية، ويقلل من دور الكنيسة التي كان لها دور تصنيف الناس إلى مواطنين معمدين ومواطنين محتملين لم يخضعوا بعد لمراسيم التعميد.

أما عن آلية التنازل عن الحق الطبيعي الذي يتمتع به المرء في الحالة الطبيعية فإن توماس هوبز يرى أنه يكون إما بالتخلي عنه أو بتفويضه إلى شخص آخر أو مجموعة أفراد، عن طريق إشارات تتجلى في كلمات وأفعال، ويدل هذا

¹ - المصدر نفسه، ص 140.

² - ديفيد جونستون، مختصر تاريخ العدالة، ترجمة مصطفى ناصر، مجلة عالم المعرفة، العدد 387، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2012، ص 13.

التنازل عن الحق على قبول المرء لقيود تربط الناس وتلزمهم بها، وهذه القيود حسب هوبز «لا تكتسب قوتها من طبيعتها هي، بل من الخوف من عاقبة كسرها»¹، وهنا يظهر دور الأهواء في بناء السلام، فشعور الخوف له دور مهم في هذه المسألة، كما ان تفويض الحق ليس اعتباطيا وإنما لغاية معينة، وهب أما من أجل حق آخر قد فوض إليه بالمقابل، وهنا تحدث عملية تبادل للحقوق، أو من أجل خير آخر يأمله المرء من وراء تفويض حقه، وهذا «التفويض المتبادل للحقوق هو ما يسميه الناس عقدا»²، أما إذا كان هناك فارق زمني بين لحظة التنازل عن الحق واللحظة التي يؤدي فيها الآخر دوره، مع حضور الثقة بالثاني في هذه الأثناء «حينئذ يدعى العقد من جانبه ميثاقا أو عهدا»³، ومهما كان الأمر، فإن ما يهمنا هنا هو حضور مجموعة من المصطلحات ذات البعد الأخلاقي في خطاب هوبز حين يبني تصوره لآلية التخلي عن الحق الطبيعي، هذه المفاهيم الأخلاقية يراها ضرورية للانتقال من حالة الحرب إلى حالة السلام، وعليه فهذه الأخيرة تحتاج أولا إلى الوعي وإدراك الحق الطبيعي ثم التنازل عنه، ومن ثم الالتزام بالقيود التي تربط الأفراد مع بعضهم البعض.

يحتاج السلام كذلك إلى تفويض الحق في شكل عقد أو ميثاق أو عهد، وهذا التفويض بدوره يستدعي الثقة بين الأفراد أولا وبين الفرد ومن يفوض له حقه ثانيا، وهو عكس حالة الحرب التي تتميز أساسا بفقدان الثقة بين الأفراد، إلى جانب

¹ - توماس هوبز، اللفياتان، ص 141.

² - توماس هوبز، اللفياتان، ص 142.

³ - المصدر نفسه، ص 143.

هذا، يركز كذلك هوبز على إحدى انفعالات الإنسان وهي انفعال الخوف الذي ينسب له دور مهم في الالتزام بالقيود، وينفي بذلك أن يكون هذا الالتزام مرده إلى الوعي المحض، والخوف يكون مصدره وجود سلطة عامة تمارس على الجميع، وتمتلك ما يكفي من الحق والقوة لتفرض على كل فرد إنجاز ما عليه إنجازة في إطار العقد أو الميثاق المبرم من أجل السلام.

وعليه فإن هذا الالتزام بالعهد لن يكون إلا «في الحالة المدنية، حيث أقيمت سلطة لترهيب الذين كانوا لولاها ليخونوا عهدهم، فإن هذا الخوف - الخوف من عدم إنجاز العهود - لا يعود معقولا، ولهذا السبب يكون عليه بموجب العهد أن ينجز عمله أولا ملزم بفعل ذلك»¹، إن أول من يكون ملزما بإنجاز عمله هم الأفراد الذين عليهم التنازل عن حقهم في استخدام قوتهم من الظفر بحقوقهم الطبيعية، وهم بذلك يتفقون على إعطاء إنسان أو جماعة «الحق في ان يحكم بسيادة، ويفهم من ذلك أنهم يعطونه الحق في جباية المال لإعالة الجنود، وفي تعيين القضاة من أجل الحكم بالعدالة»²، وعليه فإن التنازل عن الحق يقتضي منح صاحب السيادة الحق في اكتساب القوة اللازمة لإجبار الناس على تنفيذ عهدهم، هذه القوة تتمثل في المال والجنود والقضاء، والحق في استخدام هذه القوة من أجل منع احتيال الناس، هذا الاحتيال الذي كان يعتبر فضيلة أساسية في الحالة الطبيعية، وكذلك من أجل دفع الأفراد إلى التحلي بفضيلة أخرى ضرورية للقضاء على حالة الحرب وهي فضيلة الوفاء بالعهد.

¹ - توماس هوبز، اللفياتان، ص 146.

² - المصدر نفسه، 147.

القانون الثالث: يركز هوبز في القانون الطبيعي الثالث إلى ما انتهينا في القانون الثاني، وهو الوفاء بالعهد، حيث ينص هذا القانون على «أن يفى الناس بالعهود التي قطعوها، وإلا أصبحت العهود بلا جدوى ومجرد كلمات جوفاء، وبما أن حق كل إنسان في كل شيء يكون باقياً، نكون مازلنا في حالة حرب»¹، فالوفاء بالعهود واجب وشرط من أجل إنهاء حالة الحرب، وهو ما لا يتحقق إلا بالخوف من القوة، هذه الأخيرة إما ان تكون «قوة الأرواح غير المرئية- أي الله - أو قوة البشر الذين سيؤذيهم المرء بفعله، ومع أن أولى هاتين القوتين هي الأقوى، فإن الخوف من الثانية هو عامة الخوف الأكبر»²، إن تأكيد هوبز و إقراره هنا أن الرعايا يلتزمون بالوفاء بعهودهم نتيجة خوفهم من قوة صاحب السيادة أكثر من خوفهم من الله³، هو مبرر آخر يقدمه من أجل الحد من سلطة الكنيسة، التي لا تؤثر في الرعية مقارنة بتأثير قوة صاحب السيادة، وعليه فلا شيء يقوي عقد أو ميثاق السلام إلا الخوف من قوة صاحب السيادة.

إن الطابع الإلزامي لهذه القوانين، وإجبار صاحب السيادة الناس على الوفاء بها عن طريق القوة لا يعني أنها شر، بل العكس فالقوانين الطبيعية يجب أن

¹ - المصدر نفسه، ص 151.

² - توماس هوبز، اللفياتان ، ص 149.

³ - لفت انتباهنا هنا اتفاق موقف هوبز هذا مع الحديث المروي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه كان يردد قوله: «إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»، ويرى كذلك عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فالكثير من الناس تخشى عقوبة السلطان الدنيوية أكثر من خشيتها من العقوبة الإلهية وهذا بسبب ضعف إيمانهم أو جهلهم بالضوابط الشرعية.

تسمى خيراً، فهي كما رأينا تشكل أساس الفضائل الأخلاقية، ورغم أنه قد يحدث أن تتعارض مع بعض الشهوات الخاصة للناس، فإنه على العموم هناك اتفاق بين الأفراد على خيرية السلام، وخيرية المنهج المتبع لبلوغه وكذا الوسائل المستخدمة في ذلك والمتمثلة في القوانين الطبيعية التي لا يمكن إدراكها إلا بواسطة العقل، وهنا يؤكد هوبز مرة أخرى أن السلام هو حالة وعي، وعلى النقيض من حالة الحرب التي تكون بالضرورة حالة لا وعي، ومن جهة أخرى فالقوة التي تحقق هذه الغاية هي وسيلة لإحلال السلام، والقضاء على الاحتيال والظلم و التعدي على القوانين، ومن أجل إحلال العدل الذي يظهر كمفهوم جديد مع ظهور الدولة إلى الوجود، وبهذا تنمهي القوة مع الحرب ضد كل ما يهدد بالعودة على الحالة الطبيعية.

فالدولة عند توماس هوبز هي ما يجسد كل ما قام به الأفراد من الانتقال من حالة الحرب إلى حالة السلام، وعليه فماهية الدولة عنده هي «من باب التعريف، شخص واحد، ذات الأعمال المنسوبة إلى فاعل، نتيجة الاتفاقيات المتبادلة بين كل عضو من المجموعة الكبرى، بغية تمكين هذا الشخص من ممارسة القوة والوسائل الممنوحة من الجميع، التي يعتبرها متلائمة مع سلمهم ومع دفاعهم المشترك»¹، فالأفراد بعد اتفاقهم وعملهم على انجاز عهودهم يصبحون في هيئة شخص واحد يكون المدبر فيه هو صاحب السيادة الذي يرمي إلى تحقيق السلام والدفاع عن الرعايا، وهذا هو السبب البعيد لنشأة الدولة ، أما السبب القريب لنشأتها فهو العهود التي تبرمها الأفراد بعضهم مع بعض، ويصبحون كما قلنا بعد

¹ - توماس هوبز، اللفياتان، ص 180.

قيام الدولة رعايا صاحب السيادة¹، جدير بالذكر أن هوبز قد حدد غاية للدولة التي تتمتع «بالقدرة والقوة المجتمعتين فيها، إلى درجة الرعب الذي توحيان به، فيجعل إرادة الجميع تتأقلم في سبيل السلم في الداخل، والتعاون حيال الأعداء في الخارج في هذا الإله يكمن جوهر الدولة»²، فالخوف لا يولد السلام من العدم بل من خلال عمل الفرد على خلق آليات جديدة تسمح له بالعيش في حالة السلام، أولها هي العمل على التأقلم مع الوضع الجديد من خلال مجموعة التغيرات الخاصة في تفاعلات الأفراد مع بعضهم البعض، وأهم تغير في هذه التفاعلات هو الانتقال من حالة تفاعل مع الآخر في شكل صراع وصدام إلى التفاعل معه في شكل تعاون، ونتيجة ذلك هي القضاء على صراعات الأفراد، وعليه فإن تأسيس الدولة هو الأمر المفضي إلى استنزاف مصادر الحرب.

5- آليات منع العودة إلى حالة الحرب:

إن الجزء الأخير من تصور هوبز للحرب في كتاب اللفياتان يتمثل في بيان كيفية المحافظة على حالة السلام، الذي يتحقق بتأسيس الدولة، أو بعبارة أخرى البحث عن الآليات التي تجنبنا موت الدولة والسقوط مرة أخرى في حالة الفوضى أو حالة الحرب الأهلية.

¹ - فريديريك كوبلستون، تاريخ الفلسفة، المجلد الخامس، ص 61.

² - توماس هوبز، اللفياتان، ص 180.

أول ما يجنب الدولة العودة إلى حالة الحرب الأهلية، هو ألا يكون صاحب السيادة طرفاً في العقد، ويولي هوبز أهمية بالغة لهذا الأمر من أجل تجنب الأمر الذي يخشاه، وسبب ذلك أن في دولة التأسيس¹ يخضع الناس في البداية لصاحب السيادة نتيجة خوفهم من بعضهم البعض وفقدان الثقة فيما بينهم، وبالتالي فصاحب السيادة يمثل الضمان لإنجاز العهود، وما هو ضمان لا يجوز أن يكون طرفاً في العقد.

من جهة أخرى، يرى هوبز أن صاحب السيادة لا يجب ان يكون طرفاً في العقد من أجل منع الطرف الآخر من العقد أي الرعايا الحق بمطالبة صاحب السيادة بتنفيذ العقد أو العهود، وبهذا يكون هوبز قد سد طريق ثورة الرعايا على صاحب السيادة. الأمر الثاني حسب هوبز هو ضرورة منح صاحب السيادة² السلطة المطلقة من أجل تحقيق السلام والمحافظة عليه، وقد بنى هذا الموقف على أساس أن «نهاية التأسيس هي السلام والدفاع عن الجميع، والاحقية في الغاية تعطي الاحقية في الوسيلة، من هنا يحق لكل فرد أو مجموعة تملك السلطة المطلقة أن

¹ - يميز توماس هوبز بين نمطين من أنماط الدول، دولة التأسيس التي تنشأ بموجب فعل التأسيس، ويتم بلوغها عن طريق الاتفاق بين البشر على الخضوع لشخص واحد او مجموعة اشخاص وذلك طوعيا ومن باب الثقة، من اجل حمايتهم من الآخرين، ودولة الاكتساب التي هي دولة بموجب واقعة الاكتساب ويتم بلوغها بقوة الطبيعة كما يفعل الرجل مع أولاده بهدف اخضاعهم لحكمه، وإما أن تقوم عن طريق الحرب بإخضاع الأعداء لإرادته. ويفضل توماس هوبز دولة التأسيس لأنها أخلاقية أكثر.

² - بالرغم من ان توماس هوبز يعتبر من أنصار النظام الملكي المطلق، إلا ان الدولة التي يأسس لها تصلح أن تكون السلطة المطلقة في يد شخص واحد في صورة النظام الملكي أو مجموعة كما الحال في الأنظمة الارستقراطية أو مجلس الذي يتجسد في مجلس النواب ويمثل النظام الديمقراطي، المهم عنده ألا تكون السلطة منقسمة ويحوزها أكثر من واحد.

يكون (تكون) قاضيا في آن لوسائل السلم والدفاع، لكل ما يخرقهما أو يعترض لهما، أو يقوم (تقوم) مسبقا بكل ما يراه (تراه) ضروريا للمحافظة على السلام والأمان، متوقعا (متوقعة) خلافات الداخل وعدوانية الخارج، وأن يعيد (تعيد) السلام والأمن عند فقدانهما»¹، إن هوبز يرافع من أجل السلطة المطلقة لصاحب السيادة لغرض تحقيق السلام الذي تأسست الدولة من أجله، وحثه في ذلك أن الجسم السياسي أو الدولة يعتبر عملا فنيا وليس طبيعيا، وقد وجد ليضع حدا للصراعات بين الأفراد أو تهدئتها أو منع نشوئها، هذه الصراعات تنتج عن كون الجسم السياسي يتألف من مجموعة ذرات تمتلك «صفات متنافرة: حرية الفقراء، وثروات الأغنياء، وفضيلة الحكماء»²، وعليه فمكونات الجسم السياسي بقدر ما متماثلة فيما بينها بحكم أنها بشر، فهي بالقدر ذاته أو أكثر مختلفة ومتنافرة عن بعضها البعض بحكم رغباتها المختلفة، ولكن هذه الأخيرة تجبرهم على العيش معا، يقول فرانسوا شاتليه: «إن ما يجعلها عدوة لبعضها البعض، هو ما يوجد لديها من شيء مشترك، وما يجعلها جديرة بالعيش المشترك هو أيضا ما يوجد لديها من شيء مشترك، هذا الشيء المشترك هو الشهوة الأساسية»³، فرغم تعدد رغبات البشر واختلاف ترتيبها عند كل فرد، تبقى هناك غاية أو رغبة أساسية لدى كل البشر وهي الرغبة في السلطة والسعي الدائم للحصول على المزيد منها بكل الطرق المتاحة والممكنة، هذه الرغبة لا تتوقف عن دفع المرء لبلوغها إلا بموت الإنسان، فهي أساس ومصدر العداوة بين البشر، وبسببها هم دائما في حالة حرب كامنة أو معلنة، وعليه فإن ما

¹ - توماس هوبز، اللفياتان، ص 186.

² - فرانسوا شاتليه، معجم المؤلفات السياسية، ص 1170.

³ - المرجع نفسه، ص 1170.

يجعل وحدتهم ممكنة هو بناء سلطة يخضعون لها ولا يستطيعون مقاومتها، هذه السلطة تكون بيد إرادة واحدة و واحدة فقط، هي إرادة صاحب السيادة.

سلطة صاحب السيادة مطلقة ولا محدودة في فعل ما يراه مناسباً وضرورياً لإحلال السلام، وهي سلطة لا يمكن نقلها إلى شخص آخر أو هيئة أخرى كالبرلمان أو النبلاء أو غيرهم فالكل تابع لصاحب السيادة، وفي هذا رد على المطالبين بتقسيم السلطة على هيئات مختلفة، ويحدد هوبز سبب رفضه لذلك بقوله: «هناك مذهب ... يناهض بصورة ومباشرة جوهر الدولة، وهو القائل بإمكانية تقسيم السلطة المطلقة، في الحقيقة ماذا يعني تقسيم سلطة الدولة إن لم يكن حلها؟ إن السلطات المنقسمة يدمر بعضها بعضاً»¹، فتقسيم السلطة يعني تقسيم القوة بين الجماعات التي تنضوي تحت سلطة الدولة، هذه الجماعات أو الزمر كما يسمها هوبز هي ليست في حاجة إلى قوة أو سلطة لتحمي نفسها مادامت تحت حماية الدولة، وإن حدث وأن امتلكت قوة وتعارضت مصالحها ورغباتها كما الحال في الحالة الطبيعية فإن المآل هو الحرب وتدمير الدولة لامحالة، وهذه الزمر قد تبنى على أساس القرابة كالعائلة مثلاً، ولكن «توجد زمر تهدف إلى الاستيلاء على الحكم الديني، على غرار الخاضعين للبابا، والبروتستانتيين، هذه الزمر أيضاً غير عادلة لأنها مناهضة لسلام الشعب وأمنه، وترمي إلى انتزاع السلاح من أيدي الحاكم المطلق»²، وعليه يرفض هوبز كل تقسيم أو إلغاء للسلطة أو امتلاك الزمر للقوة، ويعتبر ذلك غير مشروع في نظره لأن نتيجته الحتمية، هي تدمير الدولة عن

¹ - توماس هوبز، اللفياتان، ص 223.

² - المرجع نفسه، ص 241.

طريق التصادم بين الزمر أو إلغاء سلطة صاحب السيادة كما كانت تفعل الكنيسة، بهذا يكون تصور هوبز لسلطة صاحب السيادة على انها سلطة مطلقة وواحدة ولا يمكن ان تنقل أو تنقسم أو تتساوى معها أي سلطة أخرى وهذا ما يضمن حسبه استمرار حالة السلام ويمنع السقوط في حالة الفراغ السياسي الموسوم بالفوضى والحرب، ومن جهة أخرى يكون هوبز أخضع نهائيا الكنيسة لسلطة صاحب السيادة بحجة رده السبب المباشر للحرب الأهلية التي عاشتها إنجلترا إلى انقسام السلطة بين الملك والكنيسة والبرلمان وهو ما لا يريده هوبز أن يتكرر.

هوبز لا ينكر المسيحية ولا الكنيسة، غير أنه يريد من الكنيسة على وجه أن تكون تابعة للدولة القومية وخاضعة لسلطة صاحب السيادة، فهو يرى أنه «بديهي أن السلطة المدنية وسلطة الدولة هما سلطة واحدة، وأن السلطة الدينية وسلطة وضع القوانين ومنح التراخيص تستلزم وجود الدولة، يترتب على ذلك أنه حيثما تضع إحداها القوانين والأخرى القوانين الدينية لا بد من وجود دولتين للأفراد عينهم في آن معاً: إنها لا مملكة منقسمة على ذاتها، وغير قابلة للبقاء»¹، فالصراع على السلطة² بين الكنيسة والدولة يتجسد من خلال وجود منظومتين قانونيتين، وهو

¹ - توماس هوبز، اللفياتان، ص 325.

² - في العصور الوسطى لم تكن هناك بالمعنى القانوني الحديث دولة أو سلطة ذات سيادة، فالسيد الإقطاعي كان مقيد بالواجبات العرفية وبالطبيعة التعاقدية لواجباته نحو أتباعه، بينما كان الإمبراطور ذاته مضطر أن يحكم بالاستناد إلى قوانين الكنيسة، أما البابوية فهي من الناحية النظرية تعتبر سلطة غير مسؤولة، ووجدت على الأرض لتطبيق القوانين الإلهية، لكن من الناحية العملية الأمر لم يكن كذلك، إذ لما كان البابا ممثلاً لله على الأرض فقد ادعى لنفسه سلطة مطلقة، فالدولة الوحيدة التي وجدت في القرون الوسطى هي الكنيسة، فالباب لم يكن الملك المطلق في المملكة الروحية فحسب بل ادعى ومارس إلى حد بعيد تلك السلطة التشريعية الشاملة التي زعم متشرعو روما في القديم أنها من حق الملك، ولقد كان البابا

أمر يجعل الفرد خاضع لسيدين، وبالتالي فهو مجبر لطاعة سيدين كذلك، وهذا مستحيل في حالة تعارض الكنيسة والدولة.

بمعنى انه إذا كانت الدولة واحدة، فإن إحدى السلطتين يجب أن تكون خاضعة للأخرى، وإلا فهي الحرب الأهلية، ولغرض حل هذه المعضلة لجأ هوبز لاستقراء التاريخ المسيحي، وعاد إلى البحث عن دور المسيح من خلا الكتاب المقدس، رأى انه دوره انقسم «إلى ثلاثة أجزاء، في الجزء الأول يتمتع المسيح بدور الفادي أو المخلص، وفي الجزء الثاني يتمتع بدور الراعي أو المعلم ... وفي الجزء الثالث يتمتع المسيح بدور الملك، الملك الأبدي تحت سلطة أبيه»¹، وتقابل هذه الأدوار الثلاثة ثلاث عصور مختلفة، بحيث يعتقد هوبز أن الجزء الثالث الذي يبرز

هو واضع القوانين ومصدر النبالة بما في ذلك نبالة الملك، والمصدر الشرعي للسلطة وواهب الدرجات العلمية والقاضي الاسمي والمنتقم للدم المسيحي حين يراق، غير أن جميع هذه السلطات انتقلت بعد الثورة البروتستانتية إلى الدولة القومية، والنهج الذي انتقلت بموجبه هذه السلطة النظرية من البابا إلى الملك القومي، ومن الملك القومي إلى الشعب، كان يوازيه انتقال السلطة الحقيقية والفعلية من الكهنة والسادة الإقطاعيين إلى الملك الذي كان يحكم لمصلحة شعبه، بحيث نشأت نظرية الحق الإلهي للملوك في أول عهدها كمحاولة لتحرير الحكومة المدنية من رقابة البابا والكهنة، كما انها كانت ردا على دعوة البابا في ان له حقا إلهيا في السيطرة على الأمور الزمنية، وبعد هذا وبسبب الحروب تأمر البابا على ملوك إنجلترا نشأ عن ذلك بالضرورة وحدة تامة بين حق الملك الإلهي وحق السيادة القومية والاستقلال، وقد وجدت نظرية الملكية المطلقة الكثير من المفكرين الذين ساندوها ودافعوا عنها منهم الفيلسوف الإنجليزي باركلي وكذلك لوثر الذي قال بأن أمراء هذا العالم ملائكة، وعامة الشعب ابليس الجحيم، وأضف: لا يليق بأي إنسان يدعي أنه مسيحي أن يثور ضد حكومته سواء تصرفت عدلا أو ظلما، وقد عاش هوبز في ظروف مماثلة حيث شهد تطاحن الأحزاب الدينية على السلطة وانتهى إلى ذات النظرية في الملكية المطلقة.

أنظر: جون هرمان راندال، تكوين العقل الحديث، الجزء الأول، ترجمة: جورج طعمة، المركز القومي للترجمة، مصر، 2013، من الصفحة 290 إلى الصفحة 299.

¹ - توماس هوبز، اللفياتان، ص 470.

المسيح في دور الملك يقابل عصر لم يحن بعد، وهذا بنص الكتاب المقدس ذاته: «وبصراحة تامة - إنجيل القديس متى 18/36- ليست مملكتي في هذا العالم ... ولا يجوز أن يبدأ ملكوت المسيح قبل القيامة الشاملة»¹، يستنتج هوبز من هذا أن المسيح عند تمتعه بصفة إنسان لم يكن ملكاً على أتباعه، بمعنى أنه في الفترة التي كان يعيش فيها بجسده على الأرض، لم يكن ملكاً ، بل كان مستشاراً لأتباعه ومعلم لهم، ونتيجة ذلك، إذا لم يكن المسيح ملكاً ولم يطلب الملك لنفسه، فكيف يطلب ذلك من هم أدنى منه ، وبهذا فلا البابا ولا الأسقف ولا الكاهن ولا القس يمتلك سلطة روحية، أو القدرة على التشريع بصورة مستقلة عن صاحب السيادة، فهذا الأخير هو من يمتلك السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية والقضائية، وبهذا يجسد الحكم المطلق الضامن للسلام والاستقرار حسب توماس هوبز.

يستفاد مما سبق أن هوبز يفهم الكنيسة على أنها جماعة من الناس تعتنق الديانة المسيحية وتتحد في شخص صاحب السيادة، ويجب عليها أن تخضع لأوامره مثل باقي الجماعات التحتية الأخرى المنضوية تحت لواء الدولة، مثل الموظفين والتجار وغيرهم، فكل تشريع داخل الكنيسة الوطنية يكون خاضعاً لصاحب السيادة، فهو الحكم النهائي في تأويل الكتاب المقدس، وبهذا ينقل هوبز سلطة فهم وتأويل النصوص المقدسة من الكنيسة ومؤسساتها إلى صاحب السيادة، وهذا تقادياً للتعارض في الفهم والمصلحة وبالتالي الانشقاق والصدام بين الدولة والكنيسة، فتعدد مصادر تفسير الكتاب المقدس وتأويله يؤدي بالضرورة إلى الوقوع في العبثية التي تتنافى مع النظام المنشود حين تأسيس الدولة.

¹ - المصدر نفسه، ص 472.

إلى جانب يصف هوبز حالات أخرى قد تؤدي إلى تهديد حالة السلام وسماها بأمراض الدولة، نكر منها عدم تقدر صاحب السيادة لحجم السلطة الضروري للظفر بالسلام «فالاكتفاء بسلطة اقل من تلك اللازمة في سبيل الحصول على السلام والدفاع عن الدولة»¹ لا يضمن السلام، وكذلك حين تسود حالة التسبب بسبب تهاون صاحب السيادة في ممارسة السلطة، فإن حاول استعادة ممارسة السلطة يؤدي ذلك إلى السقوط في الفوضى والفتن وهو ما أدى «إلى الحروب بين مجلس الشيوخ والشعب حين سقطت الديمقراطية وتأسس النظام الملكي»²، النظام الملكي هنا يريد أن يسترجع السلطة التي يتمتع بها ممثلي الشعب أثناء الحكم الملكي، هذا بالإضافة إلى الأمراض الناشئة مما يسمه هوبز بالعقائد الناشئة على غرار تقرير كل شخص ماهية الخير والشر حسب أهوائه، «فمقياس الأفعال الخيرة والسيئة هو القانون المدني ، وأن القاضي هو المشرع الذي يمثل الدولة على الدوام»³، إن هوبز بهذا يكون قد أقام الأخلاق على السياسية وأخضعها للقانون كما أخضع الدين للسلطة المدنية.

وعليه فإن توماس هوبز رأى أن تحقيق السلام والمحافظة عليه يكون أولاً بجعل صاحب السيادة خارج إطار التعاقد، وثانياً بتوحيد السلطة كاملة وبلا قيود في يد الحاكم، وأخيراً ضرورة خضوع السلطة الدينية والأخلاقية للسلطة الزمنية، وبهذا

¹ - توماس هوبز، اللفياتان، ص 319.

² - المصدر نفسه، ص 319.

³ - المصدر نفسه، ص 320.

يكون قد قدم تصورا للحل الذي اعتقد أنه مناسب للمشكلة التي كانت تؤرقه
والمتمثلة في الحرب الأهلية التي عانت منها إنجلترا.

خلاصة القول، إن هوبز قدم تصور لإشكالية الحرب يدور حول مفهوم
محوري هو طبيعة الإنسان كفرد، هذا التصور يمكن تلخه في الصراع بين
الأفراد في فضاء العلاقات التي تحكمها الأنانية والنزعات والرغبات الفردية.
إن قيمة تصور توماس هوبز لإشكالية الحرب تتدرج ضمن الإشكالية
العامة للفكر السياسي في العصر الحديث، والتي تتمثل في البحث عن كيفية إنهاء
الصراعات والحروب، وهي الظاهرة التي ميزت الحياة السياسية في تلك الفترة في
أوروبا.

لقد خالف هوبز في طرحه التفسيرات السابقة لإشكالية الحرب، إذ خالف
الطرح اللاهوتي والميتافيزيقي الذي يرد الحرب إلى إرادة قوى غيبية، ويربطها
بالعناية الإلهية، كما خالف كذلك الطرح الأخلاقي لها القائم على نظرية الحرب
العادلة، بالإضافة لمخالفته لأصحاب الطرح الاستراتيجي والتكتيكي من أمثال
ميكيافيلي.

يتلخص الطرح الذي قدمه هوبز في كون الحرب ظاهرة إنسانية طبيعية،
هي عمل إنساني ولا يمكن تجاوزها إلا بعمل إنساني كذلك، مصدرها انفعالات
الإنسان ورغباته وأهوائه، أي أن الحرب عند هوبز ليست قرار سياسي كما يعتبرها
البعض بل هي تعبر عن حالة فراغ سياسي.

السبب الرئيسي للحروب حسب هوبز هو غياب سلطة سياسية قوية
يخضع الجميع لها، وهذا الأمر لا يخص فقط الحالة الطبيعية، بل ينطبق كذلك

على حالة الحرب بين الدول، فما يحدث بين الأمراء بين الدول هو حتما ما كان يحدث بين الأفراد في حالة الفراغ السياسي، فهذه نتيجة يمكن أن نصل إليها بقياس الشاهد عن الغائب والبعيد عن القريب.

الحل الذي يقدمه هوبز لإشكالية الحرب هو ضرورة الرجوع إلى الإنسان كذلك واعتماد العناصر المكونة لطبيعته ذاتها التي تعتبر مصدر الحرب من أجل اعتمادها في إحلال السلام، هذه العناصر هي العقل أو الوعي والانفعالات خاصة الخوف.

يكمن دور العقل أساساً في استكشاف القوانين الطبيعية التي يكون الالتزام بها هو سبيل المرء للمحافظة على ذاته وتحقيق غاياته، ولا يكتمل دور العقل إلا بدور وعمل انفعالات الإنسان خاصة الرغبة في تحقيق آماله والخوف من قوّة صاحب السيادة الذي يتخلى له كل فرد عن حقوقه الطبيعية.

في الأخير يصف هوبز الشروط الضرورية للمحافظة على حالة السلام ومنع الدولة من القوع في حالة الفراغ السياسي، وأهم هذه الشروط هي وضع السلطة المطلقة في يد صاحب السيادة وتمكنه من القوّة اللازمة لتحقيق الهدف الذي وجد من أجله.

المبحث الثاني: الحرب في فلسفة جون جاك روسو.

1- الحالة المدنية بين أمل إحلال السلام وواقع الحرب:

ينطلق جون جاك روسو في بحثه لفكرة الحرب من عقد مقارنة بين أهم ما يميز الحالة المدنية عن الحالة الطبيعية والمتمثل في النصوص القانونية والمبادئ الأخلاقية مع الواقع الذي يعيشه الإنسان في حالته الاجتماعية، هذا الواقع الذي لا يرى فيه روسو سوى تعاسة الشعوب ووطأة العبودية وإخضاع الأغلبية الساحقة المسحوقة لأقلية من الطغاة الأغنياء والمتجبرين، ويصف هذه الحالة بقوله: «أرى شعوبا تعسة تئن تحت وطأة الرق، والنوع الإنساني يسحقه عدد قليل من الطغاة، وعامة الناس إذ يرهقهم البؤس ويبتغون لقمة خبز، يشرب الغني دمهم ودموعهم وهو في سلام»¹، فالسلام الذي شكل الدافع الأساسي للإنسان من أجل

¹ - جان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، ترجمة: عبد السلام الشدادي، مركز دراسات الأزمنة الحديثة، الرباط، المغرب، الطبعة الأولى، 2013، ص 372.

نشير إلى أن هذا الكتاب المعنون بالكتابات السياسية لجون جاك روسو يدخل ضمن مشروع ترجمة كتابات روسو السياسية إلى اللغة العربية، وقد شمل هذا الجزء الأول على أعمال روسو التالية:

- في العقد الاجتماعي.

- نبذة من الفصلين الثاني والرابع من مخطوطة جنيفا.

- مبادئ قانون الحرب.

أن يتخلى عن الحالة الطبيعية لم يضفر به إلا الأغنياء حسب روسو، الذين تفننوا في استخدام القوانين التي تشكل جوهر الحياة المدنية ضد الضعفاء من أجل قهرهم واستغلالهم، ولم تكن هذه الظاهرة مقتصرة على مجتمع دون آخر بل هي ظاهرة عرفتها كل المجتمعات المدنية، ويجادل روسو قائلاً: «في كل مكان يستعمل القوي ضد الضعيف سلطة القوانين الرهيبة كسلاح»¹، فالقانون وفق هذا الطرح أصبح يمثل سلاحاً جديداً في يد القوي من أجل إخضاع الضعيف، وهو يدل على مرحلة من مراحل التفاوت² بين الناس بدلاً من أن تكون هذه القوانين عبارة عن قوانين تصاغ لغرض تنظيم حياة الأفراد داخل المجتمع، والغريب في الأمر هو أن الجميع راضٍ بهذا الوضع فلا أحد يبدي أدنى مقاومة أو استعداد لتغييره.

- نبذة من إميل.

- نبذة من مشروع السلام الدائم، للسيد القس دو سان بيير

- الحكم على مشروع السلام الدائم.

¹- جان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، ترجمة: عبد السلام الشداوي، مركز دراسات الأزمنة الحديثة، الرباط، المغرب، الطبعة الأولى، 2013، ص 372.

²- يحصي جون جاك روسو في نهاية كتابه أصل التفاوت بين الناس ثلاث خطوات مر بها هذا التفاوت، يقول إذ نحن نتبعنا سير التفاوت إلى الأمام في مختلف تطوراتهِ وثوراتهِ، وجدنا أن أولى خطواته كانت يوم أنشئ القانون وقام حق الملكية، وأن الخطوة الثانية يوم أنشئت الحاكمية، والثالثة والأخيرة أيام استبدلت بالسلطة الشرعية السلطة الاستبدادية، بحيث أن حال الغني والفقير أجزيت في الدور الأول، وحال السيد والعبد أجزيت في الدور الثاني، وحال السيد والعبد أجزيت في الدور الثالث وهو آخر درجات التفاوت، والحد الذي تنتهي إليه جميع الأدوار الأخرى.

أنظر: جون جاك روسو، أصل التفاوت بين الناس، ترجمة: بولس غانم، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1991، ص 124.

من جهة ثانية، يرى روسو أن الواقع يثبت أن الدولة التي وجدت أو خلقت من أجل إحلال السلام وفق الطرح الهوبزي، لم يجن منها الإنسان سوى الحروب، والحكام حسب روسو لم يسيقوا الرجال السلم بل ساقوهم إلى ميدان الحرب، ويخاطبهم بلهجة استنكار قائلًا: «أيها الرجال العتاة، أين تسوقون هؤلاء الأشقياء؟ ... أرى مسرحا من التقتيل ... الموتى أكداس مكدسة... تلك إذن هي ثمرات هذه المؤسسات السلمية»¹، ويشير هنا روسو إلى توماس هوبز ساخرًا وساخطًا وبتعبير فيه الكثير من الاستهزاء والتحدي بقوله: «أيها الفيلسوف الظالم، تعال لتقرأ لنا كتابك في ميدان الحرب»²، هذه العبارات فيها دلالة واضحة على اعتبار روسو أن فكرة إنشاء الدولة من أجل إنهاء حالة الحرب ومنع العودة إليها، كانت فكرة خاطئة، فظهور الدولة ككيان سياسي لم يقض على حالة الحرب بين الأفراد - وهذا بشهادة توماس هوبز - بل أدت إلى خلق نوع آخر من الحروب أشد فتكا بالإنسان ، وهي حالة الحرب بين الدول، وهو ما يأتي إثباته لاحقًا.

يلمح روسو بقوة إلى أن ما دفع الفلاسفة لوضع هذه النظريات التي تخضع العدل والحقيقة إلى مصلحة الأقوياء، هو رغبتهم في الحصول على المنافع المادية والوظائف السامية، وهذا لن يُمنح لهم من طرف الشعب بل من طرف الحكام، «إن الشعب لا يمنح معاشات ولا وظائف ولا كراسي ولا مراتب أكاديمية، فبأي موجب يرجى حمايته؟ أيها الأمراء الأكارم الذين ننتظر منكم كل شيء، إنني

¹ - جان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، ص 372.

² - المصدر نفسه، ص 372.

أتكلم هنا باسم الهيئة الأدبية، ما عليكم إلا أن تضطهدوا الشعب بكل صراحة»¹، فالأغنياء وأصحاب السلطة لم يمتلكوا فقط الذكاء الذي يسمح لهم بالسيطرة على الموارد الطبيعية والتحكم في الضعفاء بل تمكنوا حتى من امتلاك ما يسمح لهم بالتحكم في عقول الفلاسفة والمفكرين الذين أصبحوا مجرد أدوات كذلك في يد أصحاب القرار تستخدم في إنتاج الأفكار التي تسوغ للحالة المدنية التي تخدم مصالح الأقوياء، وبهذا يلخص روسو دور المفكر في المجتمع، الدور الذي لا يمكن إلا أن يأخذ أحد الشكلين ، الشكل الأول وهو إبراز الحقيقة كما هي وهو الدور المرجو منه، والشكل الثاني وهو الدور الحقيقي الذي يقوم به والمتمثل في تغليف ما هو إيديولوجي مصلي بحت بما هو إبستيمي معرفي من أجل إعطاء مصالح الأغنياء وسلطة المستبدين صورة الحق المشروع والمبرر قانونيا وعقلانيا، وبهذا يكون روسو قد طرح إشكالية علاقة المثقف بالسلطة قبل فلاسفة العصر المعاصر ، وجعل بموقفه هذا المفكر في محل شك، كما انتقد بشدة المبادئ التي أقاموا عليها نظرياتهم، ورأى أن هذه المبادئ ليست منطقية ولا هي موضوعية بل هي مبادئ نفعية بحتة، وبالتالي فهي نظريات لا يمكن الاعتماد عليها في فهم الكيانات السياسية والاجتماعية التي أوجدها الإنسان، يقول: «سوف أكتفي بالبحث في المنشآت الإنسانية من حيث مبادئها، وبتقويم حسب الإمكان الأفكار الخاطئة التي يزودنا بها المؤلفون المرتشون، وعلى الأقل بالحيلولة دون أن يتخذ العنف والظلم بوقاحة اسم الحق والعدل»²، وعليه فالمشروع الروسوي ينطلق أساسا من نقد الطرح الهوبزي، خاصة لحالة الطبيعة التي وصفها بحالة حرب الكل ضد الكل، إن

¹ - المصدر نفسه، ص 372.

² - جان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، ص 374.

جون جاك روسو لا يعتبر هذه الأفكار خاطئة فقط بل يعتبرها أفكارا زائفة وصادرة عن مفكر مرتشي، أي أنها صياغة خاطئة بطريقة متعمدة لأفكار أريد بها إلباس الظلم بالحق والعدل وغايتها تبرير وجود العبودية ونظام الحكم المطلق.

يعود روسو إلى تأمل وضع الجنس البشري في الحالة المدنية ويلاحظ أن أهم ما يميز هذا الوضع هو التناقض الجلي الذي يطبع العلاقات البشرية، «ففي العلاقات التي تربطنا كأشخاص نعيش في الحالة المدنية خاضعين إلى القوانين، أما في العلاقات التي تربطنا كشعوب، فكل واحد يتمتع بالحرية الطبيعية»¹، وكان هذا ما انتهينا إليه في خاتمة المبحث الخاص بفكرة الحرب عند توماس هوبز، بحيث وضحنا أن العلاقات التي تربط الدول في الحالة المدنية هي في طبيعتها العلاقات ذاتها التي كان يخضع لها الأفراد في حالة الطبيعة، بحيث يتمتع كل شعب من الشعوب وكل كيان سياسي بالحرية الطبيعية التي تتجسد في «حالة يكون فيها جميع البشر قادرين على التدخل من دون قيود في طريق الجميع، وكان هذا النمط من الحرية الطبيعية سيقود إلى فوضى اجتماعية لن يتحقق فيها الحد الأدنى من احتياجات البشر، أو كان سيتم قمع حريات الضعيف من قبل القوي»²، وعلى الرغم من أن روسو ينتقد النسق الهوبزي بشكل عام إلا أنه يتفق معه في فهم الحرية على أنها ضد التقيد والاضطهاد، إذ يرى روسو أن معيار الاضطهاد هو الجزء الذي أومن بأنه يلعب به من قبل بشر آخرين، بشكل مباشر أو غير مباشر،

¹ - جان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، ص 374.

² - إيزايا برلين، الحرية: خمس مقالات عن الحرية، ترجمة: يزن الحاج، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2015، ص 202.

مع أو من دون نية فعل هذا الإحباط آمالي، وأن تكون حرا بهذا المعنى أعني أن لا يكون ثمة تدخل من الآخرين، وكلما اتسعت مجال عدم التدخل اتسعت حريتي¹، أما هوبز فيلخص فهمه للإنسان الحر على أنه هو ذاك الذي لا تتم إعاقته عن فعل ما تكون لديه إرادة لفعله.

يعتقد روسو أن وضع الإنسان وحاله في الحالة المدنية أسوء مما كان عليه في حال الطبيعة، «لأننا إذ نعيش في ذات الوقت في النظام الاجتماعي والحالة الطبيعية، نخضع إلى مضارهما معا، دون أن نجد الأمن في أي واحد منهما»²، وحين يشرح روسو موقفه هذا جعل الأساس الذي يقوم عليه هذا الضرر المزدوج هو «الأفكار السائدة عند الملوك حول الاستقلال المطلق»³، فهؤلاء الملوك أو أصحاب السلطة لهم خطاب مزدوج ويختلف حسب الجهة الموجه لها، فحين يخاطبون المواطنين فإنهم يستعملون القانون، وحين يخاطبون الأجانب يقيم خطابهم على فكرة المصلحة العليا، ولكن روسو متأكد أن الغرض في الحالتين هو الغرض ذاته، ويتمثل في «الحفاظ على العنف» ، وعليه يستنتج أن القوانين المدنية تظل مجرد أوهام، وهي أقل وهنا من القوانين الطبيعية ، ولا يمكنها أن تحقق الغاية المنشودة والمتمثلة في تحقيق الأمن، بل هي تحقق فقط مصلحة القوي، لهذا يرى روسو أنه «في الظروف التي نجد فيها أنفسنا، مهما كان أحد النظامين الذي نفضله ... لم نفعل شيئا ووضعنا أنفسنا في أسوأ حال يمكن أن نجد أنفسنا فيها،

¹ - المرجع نفسه، ص 202.

² - جان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، ص 374.

³ - المصدر نفسه، ص 374.

فيما يبدو لي أصل الكوارث العمومية الحقيقي¹، فهذا الوضع الذي يجمع بين النظامين الطبيعي على مستوى الدول والمدني على مستوى الأفراد هو أصل² الكوارث العمومية والمتمثلة في حالة الحرب بين الدول حسب روسو، ويعود إلى انتقاد توماس هوبز بالتأكيد على أنه عوض جعل حالة الحرب حالة طبيعية للإنسان كما يقول هوبز، فإن الواقع والحقيقة يثبتان أن هذه الحرب قد نشأت من نتيجة «الاحتياطات التي اتخذت من لدن البشر لضمان سلم مستدام»³، وبهذا يكون توماس هوبز حين أراد القضاء على حرب الأفراد قد وقع في حالة حرب الشعوب والدول.

2- حالة الحرب:

¹ - المصدر نفسه، ص 374.

² - يشرح الأستاذ فتحي تريكي فكرة الأصل في فلسفة روسو بالمقارنة بينه وبين كل من توماس هوبز وجون لوك في موضوع السياسة قائلا: السياسة عند هوبز هي فن تحويل الحرب إلى سلام، أما عند لوك فهي فن الحفاظ على السلام ضد الحرب، ما السياسة عند هوبز إلا استمرار للحرب بوسائل أخرى، بينما هي في رؤية لوك استمرار للسلام بوسائل أخرى، ويتنزل روسو في فضاء إشكالي قريب من مدرسة هوبس ولوك، فبالنسبة إليه تكون صورة التفكير هي التفكير الأصل... ويصبح الأصل مفهوما داخل تفكير روسو في النطاق الذي يقطع فيه مع كل إيديولوجيا للأصل تخلط بين الحالة الأصلية وبين الحالة الاجتماعية الموجودة.

فتحي تريكي، الفلاسفة والحرب، ترجمة: زهير المدنيني، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى 2015، ص 73، 74.

³ - جان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، ص 374.

يرى جون جاك روسو أن مصطلحي الحرب والسلام متلازمين، ولكن السلم أوسع دلالة من الحرب، ويستدل على هذا الرأي بالقول: «إن ألفاظ السكينة والوحدة والوئام وكل الأفكار التي توحى بالعطف والمحبة المتبادلة وكأنها كامنة في كلمة السلم العذبة»¹، فالسلم ليس حالة اجتماعية فقط تسود العلاقات بين الأفراد في المجتمع أو علاقات الدول فيما بينها في المجتمع الدولي، بل هو عند روسو حالة شعورية وعاطفية كذلك، متعلقة بالجانب الوجداني للأفراد، إنه شعور نابع من القلب أو يفيض منه على شكل محبة ويتجسد في الروابط التي تربط البشر فيما بينهم أولاً والكائنات الأخرى في النظام الكوني بصفة عامة ثانياً.

لكن هذا التصور للسلم لا يتوافق مع تشكيل الكون، فهذا الأخير حسب روسو لا يسمح بوجود أو خلق سعادة دائمة وكاملة بين جميع الكائنات التي يتكون منها الكون، باعتبار أن وجود بعضها قائم على فناء البعض الآخر، أو كما يقول روسو: «إن هناء الواحد منها يؤدي إلى شقاء الآخر، فكل واحد يعطي لنفسه الأفضلية وفق لقانون الطبيعة»²، وهذا الأمر ينطبق حتماً على البشر حسب روسو، فالجنس البشري لا يكتفي بالضرورة فقط لحفظ بقائه بل يتعداه دائماً إلى طلب المزيد وتحقيق الكماليات وهذا وفق سعة دائرة أهوائه، فالطبيعة لا تطالبنا بأكثر من الضروري لبقائنا، «بيد أن الرغبة في القيادة لا تزول مع الحاجة التي نشأت عنها، فالسلطان يوقظ حب الذات ويصانعه، والعادة تقويه، وهكذا يعقب

¹ - المصدر نفسه، ص 374.

² - جان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، ص 376.

الهوى الحاجة، ... فالهوى ليس من الطبيعة»¹، فالأهواء هي ما يدفع كل فرد من أفراد المجتمع، أو جماعة من الجماعات التحتية في المجتمع للعمل لصالحها وعلى حساب الأفراد أو الجماعات الأخرى، يقول: «كل مجتمع جزئي يميل على الانفصال عن المجتمع الكبير إذا كان ضيقا حسن الاتحاد»²، ونتيجة هذا تكون بالضرورة هي تعكير صفو السلم بالنسبة لمن يتحمل الأذى، ومن الطبيعي هنا أن تنشأ ردة فعل لهذا الأذى كمحاولة لدفعه ضد فاعله، وهنا «ينشأ الشقاق وتنشأ النزعات وينشأ القتال في بعض الأحيان، لكن لا تنشأ الحرب بعد»³، يفهم من هذا أن ما يصفه توماس هوبز بحالة حرب الكل ضد الكل لا يعتبره روسو حربا بل مجرد نزاع أو شقاق أو يمكن أن يكون قتالا، لكنه لا يصل أبدا إلى مرتبة الحرب، وقد جعل سبب هذه الحالة هي الإرادة الإنسانية السيئة تجاه الإنسان الآخر.

أما الحرب، فهي وفق ما يراه روسو تتعلق بوعي كائن عاقل واعتقاده يقينا أن حفظ بقائه لا يتناقض مع هناء شخص آخر بل يتناقض مع وجود هذا الأخير بالكامل، ونتيجة لهذا الوعي وهذا الاعتقاد يعمل كل طرف على تدمير الآخر بكل الوسائل المتاحة وللسبب ذاته والمتمثل في السعي لحفظ البقاء، فهذه «الإرادة الواضحة في التدمير المتبادل، وجميع الأفعال المتعلقة بها تنتج بين

¹ - جون جاك روسو، إميل أو التربية، ترجمة: عادل زعيتر، المركز القومي للترجمة، مصر، 2015، ص 87، 88.

² - المصدر نفسه، ص 31، 32.

³ - جان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، ص 376.

العدوين علاقة تسمى حرباً¹، فعلاقة الحرب حسب روسو هي علاقة عداوة واعية قائمة بين كيانين على الأقل وعاقلين لهما هدف مشترك يتمثل في العمل على تدمير الطرف الآخر، فالحرب صادرة عن إرادة واضحة لتحقيق الهدف ذاته، ويستعمل فيها كل الوسائل المتاحة وكل الأفعال التي يمكن أن تؤدي إلى تحقيق تدمير الطرف الثاني.

يلخص روسو هذا التصور بقوله: «الحرب تكمن في إرادة تدمير العدو بصفة مستمرة وواضحة وعن روية، لأنه لكي نقرر أن حياة ذلك العدو مناقضة لهائنا، يجب الثبات والتعقل، مما يؤدي إلى قرار دائم، ولكي تكون العلاقة متبادلة يجب أن يهدف العدو بدوره وهو يعلم أن حياته مهددة إلى الدفاع عن نفسه على حساب حياتنا، وكل هذه الأفكار متضمنة في كلمة حرب²، يتضح لنا من هذا القول أن روسو يشترط في الكائن الذي يخوض الحرب أن يكون عاقلاً وهذا من أجل أن يكون قراره قراراً عقلياً ومبني على أسباب منطقية وهو قرار دائم وثابت وليس قرار عاطفي يمكن أن يتغير في أي لحظة، ويشترط فيه أن يصدر عن وعي بالإرادة السيئة للآخر الراغب بدوره في تدمير عدوه، وبالتالي ينشأ عن هذا الوعي ردة فعل مماثلة في الهدف ومعاكسة في الاتجاه، فالحرب حسب روسو لا يمكن اختزالها في فعل المعركة أو عدة معارك، بل هي أشمل من ذلك وأوسع، إنها

1 - المصدر نفسه، ص 376.

2 - اجان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، ص 378.

مجموعة أفكار عن حالة عداوة تسود علاقة طرفين تترجم واقعيًا إلى الإرادة السيئة لكل طرف في تدمير الآخر وتنتج ما أسماه روسو بالآثار العمومية الكارثية

إن جوهر الحرب عند روسو هو تلك الإرادة السيئة التي يحملها كل طرف تجاه الآخر، وعلى أساسها تتحدد علاقة الطرفين، هذه العلاقة يمكن أن تأخذ ثلاثة أنماط متميزة:

- فهي تكون علاقة حرب إذا تحولت إلى حالة عدوان.
- أو حالة عدم وجود ما يثبت انتفاء إمكانية العدوان.
- ويمكن أن تصبح هذه العلاقة علاقة سلم في حالة ما تم عقد اتفاق بصفة رسمية.

يقول روسو في هذا الشأن: «عندما تقام حالة الحرب لا يمكن توقفها إلا بإقامة السلم بصفة رسمية، وإلا فكل واحد من العدوين إذ لا يتوفر على دليل أن الآخر قد قعد عن تهديد حياته، لا يستطيع أن يقعد أولاً، يجب عليه أن يقعد عن الدفاع عنها على حساب حياة الآخر»¹، وعليه فالسلم يحتاج إلى اتفاق وعقد رسمي بين الطرفين وفق ما قاله روسو، ويتضمن هذا الاتفاق تقديم ضمانات من كل طرف على انتفاء الإرادة السيئة لديه للإضرار بالطرف الآخر، وإلا فكل الطرفين يبقيان على القدر اللازم من الحذر والاستعداد للدفاع عن حياتهم ضد الطرف الآخر، ولكن حتى هذا الاتفاق قد لا يكون كافياً لإنهاء الحرب، فلا شيء يمكن أن يجبر أحد الطرفين على عدم خرق الاتفاق والغدر بالطرف الثاني وفق النظرة الميكانيكية.

¹ - جان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، ص 378.

بناء على ما سبق ذكره قسم روسو حالة الحرب إلى قسمين: حالة الحرب الفعلية، وحالة الحرب، فعندما «يترك كل واحد الآخر في الريب والتردد بأفعال عدوانية مستمرة، فذلك ما يسمى القيام بالحرب بالمعنى الصحيح»¹، فالحرب الفعلية تجمع بين الأفعال العدوانية المستمرة وحالة نفسية تميزها الريبة والتردد، ولكن عندما يكون الطرفان في حالة عداوة «وقد أعلننا عن الحرب هادئين دون أن يقوم أحدهما بأي هجوم ضد الآخر، فإن علاقتهما ما دامت لا تؤدي إلى أثر فعلي فإنها تسمى حالة حرب فقط»²، فوجود النية والإرادة السيئة ولو لم تترجم إلى هجوم فعلي على الآخر يكون كافياً لتسمية هذه الحالة بحالة حرب.

يؤكد جون جاك روسو على أن هذه الحالة غالباً ما يصل إليها الطرفان عندما تطول حالة الحرب، يقول: «عندما تطول الحروب وتصبح مضجرة، تنتج عادة هذه الحالة»³، وهي في نظره حالة تكون أخطر من حالة الحرب الفعلية نفسها، لأنها تتسم بالترقب والحذر، وكل طرف فيها ينتظر الفرصة المناسبة للانقضاض على عدوه والقضاء عليه، لذا فإن أي تراخي من أحد الطرفين في هذه الفترة قد يؤدي إلى مفاجأته من الطرف الآخر، يصف روسو هذه الحالة بقوله: «لا ينتظر إلا مناسبة مواتية لمفاجأة العدو، وفي الغالب تكون حالة الحرب الناتجة عن

¹ - المصدر نفسه، ص 378.

² - جان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، ص 378.

³ - المصدر نفسه، ص 378.

التراخي أخطر من الحرب نفسها»¹، وعليه فإن توقف العدوان والمعارك لا يعني أبدا غياب الحرب، بل يمكن أن تكون هذه الحالة أخطر من حالة الحرب نفسها كما قال روسو.

يجرونا هذا إلى الحديث عن الحالات الأخرى المشابهة لحالة الحرب - وليس حالة الحرب الفعلية - مثل حالة الهدنة ووقف القتال وحالة سلم الله²، أي حالة إنهاء الحرب بأمر إلهي، التي يتساءل روسو حولها: هل الهدنة ووقف القتال وسلم الله تشكل حالة حرب أم سلم؟ وكانت إجابة روسو متناغمة مع المفاهيم التي سبق التطرق إليها وهي مفهوم الحرب ومفهوم الحرب الفعلية ومفهومه لحالة السلم، والتي تثبت أن الحالات التي يتساءل حولها ليست «سوى حالة حرب متحولة يكون فيها العدوان عاجزين عن العمل دون فقدان إرادة الإضرار بالآخر أو سترها»³، ودليله على ما يقول هو أن فترة الهدنة أو وقف الاقتتال غالبا ما تستغل من أجل إعادة بناء القوة اللازمة للعودة إلى حالة الحرب الفعلية، فهي فترة تستغل في جمع الأسلحة والمواد اللازمة وتدريب الرجال والجوسسة على العدو والقيام بكل العمليات الحربية عدا الاقتتال، وهذه العمليات تثبت بوضوح أن النوايا مازالت سيئة ولم تتغير، وعليه فحالة الحرب كذلك تبقى قائمة بالضرورة.

¹ - المصدر نفسه، ص 378.

² - في فترة العصور الوسطى غالبا ما كان يتم إضفاء الطابع الديني على فكرة الحرب، فهي كانت مرتبطة بالأفكار الثيولوجية، تعلن باسم الله وتنتهي باسم الإله كذلك، وهذا السلم الذي يعقب الحرب التي انتهت باسم الله يسمى سلم الله.

³ - جان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، ص 378.

وعليه نقول إن روسو يعتقد أن الحالة الوحيدة التي تتغير فيها النوايا وينتقل فيها الطرفان من حالة الحرب إلى حالة السلم هي حالة عقد اتفاق سلم، عقد يبرم بين طرفين أو دولتين وهو يشبه العقد الذي تصوره للخروج من حالة الطبيعة إلى الحالة المدنية، فهذا العقد بين الدول يجعلها كذلك تخرج من حالة الطبيعة إلى الحالة المدنية بين الدول.

3- نقد روسو للطرح الهوبزي لحالة الحرب الطبيعية:

يرفض روسو كما سبق القول طرح توماس هوبز حول حالة الحرب الطبيعية، والتي وصفها بحالة حرب الكل ضد الكل، ويتساءل روسو بصيغة الاستفهام الاستنكاري قائلاً: «من ذاك الذي استطاع أن يتصور دون أن يرتعد نظام الحرب الطبيعي الأخرق لكل فرد ضد الجميع»¹، هذا التساؤل لا يدل فقط على رفض روسو الفلسفي لطرح توماس هوبز، بل يتجاوزه إلى التهمك حين يصف التصور الذي قدمه هوبز بالتصور الأخرق، ففي هذا دلالة على أنه يعتبر هذا التصور فيه الكثير من السذاجة والتفاهة، وصاحبه أحمق وضعيف العقل وتغيب عن هذا التصور الحصافة والرصانة والفتنة والوعي والتعقل وهي صفات مطلوبة في كل عمل فلسفي راق، ويعتبر روسو أنه لا يمكن تصور أي نوع من الكائنات

¹ - جان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، ص 380.

كان يمكن أن تحافظ على بقائها في وسط تحكمه مثل هذه الوحشية والكرهية، بمعنى أنه لا يمكن لا من الناحية المنطقية ولا من الناحية الواقعية العملية أن نتصور أن أهم علاقة كانت تربط الأفراد في الحالة الطبيعية كانت هي علاقة حرب الكل ضد الكل.

يرى روسو أن الكائن «الذي يظن أن هناؤه متعلق بدمار كل النوع الذي ينتمي إليه»¹ هو حيوان غريب، وسوف نبين وجه الغرابة فيه لاحقاً، ويعتبر أن ما دفع هوبز لتقديم تصوره في هذه الصيغة لم يكن سوى «الرغبة بل الجنون في إقامة الحكم الاستبدادي والطاعة المستسلمة»²، ينتج من هذا أن التصور الذي قدمه هوبز لا يعبر عن حقيقة تاريخية ولا حتى عن وجهة نظر منطقية، بل هو تصور وضعه لغرض أساسي واضح يتمثل في السعي لتبرير نظام الحكم المطلق من خلال فكرة الحرب الطبيعية التي تنشئ من الفراغ السياسي، أي أن هوبز يريد أن يجبرنا على قبول العيش في العبودية في ظل الحكم المطلق بدلا من الاستمرار في الاقتتال في حالة الحرب الطبيعية.

يعود روسو ليبين بالحجج المنطقية تهافت الطرح الهوبزي فيما يخص حالة الحرب التي بنى عليها نظريته في العقد الاجتماعي، إذ يفترض روسو أنه إذا سلمنا بأن الحالة الاجتماعية أو المدنية التي تأسست عن وعي الأفراد بضرورة

¹ - المصدر نفسه، ص 380.

² - جان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، ص 380.

الاحتكام إلى ما يمليه العقل من تغليب مصلحة الجماعة على حساب المصلحة الذاتية، فإن هذه الحالة «التي تكبح كل ميولاتنا الطبيعية لا يمكنها أن تفنيها، فهي لاتزال في أعماقنا على الرغم من أحكامنا المسبقة وعلى كره منا، وتعيدنا غالبا إلى الحقيقة التي نتخلى عنها من أجل الأوهام»¹، فالميلول الطبيعية التي يصفها هوبز والمتمثلة في العداوة الطبيعية بين البشر والمدمرة للجنس البشري لو كانت حقيقية فهي لن تفنى بمجرد انتقال الإنسان من الحالة الطبيعية إلى الحالة المدنية والتي ليست سوى مجموعة من القوانين التي تكبل هذه الميلول الطبيعية الشنيعة، ولكنها لا تقضي عليها لأنها جزء من كيان الإنسان، وكل ما تفعله الحالة المدنية تجاه هذه الميلول هو جعلها جامدة وغير فعالة، يتخلى عنها الفرد من أجل ما يصفه روسو بالأوهام المتمثلة في حالة السلم التي لا يمكن أن تتحقق بالطريقة التي وصفها بها توماس هوبز، وحجة روسو في هذا هي أن الإنسان سوف يكون مدفوعا من الداخل باستمرار لكسر الأغلال التي قيدت بها الحالة الاجتماعية ميلول الإنسان الطبيعية، ويعطينا روسو مثال يصف فيه حالة الإنسان لو كانت حقيقته مثل ما يصفها هوبز بحيث يرى أن الفرد «يأسف على ميلاد أطفاله، ولفرح لموت أخيه ولكانت أول مبادرة يقوم بها عندما يرى أحدهم نائما هي قتله»²، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لو سلمنا مع هوبز بأن طبيعة الإنسان هي طبيعة شريرة في الأصل، فإن الطبايع الخيرة التي نتصف بها تصبح طبايع تعبر عن حالة غير طبيعية في الإنسان، أي أن «الرفق الذي يحثنا على مشاركة نظرائنا في سعادتهم، والشفقة التي تجعلنا نتشبه بمن يعاني الآلام، وتأسفنا على آلامه، شعورا مجهولا ومناقضا للطبيعة، ولعدِّ

¹ - المصدر نفسه، ص 380.

² - جان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، ص 380.

الإنسان الموصوف بالحنان والشفقة مسخاً¹، يفهم من كلام روسو أن وجود هذه الصفات الطيبة بصورة مشتركة لدى جميع البشر - مع التسليم بتفاوت درجة حضورها في سلوكات الافراد - دليل على أنها صفات طبيعية واصيلة في الإنسان وليست من ثمار الحالة الاجتماعية، فلو كانت كذلك ، لعرفت بعضها بعض الشعوب وجعلت منها الباقي، أو أننا سنجد بعض هذه الصفات موجودة لدى بعض الشعوب ومنعدمة عند شعوب أخرى، وذلك حسب نوعية القيود التي تقيد بها الطبيعة البشرية الشريرة.

يواصل روسو نقده العنيف للنسق والطرح الهوبزي، فبعد أن وصف تصويره بالتصور الأخرق، ها هو يصف هوبز بالسفستائي، ويرفض كذلك إمكانية بناء العداوة المفترضة بين جميع الناس على أساس آخر يختلف عن الفطرة الطبيعية للأفراد، هذا المبدأ الثاني هو مبدأ التنافس، يقول روسو: «إن السفستائي قد يقول بدون جدوى، إن العداوة المتبادلة ليست فطرية ومباشرة بل مبنية على التنافس الذي لا مفر منه لحق جميع الأفراد في كل شيء، لأن الشعور بهذا الحق المزعوم ليس طبيعياً للإنسان أكثر من الحرب التي تنشأ عنه»²، وعليه فإن روسو يرفض وجود مبدأ التنافس بين الأفراد في حالة الطبيعة، وذلك بسبب استحالة أن يكون لدى الإنسان في الحالة الطبيعية مثل هذا الشعور بالحق الطبيعي في كل شيء حسب روسو.

¹ - المصدر نفسه، ص 380.

² - جان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، ص 380.

إن هذا المبدأ باطل مثل بطلان فكرة الحرب الطبيعية التي تنشأ عن هذا المبدأ، ويعتبر روسو أن الخطأ الذي دفع هوبز وغيره من الفلاسفة للقول بهذه الفكرة « يكمن في الخلط بين الإنسان الطبيعي والناس الذين يرون اليوم نصب أعينهم، وفي نقل كائن لا يستطيع أن يعيش إلا في نظام آخر إلى نظامنا الحالي»¹، وقد حذر روسو من هذه المسألة في كتابه أصل التفاوت بين الناس قائلاً: «فلنحذر أن نخلط بين الإنسان المتوحش والناس الذين هم أمام أعيننا»²، إن هذا التأكيد من طرف روسو يجبرنا على ضرورة التمييز بين الإنسان الطبيعي والإنسان المتمدن، وإدراك الفرق بين النظاميين اللذين يعيشان فيهما، فالإنسان الطبيعي عند روسو هو فرد تجمعه المحبة مع أقرانه، ويعيش في سلام شبه دائم، يعيش في عزلة وعلى انفراد وبلا أسرة ولا أصدقاء، يقول روسو في وصف الإنسان المتوحش: «فلنستنتج إذن أن الإنسان المتوحش إذ كان هائماً على وجهه ولا صناعة له، ولا كلام، ولا مسكن، ولا حرب، ولا ارتباط، ولا حاجة لأمثاله، ولا رغبة له في إضرارهم ... وقد كان معرضاً لقليل من الشهوات»³، إن عالم الإنسان المتوحش عالم مستقر، يستمر في وجوده بنفس الطريقة الساذجة والمسالمة عموماً، والسبب في ذلك أن حاجاته بسيطة، وأهواؤه كذلك قليلة بحيث «لا تتجاوز رغباته حد حاجاته الطبيعية، وكل ما يعرفه من خيرا الطبيعة هو الغذاء والأنثى والراحة، وكل ما يخوفه هو الجوع والألم»⁴، فالإنسان في الحالة الطبيعية لم يعرف عناء إجهاد العقل بالتفكير والاستدلال، بل كانت عاطفة الرأفة وعاطفة حب الذات هما ما يسيطر على حياته،

¹ - المصدر نفسه، ص 380.

² - جون جاك روسو، أصل التفاوت بين الناس، ص 46.

³ - جون جاك روسو، أصل التفاوت بين الناس، ص 79.

⁴ - جان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، ص 386.

وبهما يحقق الإنسان المحافظة على حياته، وبهما استغنى عن المشاعر والعواطف الأخرى بحيث كان قليل التنافس ولا يملك تصورا للملكية أو العدالة أو الصناعة أو الحرب، وعليه فإن الإنسان المتوحش هو إنسان سابق عن الأخلاق، أي أنه يتصور العنف على أنه أذى وضرر وليس على أنه جريمة.

أما الإنسان الحديث أو المتمدن، فهو نتيجة حالة وصل إليها الإنسان خلال رحلة تطوره من حالة الطبيعة الخيرة والبريئة إلى حالة الحضارة الفاسدة، وخلال هذا المسار التطوري فقد الإنسان مشاعر الرأفة أو تمكن من كبتها، واستبدالها بمشاعر الأنانية الناجمة عن استخدام العقل والتفكير، وروسو يرى في هذا المقام أن «حال التفكير هي حال مضادة للطبيعة، وأن الرجل الذي يفكر هو حيوان مفسد»¹، بالإضافة إلى هذا فإن روسو يرى أن مختلف طبائع الإنسان تتغير حين يألف المجتمع والحياة المدنية، إذ يصبح عبداً وضعيفاً ومتزلفاً ومتعلقاً بأمور لم يعرفها في الحالة الطبيعية، وتضطرب قوته وشجاعته، ومن هذا يستنتج روسو أن «جميع أسباب الرفاهية التي يوفرها الإنسان لنفسه هي جميعاً أسباب للتعجل في فساد نوعه»²، يظهر فساد النوع الإنساني من خلال إدراك الآخر المغاير لنا ومقارنة ذواتنا به، وهذا هو منبع الشعور بالغيرة والتفاوت بين الناس، وبه يكون الانتقال من المساواة إلى التفاوت والحسد والذل والمهانة، وكل هذه الصفات لم يكن الإنسان المتوحش يعرفها، بل عرفها لما انتقل إلى الحالة الاجتماعية، باعتبار أن

¹ - المصدر نفسه، ص 44.

² - المصدر نفسه، ص 46.

المجتمع الحديث هو مجتمع يسيطر فيه على الإنسان هاجس المنافسة المستمرة بين الأفراد أو الطبقات أو المراتب الاجتماعية والجماعات البشرية، وذلك بعد قيام حكومة حتمية تعمل على قهر الأفراد، وشكلت وظيفتها الوحيدة المتمثلة في حماية الأغنياء أصحاب الملكية حسب روسو.

وصل روسو من مقارنة إنسان الحالة الطبيعية مع الإنسان المتمدن إلى نتيجة مفادها أنه «بمقتضى الطبيعة، ينحصر هناء الإنسان في الضروري الجسدي»¹، أي أن السعادة الإنسانية مرتبطة بحجم الأهواء الإنسانية، والعلاقة بين سعادة الإنسان وأهوائه علاقة عكسية، كلما قلت أهواؤه زاد حجم سعادة الإنسان وكلما كثرت أهوائه نقص حجم السعادة وزاد شقاء الإنسان، ويعزى نمو الأهواء الإنسانية أو نقصانها إلى زيادة امتلاك الإنسان للأشياء أو قلتها، فالزيادة تثير الطمع وكثرة المكاسب وتزيد الشهوات الإنسانية «وتلك هي الطريقة التي تنمو بها الأهواء»²، وهذا ما يعاب عن تصور توماس هوبز عن الإنسان في الحالة الطبيعية حسب روسو.

بالإضافة إلى ما سبق ذكره، يرى روسو أنه حتى وإن افترضنا صدق ادعاء توماس هوبز بنمو الأهواء عند جميع الناس في الحالة الطبيعية فإن «ذلك سوف لا ينتج حالة الحرب الكونية لكل فرد ضد الجميع التي تجرأ هوبس أن يرسم

¹ - جان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، ص 380.

² - المصدر نفسه، ص 382.

لوحتها الشنيعة»¹، يبرر روسو موقفه هذا بالتناقض الموجود بين القول بوجود رغبة جامحة لدى الإنسان المتوحش لامتلاك كل شيء والقول بوجود رغبة لديه في تدمير كل أقرانه من البشر، وهذا باعتبار أن حب التملك هو الرغبة في امتلاك أكبر قدر ممكن من الحاجيات أو طلب حق امتلاكها، وهذا ما لن يناله الفرد المتوحش إذا ما فاز في الأخير وقتل جميع أقرانه، وحجة روسو في هذا هي أن هذا الإنسان الأخير لن يجد من يشهد له بامتلاكه لكل شيء، ولن يجد من يساعده في جمع ما يحقق له الاكتفاء، كما أن الرغبة في الامتلاك ليست هي الرغبة الوحيدة لدى الإنسان، فأهوائه تضم رغبات أخرى لن يستطيع الإنسان إشباعها إذا بقي وحيدا مثل رغبة حب الظهور والمفاخرة، فالآخر معدوم والموجود لن ينال شرف الظهور أمام الآخر في مظهر المالك، ضف إلى هذا أنه لن يستطيع أن يحقق رغبة أخرى وهي حب القوة وممارسة السلطة، لهذا يقول روسو أنه «عوض أن يقتل كل الناس، سيضعهم في الأغلال لكي يكون له عبيد على الأقل، وهذا يغير في الحين المسألة في كل جوانبها»²، بحيث إن استعباد الناس بدلا من قتلهم سوف يسمح للسيد القوي - أو الأسياد الأقوياء - بتحقيق جميع أهوائهم الأساسية والمتمثلة في حب التملك والمنافسة وحب الظهور وحب القوة والسلطة وممارستها، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن هذا الوضع الجديد سوف يقضي على حالة حرب الكل ضد الكل حسب روسو.

¹ - المصدر نفسه، ص 382.

² - جان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، ص 382.

وتبع ذلك يرى روسو أن طبيعة الإنسان طبيعة مسالمة وفضة مليئة بالخوف، وكل الصفات الأخرى التي توحى أن طبيعته عكس ذلك هي صفات مكتسبة نتيجة الممارسة والتجربة ومقارنته مع غيره، ويذكر روسو من بين هذه الصفات المكتسبة الحمية والمصلحة والأحكام المسبقة وأخذ الثأر، ولكن ما يهنا هنا هو أن روسو يرى أن الإنسان المتوحش «لا يعزم على الهجوم على شخص آخر إلا بعد اجتماعه مع بعض الناس، ولا يصير جندياً إلا بعد أن يكون مواطناً»¹، واضح هنا أن روسو قد لجأ إلى تفكيك فعل الحرب من أجل إثبات استحالة وجود الحرب في حالة الطبيعة، إذ يرى أولاً كشرط للحرب حدوث الاجتماع بين الأفراد قبل وقوع الهجوم على فرد أو جماعة أخرى، كما جعل فعل المواطنة شرط أساسى لكي يكون الإنسان جندياً، بحيث يجد المرء نفسه ملزماً على التصرف وفق مبادئ أخرى ويحتكم لعقله قبل أن يصغي لأهوائه²، ومن نافلة القول التذكير بأن الاجتماع والمواطنة هما من مميزات الحالة المدنية، وينتقيان عن الحالة الطبيعية.

من خلال هذا يصل روسو إلى الجزم بخصوص الإنسان المتوحش أنه «لا يمكن أن نرى في كل هذا استعدادات كبيرة للقيام بالحرب ضد جميع أبناء جنسه... ليس هناك إذن حرب عامة بين البشر، ولم يشكل النوع الإنساني لغاية

¹ - المصدر نفسه، ص 382.

²-Dominique Schnapper, Qu est-ce que LaCitoyente, Edition Gallimard, paris, France, 2000, p79.

واحدة وهي أن يدمر بعضه البعض»¹، ويستدل روسو على موقفه هذا بحجة أن الإنسان المتوحش يحكمه ما أطلق عليه الفلاسفة اسم القانون الطبيعي، ولكنه يعتقد أن هؤلاء الفلاسفة كانوا خاطئين في إدراك مضمون هذا القانون ومحلّه، فهم ظنوا أنه يعني مجموعة القواعد التي اتفق الناس عليها من أجل تحقيق المصلحة المشتركة، أي مجموعة القواعد التي تحقق لهم المنفعة حين يتم تطبيقها بشكل عام ومتكرر، وعليه يكون محل هذا القانون ومصدره هو العقل البشري، لكن روسو يرى أن القانون الطبيعي قائم أساساً على مبدئين سابقين للعقل البشري، المبدأ الأول منهما متعلق بسعي الإنسان المتوحش لتحقيق راحته ورفاهيته وسعيه لحفظ بقائه، أما المبدأ الثاني فيتمثل في النفور الطبيعي من مشاهدة هلاك أو تألم كل كائن ذي إحساس وخاصة البشر، ومن تركيب هذين المبدئين يتم اشتقاق كل القواعد والحقوق الطبيعية الأخرى.

كما يختلف روسو عن سبقه من الفلاسفة في مسألة محل هذين المبدئين، فهو يعتقد أن محلها قلب الإنسان، يقول: «لو كان القانون الطبيعي مكتوباً في العقل البشري وحده لكانت قدرته ضئيلة في تسير معظم أفعالنا، لكنه منقوش في قلب الإنسان كذلك بحروف لا تمحى، بحيث يخاطبه بكلمات أقوى من كل مبادئ الفلاسفة»²، هذا ما جعل روسو يعتقد أننا غير ملزمين بجعل الإنسان فيلسوفاً قبل أن نجعل منه إنساناً، هذه الإنسانية يلخصها في دافع الرأفة الباطني

¹ - جان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، ص 382، 384.

² - جان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، ص 384.

الذي يجعل كل إنسان لا يؤذ إنساناً آخر، ولا أي كائن ذي إحساس، باستثناء الحالات التي يكون فيها بقاؤه مهدداً وبذلك يفضل أو يكون مضطراً لتفضيل نفسه عن غيره، وبهذا يكون الإنسان في نظر روسو كائناً ذا إحساس أكثر من كونه صاحب عقل.

نخلص مما سبق أن الإنسان في حالة الطبيعة يمكن أن يعرف عدة حالات مناقضة لحالة السلم التي يفترضها روسو، فهو قد يقتل إنساناً آخر نتيجة حالة غضب، وقد تحدث مشاجرات أو تنطلق نزاعات وتنتشب معارك، ولكنها جميعاً حالات مؤقتة غير دائمة، لا يفتأ الإنسان إلا أن يعود إلى الحالة الطبيعية وهي حالة السلم، يعني هذا أن حالة العداوة الدائمة والحرب المستمرة التي قال بها توماس هوبز لا توجد أبداً، وإن وجدت فلن يتعدى ذلك حالات نادرة حسب روسو، يقول: «لو تعلق الأمر بحرب حقيقية، لنتصور في أي وضعية غريبة سيجد نفسه ذلك الفرد لكونه لا يستطيع حفظ بقائه إلا على حساب حياة فرد آخر ... إن الحرب حالة دائمة تفترض علاقات مستمرة، ولا تكون تلك العلاقات من فرد إلى فرد إلا في النادر»¹، وتبعاً لهذا فإن روسو قد حدد خصائص الحرب في مسألة الدوام وليس العداوة المؤقتة أي إنها حالة مستمرة بين كيانيين سياسيين ولا يمكن أن نتصور حالة حرب بين الأفراد، كما أنه جعل الحرب حالة غريبة وغير مألوفة ولا مستساغة لدى البشر، وأهم خاصية من خصائص الحرب هي أنها تجعل الإنسان لا يضمن بقاؤه إلا إذا تمكن من القضاء على وجود عدوه، وهذه الخصائص لم يألفها الإنسان

¹ - جان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، ص 384.

المتوحش، ولم يكن بوسعها أن يستمر في الوجود في ظل علاقات عداء مستمرة ودائمة.

إلى جانب هذا، يرفض روسو الأدلة التي ساقها توماس ويز حول نماذج لحالة حرب الكل ضد الكل حتى فيما يخص الحالة المدنية، ومنها المبارزات والتحديات والنداءات إلى المبارزة بين شخصين، إن روسو يرفض أن تشكل هذه الحالات دليل على حالة حرب الكل ضد الكل، فهي في نظره «لم تكن تنتج عن حالة حرب حقيقية، بل قضية شخصية كانت تحل في مكان وزمن محددين»¹، ليس هذا فقط ما دفع روسو لرفض إمكانية وجود حالة الحرب الدائمة بين الأشخاص في الحالة المدنية، بل قدم لنا دليلاً آخر على ذلك، فحواه أنه في «الحالة المدنية حيث توجد حياة جميع المواطنين بيد صاحب السيادة وحيث لا أحد يملك الحق في التصرف في حياته أو في حياة شخص آخر، فإن حالة الحرب لا يمكن أن تقع بين الخواص كذلك»²، بمعنى أن حالة الحرب الدائمة تتناقض مع مبادئ العقد الذي بموجبه تأسست الحالة المدنية، وأهم مبدأ في ذلك هو تعهد كل شخص على التنازل عن حقه في استخدام قوته لصالح صاحب السيادة أو لصالح ما يعرف بالقوة العمومية، فإذا تخلى الفرد عن حقه في استخدام قوته فهو بذلك يكون عاجزاً بالضرورة عن القيام بأي عمل من أعمال الحرب، وحتى الملوك لا يمكنهم حسب روسو القيام بحروب شخصية فيما بينهم، أي حروب ملوك مستقلة عن حروب

¹ - المصدر نفسه، ص 384.

² - جان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، ص 384.

الدول، وبهذا فحالة الحرب التي يفترضها توماس هوبز مرفوضة بحجة أخرى حسب روسو، وبذلك تسقط كل المسوغات التي ساقها هوبز.

4- الحالة الاجتماعية أو حالة الطبيعة للدولة:

يتفق جون جاك روسو مع فلاسفة العقد الاجتماعي في كون الحالة الاجتماعية ظهرت نتيجة عقد أو وفاق اصطناعي، لكنه يرفض أن تكون غاية هذا الوفاق الاصطناعي هي القضاء على حالة الفوضى أو الفراغ السياسي المفضي إلى حالة الحرب كما يعتقد هوبز، بل على العكس من ذلك حسب روسو الذي يرى أنه «إذا إتحد الناس بواسطة وفاق اصطناعي سوف نراهم يجتمعون من أجل أن يتباحروا ونرى كل أهوال الحرب تنشأ عن الاحتياطات التي اتخذت لاجتنابها»¹، أي أن الاجتماع الإنساني هو اجتماع حرب وليس اجتماع سلم، وحسب قول روسو فإن الحرب الفعلية أو الحقيقية تنشأ من الاحتياطات التي تم اتخاذها من أجل تجنبها، وأهم هذه الاحتياطات هي خلق الجسم السياسي والذي يحتاج ابتداءً مفاهيم أدق حول جوهره حسب جون جاك روسو.

إن بحث مسألة ظهور الجسم السياسي وطبيعته يسمح لنا بإدراك أن «أول مجتمع تم تشكيله أنتج بالضرورة تشكيل جميع المجتمعات الأخرى، فيلزم إما

¹ - جان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، ص 386.

أن تكون هذه جزءاً منه وإما أن تتوحد لمقاومته، وإما أن تقلده، وإما أن تتركه يبتلعها»¹، بمعنى أن ظهور الحالة المدنية لا تعني إطلاقاً ظهور مجتمع واحد يضم كل أفراد البشرية، بل الواقع يدل على ظهور مجتمع أول يضم مجموعة أو عدداً معيناً فقط من الأفراد، وهذا ما يوحي لأفراد آخرين بفعل الأمر نفسه وخلق مجتمعات أخرى موازية للمجتمع الأول، ويمكن التساؤل هنا عن طبيعة العلاقة التي تنشأ بين هذه المجتمعات، فكما هو واضح في فيما نقلناه عن روسو هناك أربع احتمالات ممكنة من حيث الشكل، ولكن من حيث الجوهر فهي إما علاقة احتواء أو علاقة تصادم ومقاومة، وفي هذا يتفق روسو مع نيقولا ميكيافيلي الذي رأى أن غاية وجود أي كيان سياسي هي التوسع على حساب الكيانات الأخرى وهذه الغاية تؤدي بالضرورة إلى خلق العلاقات التي ذكرناها من حيث الجوهر.

مهما تكن العلاقة بين المجتمعات البشرية أو الأجسام السياسية التي تظهر في الحالة المدنية فإن نتيجة ظهورها هي «تغير وجه الأرض بأكمله، واضمحت الطبيعة في كل مكان، وخلفتها الصناعة البشرية في كل مكان، وحلت القوانين والاستعباد والحرية الطبيعية، ولم يبقى وجود لأي كائن حر»²، يدل هذا على اعتقاد روسو بأن جوهر الحالة الطبيعية هو الاستقلال والحرية، وجوهر الحالة المدنية هو القوانين والاستعباد، بحيث لم يعد هناك إنسان واحد حراً، ولكن فقدان الحرية الطبيعية التي كان يتمتع بها الأفراد في الحالة الطبيعية لا تعني فناء حالة

¹ - المصدر نفسه، ص 386.

² - جان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، ص 386.

الطبيعة، بل إن هذه الأخيرة «تحي من جديد وتظهر حيث لا ننتظرها على الإطلاق، إن الاستقلال الذي ينزع من البشر يلتجئ إلى المجتمعات»¹، أي اختفاء سمات الحالة الطبيعية التي تطبع علاقات الأفراد في لحظة ظهور المجتمعات لا يعني بالضرورة فناء هذه الحالة الطبيعية، بل إن سماتها سوف تطبع المجتمعات التي خلقها الإنسان وعلاقتها فيما بينها، وأهم هذه السمات هي الاستقلال، باعتبار أن ما يجعل كيانا سياسيا متميزا عن غيره هو استقلاله وحرية الطبيعة، ولكن إذا ما قارنا بين الحالة الطبيعية التي كان عليها الأفراد وتلك التي أصبحت عليها المجتمعات فسوف يتبين لنا أن صدمات المجتمعات ستكون أقوى من صدمات الأفراد وأكثر رعباً، لأن قوة المجتمعات تفوق بكثير قوة الأفراد، فهي تتشكل من مجموع قوى الأفراد المادية والعقلية والوجدانية، ومن هذا الأساس بدأ روسو التأسيس لموقفه القائل بأن كل أهوال الحرب تنشأ عن الاحتياطات التي اتخذت لإجتنابها.

يبدو لنا أن روسو في موقفه هذا يناقض المبدأ الأساسي الذي يتأسس عليه كل اجتماع بشري مهما كان بسيطاً أو معقداً والذي عبر عنه أرسطو طاليس بقوله: «يتحتم تضام وتآلف من لا يستطيعون البقاء منفردين»²، فالاجتماع البشري ينشأ من أجل التبادل بين الأفراد للحاجات والخدمات التي لا يسع المرء توفيرها لذاته بذاته، وبذلك يحقق المجتمع ما يصطلح عليه بالاكتهاء الذاتي، ولكن إذا كان الأمر بهذا الشكل من البساطة، فما هو سبب تصادم المجتمعات ودخولها في حروب؟

¹ - المصدر نفسه، ص 386.

² - أرسطو طاليس، في السياسة، ترجمة: الأب أوغستينس برباره البولسي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى، 2012، ص 100.

ويتساءل روسو عن هذا الأمر بصيغة أخرى قائلاً: «ألا تستوجب تشكيلاتها الخاصة أن تحتفظ فيما بينها على سلم أبدي؟ هل هي مجبرة مثل البشر على البحث في الخارج عما يوفر حاجاتها؟ ألا تجد في أنفسها كل ما هو ضروري لحفظ بقائها؟»¹، تبعا لهذه التساؤلات يمكن فهم أن روسو يعتقد أن سبب ظهور المجتمعات هو توفير ما يعجز الفرد عن توفيره لنفسه، وبذلك فالجسم السياسي يجب أن يجد في ذاته كل مل يحتاج إليه أفرادها، وهو في هذا يتفق مع ما قاله أرسطو، ولكن حتى وإن تم تحقيق هذا الاكتفاء داخل المجتمعات فإن المنافسة بين المجتمعات تبقى موجودة حتماً وهي تؤول إلى الفتنة والصراع والحرب، فكيف يفسر روسو هذه المعضلة؟

من أجل فهم ظاهرة الحروب والصراعات بين الأجسام السياسية يلجأ جون جاك روسو إلى إجراء مقارنة بين الأفراد في الحالة الطبيعية وبين الأجسام السياسية التي يشكل حالها حالة طبيعية كذلك، يقارن بينها من خلال مجموعة من العناصر التي تحكم سلوك الأفراد وسلوك الأجسام السياسية، وأول عنصر من هذه العناصر هو العلاقات، إذ يرى روسو أن الفرد في حالة الطبيعة لا تربطه علاقات وثيقة بغيره من بني جنسه، إذ «كان الإنسان المتوحش يعيش منفرداً وحيداً متعطلاً»²، فالفرد في هذه المرحلة لا يحتاج إلى أقرانه بقدر ما يحتاج إلى ثمار الأرض، أما الجسم السياسي فإنه يعمل على تشكيل مجموعة من العلاقات المتبادلة

¹ - جان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، ص 388.

² - جون جاك روسو، أصل التفاوت بين الناس، ص 47.

مع أجسام سياسية أخرى وذلك حتى في حالة تحقيقه للاكتفاء الذاتي، وتكون هذه العلاقات أكثر وثوقاً من علاقات الأفراد، وذلك وفق مبادئ العلاقات الاستراتيجية و توازن القوى التي تسعى من خلالها الدولة للحفاظ على كيانها ومصالحها أطول مدة ممكنة، وعليه فإن مسألة العلاقات مرتبطة مباشرة بمسألة أخرى هي الحاجة إلى الآخر.

إذا كان الفرد في حالة الطبيعة في الغالب الاستغناء عن الآخر والاكتفاء بالبحث عن اليسير الذي يضمن له بقاؤه فإن الدولة «وإن لم تكن في حاجة إلى البحث عن معاشها خارج نفسها فإنها تبحث باستمرار عن أعضاء جدد لتمنحها كثافة أكثر رسوخاً»¹، إن أساس هذا الاختلاف هو الفرق بين مصدر نشأة الفرد ومصدر نشأة الجسم السياسي، فمهما كان مصدر الفرد - حسب اختلاف المعتقدات - فقد أوجد فيه كل ما يحتاجه من أعضاء من أجل تحقيق وممارسة وظائفه الحيوية، أما الدولة فمصدرها الإنسان، وهي في حاجة دائمة للبحث عن أعضاء جدد تضمهم إليها، ولا تملك هذه الأخيرة حداً تتوقف عنده - رغم وجود بعض الآراء الفلسفية التي حاولت تصور العدد المثالي لسكان المدن - بل يمكنها حسب روسو الاستمرار إلى غاية ضم وابتلاع مجتمعا أو جسم سياسي آخر بأكمله وهذا ما تجسد في الحروب الاستعمارية والتوسعية، فالتفاوت واللامساواة «بين البشر لها حدود عينتها الطبيعة، بينما بإمكان اللامساواة بين المجتمعات أن تزيد بلا

¹ - جان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، ص 388.

انقطاع إلى أن يبتلع الواحد منها جميع الآخرين»¹، فالإنسان حين أوجد الدولة سعى فقط لوضع الشروط أو بنود العقد التي تضمن حقوق الأفراد الذين يشملهم العقد والمصالح التي ينبغي على الدولة أن توفرها لرعاياها، ولكنه لم يفكر في حدود توسع الدولة ولا في حقوق أولئك الذين لا يشملهم العقد، بل ربما كانوا جزءاً من الأهداف التي من أجلها تم خلق هذا الكيان السياسي.

الأمر الثالث الذي يحكم كل من سلوك الفرد وسلوك الدولة هو القوّة ونموها، فالفرد حسب روسو لا يمكنه تجاوز الحد الذي حددته الطبيعة لقوته وعظمته، بمعنى أن قوّته محدودة، وهذا على عكس «الدولة لكونها كائناً اصطناعياً، لا يحدّها قياس معين، وعظمتها الخاصة غير محدودة، ويمكنها أن تنميها على الدوام، وتشعر أنها ضعيفة ما دامت هناك دولة أقوى منها»²، فأمن الدول مرتب بجعل قوّتها أعظم من قوّة جيرانها ومنافسيه، وحين تتمكن من تنمية قوّتها فهي تقصد استخدامها ضد الدول الأخرى إما دفاعاً عن كيانها ومصالحها أو هجومياً من كسب المزيد من المصالح والتوسع على حساب الدول الأخرى، وفي كلتا الحالتين فإن الدولة تدخل في علاقة صراع وحرب وتسلّك سلوكاً عدوانياً ضد غيرها، وهذا ما لا نجده عند الفرد في الحالة الطبيعية.

¹ - المصدر نفسه، ص 388.

² - جان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، ص 388.

بالإضافة إلى هذا قارن روسو بين الفرد والدولة في الحالة الطبيعية من حيث عمر كل منهما، فعمر الفرد محدود وقصير مقارنة بعمر الدولة، كما أن أهواء الفرد محصورة بما يدرك من خيارات الطبيعة على عكس أهواء الدول التي لا حصر لها، وهذا الفرق بينهما قائم على تمايز آخر بينهما وهو الاختلاف في التفكير، فالفرد في الحالة الطبيعية حسب لا روسو يفكر، يقول: «فإني أكاد أجتريّ على القول أن حال التفكير هي حال مضادة للطبيعة»¹، أما الجسم السياسي فهو جسم متأمل ويفكر ولو اقتصر ذلك على «أن يقارن نفسه مع الآخرين باستمرار لمعرفة نفسه، إنه متعلق بكل ما يحيط بها، ويجب عليه أن يهتم بكل ما يروج حوله»²، فهذا التأمل للجسم السياسي فيما يجري حوله وبناء على العناصر التي سبق ذكرها هوما يحدد علاقته وسلوكه مع غيره من الأجسام السياسية، فمن خلال تأمله لهذه العناصر يقدر الجسم السياسي إن هو في حالة ربح أو خسارة، صغر أو كبر، ضعف أو قوّة، في حالة اتساع أو تقلص، كل هذا يؤثر على مكانة الجسم السياسي ووثوق علاقته مع غيره، كما أنه يمكن أن يبعث في داخله الشعور بالاطمئنان أو عكس ذلك أي الشعور بالقلق ونشوب نزاعات قد تتحول إلى حالة خسارة ونقصد بها حالة حرب أهلية.

كما يربط روسو سلوك الجسم السياسي بالتغير الحاصل على مستوى الفرد جراء انتقاله من الحالة الطبيعية إلى الحالة المدنية، إذ يرى أن أهواء الفرد في

¹ - جون جاك روسو، أصل التفاوت بين الناس، ص 44.

² - جان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، ص 390.

الحالة الطبيعية تكون محدودة بحدود حاجاته الأساسية الضئيلة والمتمثلة حسب روسو في الأكل والراحة والتكاثر، وبما أن «الأهواء تستمد أصلها من حاجتنا وتطورها من معارفنا... وتطورات وارتقاء العقل لدى جميع الأمم كانت تسير بنسبة حاجات الشعوب»¹، فأهواء الفرد في الحالة الاجتماعية تتضاعف وتتعدد حسب تضاعف معارفه، وبذلك تزيد حاجاته بشكل كبير وواضح عما كانت عليه في الحالة الطبيعية، ويصف روسو حال الفرد في الحالة المدنية بقوله: «جُعل منه كائناً مجنوناً يسرع على الدوام إلى تعذيب أبناء جنسه بواسطة أهوائه التي لا يعرف عنها شيئاً»²، وهذا ما يؤدي إلى خلق حركية في المجتمع لم يعهدها الفرد في الحالة الطبيعية، وتتجسد هذا الحركية في التبادل الناشئ من خاصية القابلية للتكامل بين أفراد المجتمع، وهذه الخاصية لا يمكن حدها وبالتالي فحركية المجتمع غير محدودة بدورها كذلك.

يعتقد روسو أن هذه الأهواء التي تأثر في الجسم السياسي وتترجم في شكل نشاط أعضاء المجتمع تعبر في الحقيقة عن قوّة هذا الجسم السياسي، وبالرغم من اعترافه بوجود العديد من المفكرين الذين يعتبرون بأن الجسم السياسي لا أهواء له وأن المصلحة العليا للدولة يحددها العقل وحده، فروسو يرى أن التاريخ يبرهن على «أن أحسن المجتمعات تشكيلا أنشطها كذلك، وأن أفعال وردود أفعال جميع أعضائها المستمرة في النشاط سواء داخليا أو خارجيا تشهد على قوّة الجسد

¹ - جون جاك روسو، أصل التفاوت بين الناس، ص 52.

² - جان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، ص 390.

برمته»¹، وعليه فالنشاط الاجتماعي المدفوع بفعل الأهواء الفردية التي تملئها الحاجات ويرسمها العقل والتفكير، وهي دلالة صادقة على قوة الجسم السياسي حسب روسو.

هذه الأهواء الفردية لا يملك الجسم السياسي إلا ان يستجيب لها ويعمل على إشباعها قدر الإمكان، لأن الدولة حسب روسو لا يمكنها أن تحكم كل تفاصيل حياة الأفراد «ومن المستحيل ألا تترك لكل واحد منهم حياة فردية منفصلة»²، وبالتالي فإن سعي الدولة للتدخل في كل تفاصيل حياة الأفراد وإخماد أهوائهم مهما كانت تافهة قد يؤدي إلى تفكك الجسم السياسي وفك العقد الذي يربطهم، وحتى استعمال القوة لن يجدي نفعاً حسب روسو لأن «القوة العمومية أقل من مجموع القوى الخاصة في تجمع الجسم السياسي»³، وهذا سبب كافٍ يجعل الدولة تكون حذرة من مواجهة أفراد شعبها بالقوة، وربما فضلت في الغالب توجيه هذه القوة إلى الخارج من أجل تلبية حاجات شعبها، وبذلك تستغل الدولة القوة العمومية وقوة أفراد شعبها، وحينها تحافظ الدولة على بقائها، بمعنى أنه «لكي تستمر تلك الدولة يجب أن تعوّض حيوية أهوائها حيوية حركاتها، وأن تنتشط إرادتها بقدر ما يرتخي نفوذها، تلك هي القوة المحافظة التي وضعتها الطبيعة بين أنواع الكائنات»⁴، فإرادة الحصول على الحاجات هي سر قوة الدول والتي تمنحها القدرة

¹ - جان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، ص 390.

² - المصدر نفسه، ص 390.

³ - جان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، ص 390.

⁴ - المصدر نفسه، ص 392.

على المحافظة على بقائها، بمعنى أنه لكي تستمر الدولة في الوجود لا بد أن تخلق حركية فعالة مع الدول الأخرى.

يجزم روسو أن العلاقة التي تربط الدول بصفة عامة هي علاقة تنزع إلى إتلاف بعضها البعض، فهي علاقة تنافسية تضر من الشر لغيرها بقدر ما تبدي من الخير لنفسها ولشعبها، ولكن روسو لا يتوقف عند تحديد طبيعة هذه العلاقة بل يتعدى ذلك إلى البحث عن مكان وجود هذه العلاقة، وذلك من أجل العثور على «أنواع العدوات المختلفة التي يمكن لها - أي الدول - أن تهاجم بعضها البعض وأن يضر بعضها البعض»¹، إذا كان الجسم السياسي قائم على مبدأ الميثاق الاجتماعي أو العقد الذي يتجسد في شكل حكومة وقوانين سياسية، وكانت أفعال هذا الجسم السياسي تملئها عليه الإرادة العامة، فإنه يمكننا بناءً على هذه الأفعال الحكم على الجسم السياسي هل هو كائن مشكل من أعضاء أو مجموعة أفراد حسنة الإرادة أو هو عكس ذلك؟ وبالتالي يمكن القول أن ما يحدّد العلاقة بين الدول هو الإرادة العامة في كل دولة «مادامت هذه الإرادة تتجلى من خلال أفعال خارجية»²، بالإضافة إلى هذا ينبهنا روسو إلى أن الدولة لا تكون دائماً في حالة تسمح لها بالسيطرة على الكيانات السياسية الأخرى، فقد تكون في حالة قوّة وقد تكون في حالة ضعف وهذا ما يحدد ما إذا كانت نازعة إلى التلاشي أو إلى الرسوخ.

1 - المصدر نفسه، ص 392.

2 - جان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، ص 392.

5- الحرب بين الدول: الوسائل والأهداف.

اعتمد روسو في بيان حقيقة الحرب بين دولة ودولة أخرى على أهم مبدأ من المبادئ التي أسست لنشأة الجسم السياسي والمتمثل في الميثاق أو العقد الاجتماعي، يقول: «إن مبدأ حياة الجسم السياسي، وإن صح التعبير قلب الدولة، هو الميثاق الاجتماعي الذي حالما يصلب يسقط ويتلاشى»¹، فالعقد الاجتماعي هو العلة المباشرة في نشأة الجسم السياسي، ويبقى هذا الأخير يتمتع بالوجود ما دام العقد الاجتماعي ساري المفعول ومعمول بقواعده، لذا اعتبره روسو قلب الدولة، وكل محاولة من الدول العدو للإضرار بالدولة سوف تستهدف بالضرورة العقد الاجتماعي الذي يعتبر قلب الدولة، لكن الواقع يخبرنا أن هذا العقد الاجتماعي ليس مجرد عقد على ورق مثل باقي العقود التي تبرم بين الأفراد، وبالتالي يكون مجرد إتلاف الورق الذي دون عليه العقد يؤدي إلى إتلاف العقد في حد ذاته، إن العقد الاجتماعي يعبر عن الإرادة العامة وليس من السهل إلغائه أو العدول عما يتضمنه من قواعد حسب روسو.

إذا كانت الحرب عند روسو-كما ذكرنا سابقاً-تتعلق بوعي كائن عاقل واعتقاده يقينا أن حفظ بقائه لا يتناقض مع هناء الآخر فقط، بل يتناقض مع وجود هذا الأخير بالكامل، ونتيجة هذا الوعي وهذا الاعتقاد يسعى كل طرف لتدمير

¹ - المصدر نفسه، ص 392.

الأخر بكل الوسائل المتاحة له، وعليه فالحرب تتجسد في هذه الإرادة السيئة المتبادلة بين الطرفين، والرامية إلى تدمير الآخر، نستنتج من هذا أن جوهر الحرب هو الإرادة السيئة المتبادلة بين دولتين وأعراضها هي جميع الأفعال الدالة عن هذه الإرادة السيئة والتي تشكل الوسائل التي تسمح بتحقيق هدف الحرب المتمثل في تدمير العدو وإلغائه من الوجود أو تقويضه وإضعافه وبالتالي القدرة على ضم ممتلكاته والتوسع على حسابيه.

إذا كان روسو يعتقد أن الحرب تهدف في الأساس إلى إصابة قلب الدولة وإتلاف العقد الاجتماعي، فإنه يرى كذلك أنه من الصعوبة بما كان تحقيق هذا الهدف دفعة واحدة، يقول: «بما أنه من العسير تقسيم الكل مباشرة، ولكن يمكن الوصول إلى ذلك من خلال أجزائه»¹، بمعنى أنه إذا كان من الصعب تدمير الدولة ككل ودفعة واحدة، فإنه من الواجب التركيز على تدمير أجزائها الأساسية التي بها يبقى العقد الاجتماعي يشكل حياة الدولة، فالإضرار بأجزاء الجسم السياسي سوف يؤدي حتماً إلى إضعافه، وهذه خطوة مهمة في سبيل تدميره، بعبارة أخرى نقول أنه إذا لم يكن بالإمكان تجريد العدو من الحياة والوجود فإن استهداف أعضائه ومكوناته يؤدي على الأقل إلى إفساد هوائه.

يحدد روسو الأجزاء الأساسية للدولة والضرورية لحفظ بقائها، والتي تشكل هدف مباشر للدولة المعتدية، يحددها بقوله: «إن لم يكن بالإمكان الوصول

¹ - جان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، ص 394.

إلى مركز الحياة، يسعى إلى إتلاف ما يحفظها، تهاجم الحكومة، والقوانين، والعوائد، والمقدرات أو الأموال والممتلكات، فلا بد أن تهلك الدولة عندما يفنى كل ما يحفظ بقاءها»¹، إن تأمل قول روسو يدلنا على أنه قد أحصى أهم العوامل المكونة للدولة والتي تشكل قوتها المادية والمعنوية، ويتقاطع مع أغلب المنظرين السياسيين والشراح في القول أن العوامل الأساسية المميزة للدولة والتي لا يكاد يخلو منها أي تعريف من تعاريفها هي الشعب والإقليم الجغرافي والحكومة أو السلطة السياسية وكيان مستقل أي إنها صاحبة استقلال وسيادة ومتمتعة بالحرية الكاملة في تصريف شؤونها الداخلية والخارجية²، أما عوامل قوتها المادية فهي المقدرات والأموال التي تضم كل الموارد الطبيعية، أما أهم عنصر والذي توقف عليه القوة المادية والمعنوية فهو الشعب أو الرجال.

إن الوصف الذي قدمه روسو للحرب يبدو أنه أشمل وأوسع من الحرب التي يقتصر مفهومها على المواجهة العسكرية بين دولتين والتي تعتمد أساساً على معارك ميدانية بين جيشين نظاميين، فالحرب وفق تصور روسو هي تدمير كل ما يمكن أن يشكل مصدر قوة للدولة العدو، وقد حدد مصادر القوة في الحكومة والقوانين والعادات والتقاليد والأموال والممتلكات والرجال، فهو يعتقد أن الحرب في حقيقتها لا تستهدف فقط الجنود في جبهات القتال، ولكن هدفها الأساسي هو هذه العناصر التي نكرها، يقول: «تستعمل جميع هذه الوسائل أو يمكن استعمالها في

¹ - المصدر نفسه، ص 394.

² - محمود حيدر، الدولة فلسفتها وتاريخها من الإغريق إلى ما بعد الحداثة، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، الطبعة الأولى، 2018، ص 25.

الحرب بين دولة ودولة»¹، يمكن فهم طريقة العمل على إتلاف هذه العوامل التي تحفظ بقاء الدول من خلال تحديد ماهيتها أولاً، والاستعانة ببعض المفكرين والفلاسفة الذين بحثوا هذه المسائل.

إن أول عنصر يتم استهدافه حسب روسو هو الحكومة أو السلطة السياسية، وهي ذلك الجزء من الكيان السياسي الذي يعتني أساساً بسيادة القانون والنظام العام ويشرف على تصريف الشؤون العامة، وبالتالي فإن استهدافه من طرف الدولة العدو يؤدي إلى إحداث خلل واضح في تسيير شؤون الدولة المستهدفة، وقد يؤدي ذلك إلى حدوث الفوضى في المجتمع أو نشوب ثورة داخلية ضد النظام القائم وصاحب السيادة، ويقدم لنا **غوستاف لوبون** شرحاً دقيقاً لآلية استهداف الحكومات وأنظمة الحكم، يقول: «وتحت هذه العوامل المباشرة تتبثق القرارات التي تحرك الجماعات البشرية فجأة، فهي التي تؤدي إلى انفجار وتمرد شعبي ما، أو شن إضراب ما ... أو إسقاط حكومة معينة ... فإذا ما ضربنا مثلاً بالثورة الفرنسية وجدنا أن من بين عواملها البعيدة نقد الكتاب والمفكرين للنظام القديم، ثم ابتزاز هذا النظام القديم وتجاوزاته، وهكذا تمت تهيئة روح الجماهير للثورة»²، وعليه فإن نقد الحكومات والتركيز على إظهار عيوبها ومساوئها وزلتها في التنظيم والتسيير هو جزء من حرب الدول ضد بعضها البعض، وتختلف الوسائل المستعملة لهذا الغرض حسب اختلاف العصور.

¹ - جان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، ص 394.

² - غوستاف لوبون، سيكولوجية الجماهير، ترجمة هاشم صالح، دار الساقي، بيروت، الطبعة الأولى، 1991. ص 99.

أما فيما يخص العادات والتقاليد باعتبارها إحدى الوسائل التي يمكن استخدامها في الحرب حسب روسو، فإن طريقة استخدام هذه الوسيلة تختلف حسب الوضع وحسب التقاليد المستهدفة، وقبل توضيح هذه الفوارق نشير إلى أن ما قاله روسو بخصوص العادات والتقاليد لا يختلف عما ذهب إليه بسكال حين اعتبر أن أفضل طريقة لإشعال فتيل الثورة في أي دولة من الدول هو البحث في الأسس العقلية والمنطقية للعادات والتقاليد السائدة في هذا المجتمع، فبحكم أن العادات والتقاليد والأعراف هي روح الشعب أو العرق وهي خلاصة تجاربه وماضيه العريق، فلا يمكن إخضاعها في لحظة ما للمساءلة العقلية والتبرير المنطقي، لأن ذلك سيؤدي لامحالة إلى التشكيك في إحدى أهم العوامل التي تنظم حياة الأفراد في المجتمع، وهو ما ينتج الفوضى، وفي هذا السياق يقول غوستاف لوبون أن «القادة الحقيقيون للشعوب هم التقاليد الموروثة ولا يمكن لأي حضارة أن تتوجد بدون تقاليد، أي بدون روح قومية»¹، وعليه فإن استهداف التقاليد هو استهداف للقادة الحقيقيين للشعب والمجتمع، لكن ليس كل التقاليد تكون عرضة للهجوم أثناء الحرب، بل فقط تلك التي تكون نافعة لمجتمعها، أما تلك التقاليد البالية التي تمنع تقدم الدولة وشعبها فينبغي الإبقاء عليها، ولتوضيح هذه النقطة نعود إلى غوستاف لوبون الذي يرى أن «أكبر همين للإنسان منذ أن وجد على سطح هذه الأرض كانا يتمثلان في خلق شبكة من التقاليد أولاً، ثم تدميرها عندما تكون أثارها الإيجابية أو النافعة قد استنفذت... والصعوبة تكمن في إيجاد توازن عادل بين الثبات والتحول»²، فإذا كان من الصعوبة بما كان على الشعوب إيجاد هذا التوازن العادل

¹ - غوستاف لوبون، سيكولوجية الجماهير، ص 101.

² - المرجع نفسه، ص 102.

بين الثبات والتحول في التقاليد في حالة السلم، فإن الأمر يصبح أشد صعوبة في حالة الحرب وتدخل دولة أخرى من أجل إتلاف تقاليد معينة أو لغرض تثبيت أعراف وعادات بالية لأجيال عديدة عن طريق القوة أو بتقديم مسوغات مغلوبة لهذه العوائد، إن هذا الأمر الأخير سيؤدي حتما إلى منع التطور عن هذا الشعب ويصبح من المستحيل القضاء عن هذه التقاليد بكل الوسائل، «وحتى الثورات العنيفة نفسها تصبح عاجزة عن ذلك لأنه تحصل عندئذ الفوضى أولاً والانحطاط لا حقاً»¹، وبهذا يتحقق هدف الحرب حسب روسو وهو خلق الفوضى بإتلاف أحد العناصر التي تحفظ بقاء الدولة وهو ما يؤدي إلى انحطاطها وإضعافها.

أما فيما يخص الرجال، وهو تعبير يراد به الإنسان بصفة عامة، فهو عنصر هام من عناصر وسائل الحرب إن لم يكن أهمها جميعاً، لأن الحرب كما تتجسد واقعياً هي حرب الإنسان ضد إنسان آخر، وكل الدول والمجتمعات تهيب أفضل أبنائها من كل الجوانب النفسية والبدنية والعقلية، وتمنحهم أفضل الامتيازات، ثم تزج بهم في الحروب من أجل القتل والافتتال مع خيرة رجال الدولة العدو، وليس المقصود هنا العسكريين فقط، بل المقصود هو القضاء على العلماء والمفكرين والسياسيين ورجال الدين وكل من يمكنه أن يحدث فارقاً في نتائج الحرب، وعليه فالإنسان منه البداية في الحرب وإليه النهاية فيها، إنه الوسيلة والهدف في الوقت نفسه.

¹ - المرجع نفسه، ص 102.

بالإضافة إلى الحكومة والتقاليد والرجال ذكر روسو أن الحرب تستهدف كذلك الأموال والممتلكات، ويقصد هنا الموارد المادية لقوة الدولة، وقد سبق وأن شرحنا في الفصل الأول من هذا البحث وبشكل مفصل دور الموارد المادية في بناء قوة الدولة وعلاقتها بالعناصر المعنوية، لذلك نرى أنه ليس من الضروري تكرار الأفكار ذاتها بصيغة أخرى في هذا المقام.

إن هذا الفعل التدميري الذي يستهدف العادات والتقاليد والحكومة السياسية والرجال والأموال، يمكن أن يشكل وفق طرح روسو المرحلة الثانية في الحرب، أي تلك المرحلة التي تلي المرحلة الأولى المتمثلة في العمل العسكري والنصر الميداني، يقول: «ذلك لأن الهدف من الضرر الذي يصب به العدو في الحرب هو إكراهه على تحمل ضرر أكبر في السلم»¹، ويتمثل هذا الضرر الأكبر في قبول الطرف المهزوم لشروط المنتصر، وغالبا ما تتعدى هذه الشروط نزع سلاح المهزوم إلى فرض غرامات مالية عليه، ونهب خيراته، واغتصاب أراضيها وترحيل سكانه من أراضيهم أو إبادتهم، وفرض الجزية والضرائب عليهم، وغيرها من العقوبات التي تملئ كتب التاريخ، وقد ذكر روسو البعض منها مثل تجارة العبيد والعمل على تغيير حكومة العدو كما حدث في حروب المدن اليونانية القديمة، ولكن ما يجمع بين كل هذه الأساليب هو إخضاع العدو لإرادة المنتصر وإطالة فترة الخضوع هذه قدر الإمكان ومنع نهضة المهزوم بقطع أسبابها، ولعل أفضل السبل لتحقيق هذه الغاية هو إفساد أخلاق أفراد مجتمع العدو، وقد استشهد روسو هنا بسياسة الرومان مع أعدائهم، الذين كان يوصي حكماؤهم بأن «يبعدوا عن أنفسهم

¹ - جان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، ص 394.

ويدسوا في أعدائهم الفنون المخنثة والحضرية التي توهن وتلين الرجال»¹، نلمس هنا تقارب كبير بين هذا الموقف لروسو وما ذهب إليه عبد الرحمان بن خلدون ، ولو أننا نعتبر أن ابن خلدون قد فصل أكثر في هذه المسألة، بحيث أنه ركز على تغيير العوائد والتقاليد واستبدال تلك التي كانت سبب في بناء الدولة بأخرى سوف تكون هي علة فنائها، يقول: «وتصير تلك النوافل عوائد ضرورية في تحصيلها، وينزعون مع ذلك إلى رقة في الأحوال في المطاعم والملابس والفرش والآنية، ويتفاخرون في ذلك ويفاخرون فيه غيرهم ن الأمم ... ويناغي خلفهم في ذلك سلفهم إلى آخر الدولة»²، واضح هنا اتفاق روسو و ابن خلدون حول دور العوائد السيئة واتباعها في إفساد أحوال الرجال التي تؤدي إلى انهيار الدول، وهنا تكمن الصعوبة التي أشار إليها غوستاف لوبون والكامنة في إيجاد التوازن العادل بين الثبات والتحول في عادات وتقاليد الشعوب والأعراف.

إن تأكيد روسو على الدور الذي يقوم به الطرف المنتصر في الحرب في عملية القضاء على التقاليد النافعة لشعبها والإبقاء على تلك التي تضر بصاحبها بحيث تمنع عنه التطور والتقدم، يكون روسو قد تجاوز تحليل نظرية الحرب إلى التأسيس للنظرية الاستعمارية، يقول: «إن الغازي الحاذق يضر أحياناً بالمغلوب بما يترك له أكثر مما يضر بما ينزع منه»³، يتجلى لنا من هذا القول أن روسو قد

¹ - المصدر نفسه، ص 394.

² - عبد الرحمان ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ص 168.

³ - جان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، ص 396.

كشفت عن الأساليب التي يمكن أن يستخدمها المستعمر من أجل إبقاء المستعمر المهزوم تحت سيطرته، وجعله عاجزاً عن إعادة بناء قوته، ونجد أليكسيس دي طوكفيل قد ذكر الفكرة نفسها حين سعى للتظهير لسياسة استعمارية فرنسية في الجزائر، إذ يقول في رسالته عن الجزائر التي كتبها عام 1837م: «إن لهم أرسنقراطية عسكرية ودينية، لا يتعين علينا العمل للقضاء عليها، فذلك غير مجدي تماماً، بل لننظر في كيفية احتوائها وتسخيرها لخدمة مصالحنا ... فالمطلوب إذن ليس فقط الاستفادة من العادات السياسية للعرب، بل المطلوب كذلك العمل على إجراء التعديل الجزئي والتدريجي لقواعد قانونهم المدني»¹، وعليه فإن الأساليب التي تكلم عنها روسو هي في الحقيقة وسائل حربية تدخل ضمن الاستراتيجية التي يمكن أن تستخدمها الدول في حروبها مع الدول الأخرى وفي سياستها التوسعية والإمبريالية.

بالإضافة إلى الأدلة التي قدمها روسو لبيان أن الحرب الفعلية لا تقتصر على العمليات العسكرية ولا تنتهي بانتهاء الاقتتال في ساحة المعارك، بل تمتد لتطبع علاقة الدولتين في مرحلة ما بعد الحرب العسكرية، يستنتج روسو أن الاتفاقيات التي تعقد بعد الانتصار العسكري والتي تبدو ظاهرياً أنها تعقد من أجل غاية واضحة والمتمثلة في إحلال السلم بين الدولتين، هي في الحقيقة ليست سوى شكلاً جديداً من ممارسة الحرب من طرف القوي المنتصر ضد الضعيف المهزوم،

¹ - أليكسيس دي طوكفيل، كتابات طوكفيل عن الجزائر 1837 - 1847م، كوطفيل بين الديمقراطية والاستبداد، ترجمة: علي زيكي، دار الجائزة، القبة، الجزائر، الطبعة الأولى، 2016، ص 85، 86.

يقول روسو في وصف هذه الحقيقة: «وبالنسبة للاتفاقيات التي تشكل إحدى هذه الوسائل شروطاً لها، أليست هذه الأنواع من السلم سوى حرباً مستأنفة بقساوة أكبر، لا سيما وأن العدو المغلوب لم يعد له الحق أن يدافع عن نفسه»¹، يتجلى هذا الشكل الجيد للحرب فيما تحمله بنود اتفاقيات السلام وإنهاء الحرب العسكرية، فهي في الغالب تعتبر شواهد محسوسة عن سوء النية حسب روسو، وتدل على نية الإضرار بالمغلوب وتتجسد في إنكار حقوق الدولة المغلوبة وعدم احترام سيادتها ورد مطالبها وسلب حقوقها التجارية والاقتصادية وإثارة الأعداء ضدها، ويختصر روسو كل هذه المعاملات بقوله: «بخرق قانون المعاملات الدولية في حقها بأي ذريعة من الذرائع»²، إن هذه الوسائل والطرق التي ذكرها روسو المستخدمة لإهانة جسم سياسي ما لا يمكن حسبه استخداماً جميعاً، ولا يعني أنها نافعة دائماً مع كل الأعداء، بل يجب على قادة الحرب اختيار تلك التي تكون ملائمة ونافعة حسب طبيعة الظروف المحيطة بالدولتين المتحاربتين وحسب طبيعة العدو في حد ذاته، بالإضافة إلى أخذ الأهداف المسطرة بعين الاعتبار، يقول روسو: «ليست جميع هذه الطرق لإهانة جسم سياسي ما كلها ممكنة على السواء، وتلك التي تؤدي في نفس الوقت إلى منفعتنا وضرر العدو هي التي نفضلها بطبيعة الحال»³، يظهر لنا أن المعيار الأساسي في اختيار الوسائل وطرق الحرب في نظر روسو هو ضرورة جمع الوسيلة بين جلب المنفعة لمن يستخدمها وإلحاق الضرر بمن تستخدم ضده، وقد حدّد هذه المنافع في تحصيل الأهداف الرئيسية

¹ - جان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، ص 396.

² - جان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، ص 396.

³ - المصدر نفسه، ص 396.

للحرب والتمثلة في امتلاك أراضي جيدة أي التوسع على حساب دول أخرى،
والمال والرجال.

بعد هذا العرض لتحليل موقف روسو من الحرب نخلص إلى تحديد
ماهيتها المبنية على نتائج الوعي والنية السيئة المتبادلة بين كيانين سياسيين يريد
كل منهما إخضاع الآخر لإرادته، هذه النتائج تحتاج قبل الوصول إليها إلى تجسيد
النوايا العدائية في شكل أفعال واقعية وإلا فإنها سوف تكون مجرد حالة حرب
وليست حالة حرب فعلية، وقد عبر عن هذه الفكرة الملخصة لموقفه من الحرب
بالقول: «أدعوا إذن الحرب بين دولة ودولة أخرى الأثر الناتج عن استعداد متبادل
دائم ومعلن عنه لتقويض الدولة العدو، أو على الأقل لإخضاعها بكل الوسائل
الممكنة، وترجمة هذا الاستعداد إلى الأفعال هي الحرب بالمعنى الصحيح،
ومادامت دون تأثير فإنها ليست سوى حالة حرب»¹، فالحرب مشروطة إذا
بالاستعداد المتبادل لها من طرف الدولتين المتحاربتين وذلك بشكل دائم ومعلن،
كما يجب الانتقال من مرحلة الاستعداد وإعلان الحرب إلى مرحلة ثانية تتمثل في
تجسيد التهديدات واقعيًا فهذا في نظر روسو هو الدير بتسميته بالحرب الفعلية، وإلا
فإن الأمر لا يتعلق سوى بحالة حرب.

يؤكد روسو في النهاية على بعض النقاط التي يراها مهمة فيما يخص

موقفه من الحرب وهي:

¹ - جان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، ص 396.

أولاً: إن غرضه من بحث فكرة الحرب هو بيان ما يجعل الحرب مشروعاً بين دولتين، يقول: «إنني لا أبحث عما يجعل الحرب مريحة لمن يقوم بها وإنما عما يجعلها مشروعاً»¹، فغرض روسو في تحليل فكرة الحرب يختلف عن غرض ميكافيلي في ذات الأمر ، فإذا كان ميكافيلي يهدف إلى تلقين الأمير الأساليب التي تمنه من الظفر بالنصر في حروبه، فإن روسو يركز أولاً على الشروط الأساسية التي تجعل الحرب بين دولتين حرب مشروعاً ، وهذه الشروط لخصها في الإعلان عن الحرب والاستعداد لها بشكل دائم مع ترجمة هذا الاستعداد في شكل أفعال عدوانية بين الدولتين لغرض تقويض العدو أو إضعافه أو القضاء عليه تماماً إذا أمكن ذلك.

ثانياً: الحرب كفعل يقوم به الأشخاص العموميون حسب روسو ولا يمكن للخواص القيام به كما يدعي توماس هوبز، يقول روسو: «إذا لم توجد ولا يمكن أن توجد حرب بين الخواص، فمن هم الذين تكون بينهم الحرب ويمكن أن يدعوا حقيقة أعداء، أجيب: إنهم الأشخاص العموميون»²، الشخص العمومي في نظر روسو هو الكائن المعنوي المتمثل في صاحب السيادة الذي تم منحه سلطة تسيير شؤون الجماعة السياسية بموجب العقد الاجتماعي، وعليه فإن صاحب السيادة هو الذي يحدث الضرر بالدولة العدو، والدولة أو الجسم السياسي هو من يقع عليه ضرر

¹ - المصدر نفسه، ص 398.

² - جان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، ص 398.

الحرب، وليس للخواص من الأمر سوى تطبيق وتنفيذ ما يكلفهم به صاحب السيادة.

ثالثاً: إذا كانت الحرب تعني فقط الأشخاص المعنويين فإنه حسب روسو «يمكن القيام بها دون قتل أحد»¹، ينطلق روسو في شرح هذه الفكرة من كون الجسم السياسي شخص معنوي، ووجوده هو وجود فكري أو عقلي وقائم على العقد الاجتماعي، وبالتالي يمكن تقويض هذا الجسم السياسي من خلال إتلاف العقد الاجتماعي المؤسس له، وبهذا يتقوض الجسم السياسي دون أن يتغير ما يكونه من أراضي وممتلكات ورجال، ينتج من هذا أن روسو جعل من الحرب فعلاً يستهدف إتلاف العقد الاجتماعي الذي يمثل في نظره جوهر الدولة، وبهذه الطريقة يمكن لدولة ما أن تقوض دولة أخرى وتزولها من الوجود دون إزهاق روح واحدة حسب روسو.

¹ - المصدر نفسه، ص 398.

الخاتمة

ختاما وبعد هذا العرض التحليلي والتاريخي لتصورات الحرب عند نيقولا ميكيافيلي وتوماس هوبز وجون جاك روسو باعتبارهم نماذج معبرة عن فلاسفة عصر النهضة والعقد الاجتماعي، وكذا التصور الاستراتيجي لكلوزوفيتز وعالم الاجتماع غاستون بوتول، تمكنا من الوصول إلى مجموعة من النتائج شكلت إجابات كافية عن التساؤلات التي طرحت في مقدمة هذا البحث، ولعل هذه النتائج بإمكانها أن تشكل حقائق صالحة لبناء معارف جديدة أو تستغل كسند معرفي لفهم أنماط سلوك الدول والأفراد، وسنعرض هذه النتائج كالآتي:

تتعدد تصورات الحرب بحسب تعدد أبعادها وأشكالها، وكذا بحسب الاتجاهات المذهبية والنسقية والأيدولوجية لكل فيلسوف أو مفكر، فالبعد الاستراتيجي عند كلوزوفيتز جعله يرى أن الحرب كأداة سياسية بامتياز، لها بنية تتكون من منشئ ودوافع وأهداف ومركز وتترتب عنها نتائج، إنها فرع من النشاط السياسي تتلخص في تعامل فريد بين الشعوب وعلاقات الدول والحكومات إذا ما قورنت بأشكال التعاملات الأخرى مثل الاتفاقيات والمعاهدات والمراسلات الدبلوماسية، أو بتعبير آخر نقول إن الحرب عند كلوزوفيتز هي جزء من كل أكبر

وهو السياسة، وهذا هو السبب الذي جعل الحرب تدار بالكيفية بنفسها في إدارة السياسة وتخضع لنمط التفكير ذاته في نطاق نموذج ثابت من القوانين.

ونجد أن البعد السوسيولوجي للحرب يمكن تحديده حسب غاستون بوتول وفق العديد من الأطر مثل الإطار القانوني والصراعات المسلحة، والهدف السياسي أو العسكري من الحرب، لهذا فالحرب في تصور بوتول هي أحد أشكال العنف الممنهج والمنظم والقائم بين جماعات بشرية، وهي محددة في الزمان والمكان وخاضعة لقواعد قانونية، ومن ناحية البحث الأكاديمي لظاهرة الحرب فيرى أنها تحتاج إلى منهجية خاصة لدراستها كظاهرة اجتماعية متفردة، هذه المنهجية قائمة على ضرورة تعريف الحرب عن طريق تحديد خصائصها، وهذا من أجل تمييزها عن غيرها من الظواهر القريبة منها مثل الصراع والمنافسة.

هذا وإذا انتقلنا إلى تصورات الفلاسفة للحرب نجد أولاً ميكيافيلي قد تأثر بتجربته السياسية التي سمحت له بالوقوف على أوضاع بلاده المزرية في عهده، وهو الأمر الذي أوحى له بضرورة إيجاد أمير قوي، تكون الحرب هي المهنة التي تليق به من دون كل الناس، فهذه المهنة في نظره تشكل أسمى فضائل الأمير لما تحققه له من مجد وشرف خدمة الوطن، وتحقيق المصالح العليا للدولة، وعليه فإن فالحرب عند ميكيافيلي هي فن يجب على الأمير إتقانه إذا أراد الحصول على الدولة والمحافظة على سلطته، والاهتمام بهذا الفن لا يكون في أيام الحرب فقط، بل يجب على الأمير أن يهتم به كذلك في زمن السلم من خلال التدريب والدراسة والاطلاع على آراء السابقين في موضوع الحرب، إن تأكيد ميكيافيلي على ضرورة اهتمام الأمير بالحرب مرده إلى اعتقاده أنه لا يمكن اختفاء ظاهرة الحرب من الوجود، فهي في نظره نتيجة حتمية لظهور الدولة وإحدى عناصر بنيتها، فالحرب سلوك طبيعي للدول التي وجدت من أجل التوسع لكي تصبح إمبراطورية، لذلك كان أهم ما

تستجبه الحرب هو الجنود البواسل وحكمة القادة والحظ أو حسن الطالع، هؤلاء الرجال يجب أن يشكلوا جيشاً وطنياً وليس مرتزقة، وهذه الفكرة ليست خالصة لميكيافيلي، بل استوحاها من الممازجة بين ما لاحظه في تجاربه المهنية مع ما اطلع عليه في التاريخ الروماني في عهد الجمهورية الرومانية.

وبنظرة نقدية ومقارنة لتصور الحرب في العصر الحديث نجد أن توماس هوبز قد جعل محور تصوره للحرب يتمثل في مفهوم طبيعة الإنسان كفرد، ويتلخص في الصراع الذي تحكمه الأنانية والنزعات والرغبات الفردية، ونلمس في ذلك الطابع العقلي للطرح الذي قدمه هوبز وهي الميزة التي جعلت مسعاه هذا يختلف عن الطروحات السابقة لفكرة الحرب، مثل الطرح اللاهوتي أوالميتافيزيقي الذي يردّها إلى العناية الإلهية، كما خالف الطرح الاستراتيجي والأخلاقي بسبب اتجاهه المذهبي واحترامه لمبادئ نسقه الفلسفي، إن الحرب عند هوبز ظاهرة إنسانية طبيعية مصدرها إنفعالات الفرد وأهوائه، وهي ليست قرارا سياسيا، بل هي تعبير عن حالة فراغ سياسي، وهذا التصور حسب هوبز ينطبق على الحالة الطبيعية، أي حالة الحرب بين الأفراد، وينطبق كذلك على الحالة المدنية أي الحرب بين الأفراد والحرب بين الدول كذلك.

وعلى نقيض هوبز وجدنا أن روسو قد أقام تصوره للحرب على أسس نقدية لطرح الهوبزي، بحيث يرفض روسو أن تكون الحالة المدنية التي أفضى إليها العقد الاجتماعي تمثل حلا للمعضلة التي يعانيها الفرد في الحالة الطبيعية والتمثلة في حالة حرب الكل ضد الكل، بل في اعتقاد روسو أن الفرد في الحالة المدنية يعاني أضرار الحالة الطبيعية وأضرار الحالة المدنية، والحرب في الحالة الأخيرة أصبحت أشد فتكاً بالإنسان لعدة اعتبارات كنا قد ذكرناها في المتن، بالإضافة إلى هذا فقد رفض روسو فكرة قيام الحرب بين الأفراد، ورأى أنها فعل قائم بين الأشخاص

المعنويين أي الدول، وهدفها هو القضاء على الجسم السياسي العدو من خلال تفكيك جوهرها وعلّة وجودها وهو العقد الاجتماعي، وإن لم تتمكن من ذلك فعلى الأقل إضعاف قوّة هذا العدو وجعله تحت السيطرة، وقد ذكر روسو الوسائل المختلفة التي يمكن استخدامها لتحقيق هذا الهدف، وهو ما بيّن لنا كيف أنه لا يجعل الحرب مقتصرة على الوسائل العسكرية والمعارك الميدانية بل تستمر حتماً بعد تحقيق الانتصار الميداني، لكنها تأخذ شكلاً آخر يتجسد في شروط معاهدات السلم التي ليست سوى نمطاً آخر من الحرب يكون في الغالب أشد فتكاً من الحرب العسكرية، وبهذا انتقل روسو من تحليل تصور الحرب إلى التأسيس للنظرية الاستعمارية.

هذا وإن الاختلافات المذهبية بين الفلاسفة الذين عرضنا تصوراتهم للحرب، والتباعد في الطرح النسقي لهذه المسألة جعلهم يختلفون تمام الاختلاف في المواضيع التي حملوا عليها هذا التصور، إذا كان نيقولا ميكيافيلي قد جعل الحرب مهمة للأمرير ويجب أن يضطلع بها وحده دون غيره من أفراد الشعب ووسيلة يحقق بها مجده وشرفه ويحفظ بها سلطته ودولته، فإن توماس هوبز على العكس من هذا، جعل الحرب محمولة على الفرد، إنها في رأيه ظاهرة إنسانية وطبيعية مصدرها إنفعالات وأهواء الأفراد، أما روسو فقد حمل الحرب على موضوع الدولة أو صاحب السيادة، فهذا الكائن المعنوي هو فقط من يمكنه القيام بالحرب ضد كيان معنوي آخر ووفق شروط معينة.

إن بحث هؤلاء الفلاسفة لموضوع الحرب كان له ما يبرره، إذ تتراوح مسوغاتهم ما بين الطرح الواقعي لميكيافيلي وتبرير الحكم المطلق عند هوبز والبحث عما يجعل الحرب مشروعاً عند روسو، فموقف ميكيافيلي مؤسس على الوهن الذي أصاب إيطاليا في زمنه، ورغبته في توحيدها من جديد وجعلها قوية كما كانت في عهد جمهورية روما، هذه الغاية هي التي برر بها قوله بأن الحرب هي مهمة الأمرير، أما

هوبز فقد جعل الأهواء والرغبات الإنسانية كمصدر للحرب والفوضى، وهو موقف غرضه تبرير الحكم المطلق الذي كان ينادي به في إنجلترا، أما روسو فقد برر الحرب بطبيعة الدولة التي تختلف عن طبيعة الفرد في الحالة الطبيعية من عدة جوانب كالقوة والأهواء والفكر والعلاقات ، وهذا ما جعل الدولة تدخل بالضرورة في حروب مع غيرها.

بما أن البحث يعالج مسألة الحرب في عصر العقل فإننا قد حاولنا أن نبرز دور العقل في صياغة تصور كل فيلسوف للحرب، فميكيافيلي قد جعل دور العقل في ضرورة اهتمام الأمير بالحرب في زمن السلم بالاطلاع على كتب التاريخ التي تسرد تجارب القادة المنتصرين في حروبهم في الماضي، أما توماس هوبز فقد جعل دور العقل في اكتشاف الفرد للقوانين التي يكون الالتزام بها هو السبيل للحفاظ على ذاته وتحقيق غاياته، كما يرى أن العقل والوعي هما أساس إحلال السلام، وعلى العكس من هذا الموقف نجد روسو يجعل التفكير والوعي أساس الحرب وعناصر مهمة في بنيتها، ويلخص موقفه من العقل بالقول أن الإنسان المفكر إنسان فاسد.

إلى جانب العقل ذكر أيضا هؤلاء الفلاسفة الثلاثة أدوار أخرى للرغبات والعواطف والأهواء في نشوب الحرب، ولكن ما شد انتباهنا أثناء إنجازنا لهذا البحث هو تركيز الكثير ممن اشتغل على موضوع الحرب في مختلف المجالات المعرفية المرتبطة بهذا الموضوع على عنصر لا يمكن استساغته من الناحية الفلسفية ألا وهو عنصر الحظ الذي تكرر ذكره عند كل من كلاوزوفيتز وميكيافيلي، كما اعتبر عند البعض معيارا لاختيار قادة الجيوش.

وبهذا يكون تصور الحرب في عصر العقل الأوروبي قد أصبح واضحا بالنسبة لنا وللقارئ كذلك، حيث يمكن مستقبلا أن تفتح هذه الأطروحة آفاق البحث حول موضوع الحرب في حقبة زمنية أخرى خاصة في المرحلة المعاصرة التي تلت الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية اللتان شكلتا نكسة حقيقية لدعاة العقلانية والحدثة، أو بالتعمق في بحث موضوع الحرب بالتركيز عن إحدى أنماط الحروب التي ذكرناه كالحرب الأهلية أو الحرب النفسية والحرب العادلة والحرب المقدسة وغيرها من الأنماط الأخرى، ضف إلى ذلك إمكانية بحث رهن الحروب ومستقبلها بحيث نلاحظ أنها أصبحت تعتمد أشكالا غير مألوفة لدى البشرية نتيجة للتطور التكنولوجي الكبير من جهة والطابع المادي والأخلاقي الذي يطبع واقع الحضارة الغربية حاليا من جهة أخرى، فهذه الحروب الجديدة أضحت تستخدم وسائل متباينة تماما عن وسائل الحروب الكلاسيكية، وهو ما ينبئ بما يمكن تسميته بالحروب الإلكترونية التي تتجسد في أفعال يتم تجريمها على مستوى الأشخاص بقانون الجرائم الإلكترونية ولكنها تمارس على مستوى الدول في ظل الفوضى الدولية السائدة في هذا المجال، هذه الفوضى تفتعلها دول غرضها السيطرة أو تخريب، أو إخضاع مؤسسات الدول الكبرى والتجسس عليها وكذلك الهيئات والمؤسسة العالمية مثل البنوك والبورصات والهيئات السياسية، كل هذا من أجل التحكم في مراكز القوة العالمية الاقتصادية والسياسية والثقافية من طرف قلة من الدول وعلى رأسها الكيان الصهيوني الذي مهد منذ مدة لهذه الحرب بنموذج نظري إيديولوجي قائم على أفكار من قبيل تجريم معادات السامية وفلسفة الاعتراف بالآخر التي تهدف بالأساس إلى ضرورة الاعتراف بالصهيونية السياسية، وبعد هذه المرحلة انتقلوا إلى إنتاج كم هائل من التكنولوجيات ذات استخدام مزدوج بحيث تفيد مستخدميها في تقديم خدمة فريدة ونافعة، وتفيد مصنعها في التجسس على من يستخدمها، دون أن ننسى وسائل الإعلام بكل أنواعها، والتي يستخدمها لتبييض

صورته وقلب الحقائق وخلق رأي عام عالمي يخدم مصالحه ويحارب بها كل من يريد كشف حقيقته.

وهكذا لمقدورنا القول في الأخير أن هذه الاطروحة ماهي إلا خطوة واحدة في طريق بحث موضوع الحرب بكل أشكاله والذي يتوجب علينا الاهتمام به إلى جانب العلم كأفراد وكدولة.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

- إبراهيم أبو خزام، الحروب وتوازن القوى، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، الطبعة الأولى، 2009.
- أبو حامد الغزالي، كتاب الخوف والرجاء، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، الجزائر، 1989.
- أبي القاسم ابن رضوان المالقي، الشهب اللامعة في السياسة النافعة، تحقيق: علي سامي النشار، مصر، دار السلام للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، عام 2007م.
- أحمد سرحان، قانون العلاقات الدولية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، مصر، الطبعة الأولى، 1990.
- أحمد سي علي، إستعمال القوة في العلاقات الدولية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2010.
- آدم سميث، ثروة الأمم، المجلد الأول، ترجمة: وليد شحادة، دار الفرقد للطباعة والنشر، دمشق، سورية، 2016.

- أرسطو طاليس، في السياسة، ترجمة: الأب أوغستينس برباره البولسي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى، 2012.
- ألان بلانتي، في السياسة بين الدول، مبادئ في الدبلوماسية، ترجمة: نورالدين خندودي، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2006.
- ألفريد أدلر، الطبيعة البشرية، ترجمة: عادل نجيب بشرى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة 2005.
- أليكسيس دي طوكفيل، كتابات طوكفيل عن الجزائر 1837 - 1847م، كوظفيل بين الديمقراطية والاستبداد، ترجمة: علي زيكي، دار الجائزة، القبة، الجزائر، الطبعة الأولى، 2016.
- إميل دوركايم، قواعد المنهج في علم الاجتماع، ترجمة: محمود قاسم والسيد محمد بدوي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1988.
- أوليفي لوكور غرانميزون، الجمهورية الإمبراطورية، في سياسة الدولة العنصرية، ترجمة: مسعود حاج مسعود، دار القصبه للنشر، الجزائر، 2009.
- إيزايا برلين، الحرية: خمس مقالات عن الحرية، ترجمة: يزن الحاج، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2015.
- برتراند راسل، أثر العلم في المجتمع، ترجمة: سمير عبده، دار التكوين للطباعة والنشر، دمشق، ط1، 2005.
- برتراند راسل، تاريخ الفلسفة الغربية، الفلسفة الحديثة، ترجمة محمود الشنيطي، دار التنوير للطباعة والنشر، لبنان، الطبعة الأولى، 2018.
- البكاي ولد عبد المالك، العقل والحرية في فلسفة هوبز السياسية، جداول للنشر والترجمة والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2013.
- بيار كونيسا، صنع العدو، أو كيف تقتل بضمير مرتاح، ترجمة: نبيل عجمان، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، قطر، الطبعة الأولى، 2015.
- توماس هوبز، اللفيathan، ترجمة: ديانا حرب وبشرى صعب، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبوظبي، الطبعة الأولى، 2011.
- توماس ماستناك، السلام الصليبي، الجماعة المسيحية والعالم الإسلامي والنظام السياسي الغربي، ترجمة: بشير السباعي، المركز القومي للترجمة، مصر، الطبعة الثانية، 2009.
- جان جاك روسو، الكتابات السياسية، الجزء الأول، ترجمة: عبد السلام الشدادي، مركز دراسات الأزمنة الحديثة، الرباط، المغرب، الطبعة الأولى، 2013.
- جايمس ريكاردز، حروب العملات: افتعال الأزمة العالمية الجديدة، ترجمة: أنطوان باسل، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، لبنان، بيروت، ط1، 2014.

- جمال زهران، منهج قياس قوّة الدول، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2006.
- جورج كاستيلان، تاريخ الجيوش، ترجمة: كمال دسوقي، مكتبة الإسكندرية، مصر، د ط، دت.
- جوزايا روبس، فلسفة الولاء، ترجمة: أحمد الأنصاري، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، الطبعة الأولى، 2002.
- جوزيف س ناي، القوة الناعمة وسيلة النجاح في السياسة الدولية، ترجمة: محمد توفيق البجيرمي، دار مكتبة العبيكان، المملكة العربية السعودية، ط 1، 2007.
- جوزيف سراكوسا، الدبلوماسية، ترجمة: كوثر محمود محمد، دار هنداوي للنشر، مصر، الطبعة الأولى، 2015.
- جون بريكمون، الإمبريالية الإنسانية، تقديم: نعم تشومسكي، ترجمة: أحمد بن محمد بكلي، منشورات APIC، الجزائر، 2010.
- جون جاك روسو، أصل التفاوت بين الناس، ترجمة: بولس غانم، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1991.
- جون جاك روسو، إميل أو التربية، ترجمة: عادل زعيتز، المركز القومي للترجمة، مصر، 2015.
- جون دوكر، أصل العنف، الدين والتاريخ والإباداة، ترجمة: علي مزهر، سلسلة دراسات فكرية جامعة الكوفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2018.
- جون هرمان راندال، تكوين العقل الحديث، الجزء الأول، ترجمة: جورج طعمة، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2013.
- جون هرمان راندال، تكوين العقل الحديث، الجزء الثاني، ترجمة: جورج طعمة، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2013.
- جيل دولوز، فليكس غتاري، ماهي الفلسفة، ترجمة: مطاع الصفدي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1997.
- الحسيني الحسنى معدى، حروب الغرب المقدسة على الإسلام، دار الكتاب العربي، دمشق، الطبعة الأولى، 2007.
- حميدة سيمسم، الحرب النفسية، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، 2005.
- خيرالدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، مكتبة الإسكندرية، الإسكندرية، مصر، 2012.
- دانتي أليجييري، الكوميديا الإلهية، الجحيم، ترجمة: حسن عثمان، دار المعارف، مصر، الطبعة الثالثة، 1988م، ص 196.
- دايفد باوتشر، النظريات السياسية في العلاقات الدولية، ترجمة: رائد القاقون، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2013.

- ديفيد جونستون، مختصر تاريخ العدالة، ترجمة: مصطفى ناصر، سلسلة عالم المعرفة، العدد 387، الكويت، 2012.
- ديفيد هيوم، رسالة في الطبيعة البشرية، ترجمة: عبد الكريم ناصيف، دار الفرق، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، 2016.
- روبرت غيروارث ، إيريز مانيلا، حروب الإمبراطوريات، ترجمة: أنطوان باسل، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2016.
- روس كينج، ميكافيلي فيلسوف السلطة، ترجمة: فايقه جرجس، دار كلمات عربية للترجمة والنشر، مصر، الطبعة الأولى، 2008.
- زهير اليعكوبي، الحرب مقارنة فلسفية سياسية، منشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى، 2016.
- ستيفن بوشيه ومارتين رويو، مراكز الفكر، أدمغة حرب الأفكار، ترجمة: ماجد كنج، دار الفارابي، لبنان، الطبعة الأولى 2009.
- كوينتين سكينر، ميكافيلي، ترجمة: رحاب صلاح الدين، دار هنداي، مصر، الطبعة الأولى، 2014.
- شاقا فرانكفورت ناشيمار، دافيد ناشيمار، طرائق البحث في العلوم الاجتماعية، ترجمة: ليلى الطويل، دار بترا للنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى، 2004.
- عاطف أحمد، النزعة الإنسانية، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان القاهرة، الطبعة الثانية، 1999.
- عبد الرحمن ابن خلدون، المقدمة، تحقيق: خليل شحادة، لبنان، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 2003، ص 246.
- عبد الله بن قتيبة، عيون الأخبار، الحرب والفروسية، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، سورية، دمشق، 1977.
- غاستون بوتول، ظاهرة الحرب، ترجمة: إيلي نصار، دار الفارابي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2007.
- غاستون بوتول، هذه هي الحرب، ترجمة: مروان القنواطي، منشورات عويدات، بيروت، الطبعة الأولى، 1981.
- غوستاف لوبون، سيكولوجية الجماهير، ترجمة هاشم صالح، دار الساقى، بيروت، الطبعة الأولى، 1991.
- فتح الله ولعلو، الاقتصاد السياسي، دار الحداثة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1981م.

- فتحى تريكي، الفلاسفة والحرب، ترجمة: زهير المدني، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى 2015.
- فريدريك نيتشه، إرادة القوة، ترجمة: محمد الناجي، إفريقيا الشرق، المغرب، 2011.
- فريدريك كوبلستون، تاريخ الفلسفة، المجلد الخامس، ترجمة: محمود سيد أحمد، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، الطبعة الأولى، 2003.
- فريدريك نيتشه، إرادة القوة، ترجمة: محمد الناجي، إفريقيا للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 2011.
- فليب برو، علم الاجتماع السياسي، ترجمة: محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 1998.
- فيليب إسكاروس، مذهب جديد في السياسة والتربية، ترجمة: عصام قمر، المكتبة العصرية، مصر، دت.
- فيليكس جلبرت، رواد الاستراتيجية الحديثة، الفكر العسكري من ميكافيلي إلى هتلر، الكتاب الأول، ترجمة: محمد عبد الفتاح إبراهيم، د ط، د ت.
- كارل فون كلاوزوفيتز، الوجيز في الحرب، ترجمة: أكرم ديري والهيثم الايوني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، 1987.
- كارل فون كلاوزوفيتز، عن الحرب، ترجمة: سليم شاكرا الإمامي، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، 1998م.
- كارل ماركس، رأس المال، المجلد الثالث، ترجمة: محمد عيتاني، مكتبة المعارف، بيروت، 1978.
- كامران أحمد محمد أمين، السياسة الدولية في ضوء فلسفة الحضارة، دار المعرفة، ط1، لبنان، بيروت، 2009.
- ليزلي جيلب، قواعد القوة، ترجمة: كمال السيد، مطابع الأهرام التجارية، مصر، 2011.
- م.ب. تشارلزورث، الإمبراطورية الرومانية، ترجمة رمزي عبده جرجس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 2003.
- ماكس فيبر، مفاهيم أساسية في علم الاجتماع، ترجمة: صلاح هلال، المركز القومي للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2011.
- مايكل شيهان، توازن القوى، التاريخ والنظرية، ترجمة: أحمد مصطفى، المركز القومي للترجمة، مصر، الطبعة الأولى، 2015.
- محمد سييلا، دفاعا عن العقل والحداثة، سلسلة الزمن، العدد 39، الرباط، 2003.
- محمد عبد القادر الدغستاني، فن الحرب الصيني القديم، دار أمانة، عمان، الأردن، 2013.
- محمد عمارة، حقائق وشبهات حول الحرب الدينية والجهاد والقتال والإرهاب، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، 2010.

- محمود إبراهيم السعدني، حضارة الرومان، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، الطبعة الأولى، 1998.
- محمود حيدر، الدولة فلسفتها وتاريخها من الإغريق إلى ما بعد الحداثة، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، الطبعة الأولى، 2018.
- محسن محمد حسن، ميكافيلي في الميزان، التفسير للنشر والإعلان، العراق، الطبعة الأولى، 2007.
- مصطفى حنفي، النزعة الإنسانية وإرث الأنوار، دار إفريقيا الشرق، دار البيضاء، 2014.
- ملحم قربان، قضايا الفكر السياسي: القوة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، 1981.
- ممدوح محمود منصور، سياسة التحالف الدولي، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1997م.
- منير العكش، أميركا والإبادات الجماعية: حق التضحية بالآخر، دار رياض الرئيس للكتب والنشر، لبنان، بيروت، ط1، 2002.
- منير العكش، أميركا والإبادات الجنسية، دار رياض الرئيس للكتب والنشر، لبنان، بيروت، ط1، 2012.
- موريس أنجريس، منهجية البحث في العلوم الإنسانية، ترجمة: بوزيد صحراوي وآخرون، دار القصبه للنشر، الجزائر، 2004.
- مونتيكيو، تأملات في تاريخ الرومان أسباب النهوض والانحطاط، ترجمة: عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 2011.
- ميشال مسلان، علم الأديان: مساهمة في التأسيس، ترجمة: عزالدين عناية، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 2009.
- ميشيل سينيلا، الميكافيلية وداعي المصلحة العليا، ترجمة: أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت الطبعة الثانية، 2002.
- ميكافيلي، الأمير، ترجمة: خيرى حماد، دار الافاق الجديدة، بيروت، لبنان، الطبعة السابعة، 1975.
- ناصر الدين سعيدوني، مفهوم الحرب في عصر النهضة، مجلة عالم الفكر، العدد 36، الكويت، 2007.
- نسيم بهلول، البوليمولوجيا، مقارنة منهجية لفهم منطق الحرب في العلاقات الدولية، دار ابن النديم، الجزائر الطبعة الأولى، 2015.
- نيقولا ميكافيلي، المطارحات، ترجمة: خيرى حماد، منشورات دار الافاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1982.
- نيقولا ميكافيلي، فن الحرب، ترجمة صالح صابر زغلول، دار الكتاب العربي، مصر، الطبعة الأولى، 2015.

- هانز جي مورجنتا، السياسة بين الأمم، الجزء الثاني، ترجمة: خيري حماد، الدار القومية للطباعة، الطبعة الثانية، د ت .
- هانز جي مورجنتا، السياسة بين الأمم، الجزء الأول، ترجمة: خيري حماد، الدار القومية للطباعة والنشر، الطبعة الثانية.
- هشام محمد سعيد آل برغش، الأحلاف العسكرية والسياسية المعاصرة، دار الكتب المصرية، ط1، 2013.
- هيراقليطس، جدل الحب والحرب، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، مركز الإنماء الحضري، حلب، سوريا، 2009.
- وهبة الزحيلي، أثار الحرب، دار الفكر، دمشق، الطبعة الرابعة، 2009.

قائمة القواميس والمعاجم والموسوعات:

- ابراهيم مصطفى، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ، القاهرة، 1972.
- ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، د ط ، د ت .
- أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، الجزء الاول، ترجمة: خليل أحمد خليل، دار عويدات للنشر، بيروت، الطبعة الثانية، 2001.
- أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، الجزء الثاني، ترجمة: خليل أحمد خليل، دار عويدات للنشر، بيروت، الطبعة الثانية، 2001.
- بول روبنسون، قاموس الأمن الدولي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، 2009.
- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، الجزء الاول، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1986.
- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، الجزء الثاني، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1986.
- ربيع محمد مقلد، إسماعيل صبري، موسوعة العلوم السياسية، جامعة الكويت، الكويت، د ط ، د ت.
- عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، الجزء الاول، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1984.
- عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، الجزء الثاني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1984.
- عبد الوهاب الكيالي، موسوعة السياسة، الجزء السادس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، د ط .

- عمار الطالبي، اصطلاحات الفلاسفة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الرغاية، الجزائر، 1983.
- فرانسوا شاتليه، أوليفيه دوهامل، إيفلين بيزيه، معجم المؤلفات السياسية، ترجمة: محمد عراب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، الطبعة الثالثة، 2014.
- مجموعة من المؤلفين، قاموس الفكر السياسي، الجزء الأول، ترجمة: أنطوان حمصي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، 1994.
- مجموعة من المؤلفين، قاموس الفكر السياسي، الجزء الثاني، ترجمة: أنطوان حمص، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، دمشق، 1994.
- محمد علي التهانوي، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، الجزء الثاني، تحقيق: علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1996.
- مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، المجلد الأول، دار الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى، 2008.

قائمة المراجع باللغة الأجنبية:

- André GLUCKSMANN, Le Discours De La Guerre, édition de lherne; paris ; France ;1974.
- André LALANDE , VOCABULAIRE DE LA PHILOSOPHIE, Presses Universitaires de France, Paris, 1962.
- Art War, Oxford Dictionary, oxford university press, oxford, first published, 1999.
- Bertrand Russell , Power , ANEW Social Analyses , G Allen and Unwrin LTD, London, 1938.
- Dominique Schnapper, Qu est-ce que LaCitoyennte, Edition Gallimard, paris, France, 2000.
- jean claude debeir, jean paul delegee, daniel hemery, Les Servitudes De la Puissance, edition flammariion, pris, France,1986,

- Pascal Bruckner, Le Sanglot de L'Homme blanc, Edition Seuil, France, 1983.
- Pluri dictionnaire La Rousse, Librairie Larousse, Paris, première, edition, 1977.

فهرس الأعلام:

الرقم	الاسم وتاريخي الميلاد والوفاة	الصفحة
1	إبن منظور (1233م-1311م) Ibn Manzur	.45 .16 .15
2	أبو القاسم بن رضوان المالقي (1318م - 1380م)	.22
3	أبو سعيد السرافى (893م - 979م) Al-Hasan Ibn Abdallah Sirafi	.15
4	أبو حامد الغزالي (1058م - 1111م) Abu Hamid Al-Ghazali	.89 .88
5	أدم سميث (1723م - 1790م) Adam Smith	.67 .64 .63 .62
6	أدولف هيتلر (1889م - 1945م) Adolf Hitler	.153
7	أرسطو طاليس (384 ق م - 322 ق م) Aristotle	.136 .127 .126 .95 .60 .04 .02 .253 .197
8	الإسكندر الأكبر (356 ق م - 323 ق م)	.186 .182 .171 .167 .138 .131 .75

	Alexander The Great	
.193 .113 .28 .04 .02	أفلاطون (427 ق م - 347 ق م) Plato	9
.24	ألفريد أدلر (1870م - 1937م) Alfred Adler	10
.47	ألكسندر أرباتوف (1923م - 2010م) Alexandre Arbatov	12
.269 .268	أليكسيس دي طوكفيل (1805م - 1859م) Alexis De Tocqueville	13
.68 .38 .37	إميل دوركايم (1858م - 1917م) Emile Durkheim	14
.22 .21	أندري غلوكسمان (1937م - 2015م) Andre Glucksman	15
.115 .114 .61 .59.60	أندري لالاند (1867م - 1963م) Andre Lallande	16
.114	إيراسموس (1469م - 1536م) Erasmus	17
.121	البابا ألكسندر السادس (1431م - 1503م) Pope Alexander 6	19
.126	البابا يوليوس (1443م - 1513م) Pope Julius	20
.221	باركلي جورج (1685م - 1728م) George Berkeley	21
.123 .120 .116 .113 .76 .75 .74 .193 .192	برتراند راسل (1872م - 1970م) Bertrand Russell	22
.52	بليز باسكال (1623م - 1662م) Blaise Pascal	23
.68	تالكوت بارسونز (1902م - 1979م) Talcott Parsons	24
.117	تشارلز الثامن (1470م - 1498م) Charles 8 of France	25
.127	توما الإكويني (1225م - 1274م) Thomas Aquinas	26
.114	توماس مور (1478م - 1535م) Thomas More	27
.36	توماس مون (1900م - 1981م) Thomas Moon	28
.135 .90 .88 .71 .55 .48 .09 .08 .192 .137	توماس هوبز (1588م - 1679م) Thomas Hobbes	29

.200 .199 .198 .197 .196 .195 .193 .211 .210 .207 .205 .204 .203 .201 .221 .219 .217 .216 .215 .213 .212 .232 .231 .230 .228 .224 .223 .222 .270 .250 .249 .245 .241 .239 .234 .279 .278 .277 .271 .275		
.133	جاليليو جاليلي (1564م - 1642م) Galileo Galilei	30
.35	جورج فريدمان (1949م - إلى يومنا هذا) George Friedman	31
.130	جوليانو دي ميديتشي (1453م - 1478م) Giuliano De Medici	32
.229 .228 .227 .226 .48 .07 .05 .03 .236 .235 .234 .233 .232 .231 .230 .243 .242 .241 .240 .239 238 .237 .250 .249 .248 .247 .246 .245 .244 .253 .252 .251 .260 .259 .258 .257 .256 .255 .254 .263 .262 .261 .269 .268 .267 .266 .265 .265 .264 .272 .271 .270 .279 .278 .277 .275 .273	جون جاك روسو (1712م - 1778م) Jean-Jacques Rousseau	33
.231 .69 .36	جون لوك (1632م - 1704م) John Locke	34
.221 .179 .05	جون هارمان راندال (1899م - 1980م) John Herman Randall	35
09	جيل دولوز (1925م - 1995م) Gilles Doleuze	36
.72	خير الدين التونسي (1820م - 1890م) Hayreddin Pasha	37
.115 .114	دانتي أليغييري (1265م - 1321م) Dante Alighieri	38
.174	ديفيد هيوم (1711م - 1776م) David Hume	39
.35	بيار نافيل (1904م - 1993م) Pierre Naville	40
.88	روبيرت دال (1915م - 2014م) Robert Dahl	41

09	رينيه ديكارت (1596م - 1650م) René Descartes	42
04	ستيوارت هامبشير (1914م - 2004م) Stuart Hampshire	43
.128 .126 .124 .123	سيزار بورجيا (1475م - 1507م) Cesare Borgia	44
.268 .267 .75 .50 .35	عبد الرحمان ابن خلدون (1332م - 1406م) Ibn Khaldun	45
.16 .15	عبد الله بن قتيبة (828م - 889م) Ibn Qutaybah	46
.60 .59	عبدالرحمان بدوي (1917م - 2002م) Abdelrahman Badawi	47
.214	عثمان بن عفان (576م - 656م) Uthman Ibn Affan	48
.214	عمر بن الخطاب (584م - 644م) Umar Ibn Al-Khattab	49
.43 .42 .41 .40 .39 .38 .37 .35 .34 .47 .46 .45 .44 .275 .57 .56 .55 .54 .52 .51 .50 .49	غاستون بوتول (1869م - 1980م) Gaston Bouthoul	50
.268 .265 .264 .263	غوستاف لوبون (1841م - 1931م) Gostave LeBon	51
.218 .197 .194 .192	فرانسوا شاتليه (1925م - 1985م) François Chatelet	52
.146 101 .48	فريدريك نيشته (1844م - 1900م) Friedrich Nietzsche	53
.67 .66 .64	فريدريك إنجلز (1820م - 1895م) Friedrich Engeles	54
.171 .138	فليب المقدوني (382 ق م - 336 ق م) Philip of Macedon	55
.28 .27 .26 .25 .24 .23 .22 .21 .20 32 .31 .30 .29 .200 .91 .69 .55 .47 .45 .34 .33 .279 .175	كارل فون كلاوزوفيتز (1780م - 1831م) Carl Von Clausewitz	56
.91 .67 .66 .65 .64	كارل ماركس (1818م - 1883م) Karl Marx	57
.221	لوثر مارتين (1483م - 1546م) Martin Luther	58
.120	لويس الثاني عشر (1498م - 1515م) Louis 12 of France	59

.114	ليوناردو دافينتشى (1452م - 1519م) Leonardo Davinci	60
.02 .04 .09 .113 .119	ماركوس تيلوس شيشرون (106 ق م - 43 ق م) Marcus Tullius Cicero	61
.45 .46 .47 .51 .68	ماكس فيبر (1864م - 1920م) Max Weber	62
.114 .115	مايكل أنجلو بوناروتي (1479م - 1564م) Michelangelo Bounarroti	63
.10 .11	محمد علي التهانوي (... - 1745م) Mohammad Ali Thanvi	64
.47	مخائيل غورباتشوف (1931م - إلى يومنا هذا) Mkhail Gorbachev	65
.167	مونتيسكيو ، شارل لوي دي سكوندا (1689م - 1755م) Montesquieu. Charles louis De Secondat	66
.20 .109	نابليون بونابرت (1769م - 1821م) Napoleon Bonaparte	67
77	نعوم تشومسكي (1928م - إلى يومنا هذا) Noam chomsky	68
.03 .04 .05 .06 .07 .82 .87 .88 .90 .113 .114 .115 .116 .117 .118 .119 .120 .121 .122 .124 .125 .127 .128 .129 .130 .131 .132 .133 .134 .135 .136 .137 .138 .139 .140 .141 .142 .143 .144 .145 .146 .147 .148 .149 .150 .151 .152 .153 .154 .155 .156.157 .158 .159 .160 .161 .162 .163 .164 .165 .166 .167 .168 .169 .170 .171 .172 .172 .173 .174 .175 .176 .177 .178 .179 .180 .181 .182 .183 .184 .185 .186 .187 .188 .190 .194 .224 .236 .251 .271 .276 .278 .279	نيقولا ميكيافيلي (1469م - 1527م) Niccolo dei Machiavelli	69
.103 .107	هانز جي موجنتاو (1904م - 1980م) Hans Morgenthau	70
.38	هيراقليطس (540 ق م - 480 ق م)	71

	Heraclitus	
.182 .131 .126 .75	يوليوس قيصر (100 ق م - 44 ق م) Julius Caesar	72

فهرس المصطلحات:

الرقم:	المصطلح:	الصفحة:
.1	الإبادة	.185 .269
.2	اتخاذ القرار	.186 .178 .150 .123 .95
.3	الاتفاقيات	.275 .269 .215 .125 .87 .54 .52 .33
.4	الاحتلال	.48
.5	الاحتيايل	.215 .213 .201 .200 .159 .157
.6	الاخلاق الأخلاقية	.126 .115 .114 .105 .104 .103 .96 .78 .77 .42 .214 .212 .208 .187 .165 .164 .162 .130 .128 .277 .243 .226 .224
.7	الإرادة	.236 .235 .234 .126 .95 .90 .60 .59 .45 .29 .25 .261 .260
.8	الارستقراطي	.217 .141 .140

.254 .252 .222 .220 .154 .49 .48 .32 .26 .22 .16 .256	الأرض	.9
.217 .141 .140	الارهاب	.10
.269 .240 .227	الاستبداد	.11
.136	الاستشراق	.12
.277 .268 .255 .185 .169 .73 .48	الاستعمار الاستعماري	.13
.55 .53	الأسرى	.14
.198	الأسطورة الأسطوري	.15
.262 .170 .104 .88 .82 .53 .38	الإسلام	.16
.36	الأسواق	.17
.186 .178 .53 .29 .28	الاشتباك	.18
.76 .64	الاشتراكية النظام الاشتراكي	.19
.198 .49	الاعتراف	.20
64 .63 .62 61 .58 .45 .44 .43 .37 .36 .34 .21 .13 .95 .92 .90 .85 .84 .80 .79 .77 .74 .68.72 .67.65 .269 .202 .178 .156 .155 .154 .110 .109 .105	الاقتصاد، الاقتصادية	.21
.220 .156 .154 .117 .64	الإقطاعية النظام الإقطاعي	.22
.262 .109 .108 .105 .93 .72 .21	الإقليم والأقاليم	.23
.253 .97 .87 .62	الاكتفاء الذاتي	.24
.209 .187 .174 .166 .155 .154 .145 .100 .81 .21 .279 .225 .213	الالتزام	.25
.243 .197	الألم	.26
.140 .127	إله الحرب	.27
.173 .131	الإمارة	.28

.220 .188 .186 .185 .169 .168 .150 .48	الإمبراطور الإمبراطورية	.29
.269 .187 .183 .143 .110 77	الإمبريالي الامبريالية	.30
.107 .103 .101 .86 .77 .64 .63 .62 .48 .35 .25 .23 .257. 267	الأمة، الأمم	.31
.207 .205 .204 .203 .196 .172	الامل	.32
.138 .130 .129 .116 .103 .101 .94 .73 .69 .17 .231 .200.217 .178 .156 .150 .143 .142 .141	الأمن	.33
.163 .160 .158 .156 .154 .153 .131 .125 .88 .87 .181 .179 .178 .177 .176 .175 .174 .173 .170 .271 .194 .190 .189 .188 .187 .186 .184 .182 .278 .276	الأمير	.34
.92 .67 .66 .64 .63 .62 .35	الإنتاج	.35
.163 .161	الانتقاء	.36
.198 .101 .53	الانتقام	.37
.76 .70 .52 .48 .44 .40 .39 .38 .36 .13 .12 .04 .113 .104 .103 .94 .86 .84 .82 .81 .80 .79 .77 .147 .145 .140 .135 .132 .127 .126 .115 .114 .198 .197 .196 .195 .194 .181 .177 .169 .168 .210 .207 .206 .205 .204 .203 .202 .201 .200 .229 .228 .227 .226 .225 .224 .218 .212 .211 .246 .245 .244 .243 .242 .241 .240 .234 .231 .276 .266 .255 .254 .252 .251 .249 .248 .247 .279 .278 .277	الإنسان	.38
.166 .165 .163 .162 .161 .159 .152 .149 .129 .182 .176 .172 .171 .170 .168 .167	الانضباط	.39
.211 .206 .204 .203 .196 .152 .138 .137 .136 .69 .279 .278 .258 .257 .245	الأهواء	.40
.163 .109 .106 .49	الأيدولوجية	.41
.114 .29	الإيمان	.42
.220 .218	البرلمان	.43

.220 .219	البروتستانتين	.44
.39 .37 .36	البنية	.45
.36 .35 .34	البوليمولوجيا	.46
.86 .84 .75 .72 .52 .51 .38 .37 .36 .34 .20 .6 .134 .117 .115 .114 .111 .109 .104 .103 .101 .258 .221 .192 .175 .169 .142 .139 .136 .135 .278 .276 .275 .267	التاريخ	.47
.40	التأويل، التأويلات	.48
.99	التجارب العسكرية	.49
.11	التجريد	.50
.238 .202 .52	التجسس، الجوسسة	.51
.99 .21	الخطط الحربية	.53
.31	التدافع	.54
.176 .176 .172 .166 .162 .156 .87	التدريب	.55
.266 .234 .28 .25 .24	التدمير	.56
.134	التربية السياسية	.57
.155 .104 .97 .47 .28 .20 .10 .09 .07 .05 .03 .239 .235 .233 .224 .219 .216 .204 .199 .192 .276 .275 .263 .255 .249 .245 .243 .242 .240 .279 .278 .277	تصور	.58
.173 .99 .93	التعبئة	.59
.257 .130 .53	التعذيب	.60
.56 .45 .37 .36 .35 .28 .27 .20 .14 .13 .10 .09 .104 .103 .96 .88 .81 .78 .76 .75 .70 .68 .60 .57 .276 .262 .215 .107	التعريف	.61
.29	التعصب	.62
.11	التعميم	.63
.257 .256 .255 .254 .244 .242 .227 .75	التفاوت	.64
.120 .96	التفاوض، المفاوضات	.65

.212	التفويض	.66
.268 .267 .266 .265 .264 .263 .80	التقاليد	.67
.64 .63 .62 .39	تقسيم العمل	.68
.224 .173	التكتيك	.69
.93 .92	التكنولوجية	.70
.197 .110 .109 .108 .107 .86 .75 .47 .46 .45 .43 .276 .253 .246 .244 .243 .242	التنافس	.71
.193 .13	التنبؤ	.72
.139 .132 .104 .99 .93 .88 .87 .74 .56 .51 .21 .264 .156 .154 .152 .140	التنظيم	.73
.156 .94	التنمية	.74
.98 .47	التهديد	.75
.107 .106 .105 .104 .103 .102 .101 .100 .6.31 .254 .111 .110 .109 .108	توازن القوى	.76
.202 .149 .126 .77 .72 .71 .67 .66 .64 .62 .50	الثروة، الثروات	.77
.110 .109 .105 .93 .83 .81 .80 .79 .44 .43 .42 .167 .155 .153 .145 .131 .125	الثقافة	.78
.264 .220 .70	الثورة	.79
.237	التيولوجيا	.80
.51	الجريمة	.81
.267 .167 .121	الجزية	.82
.256 .255 .254 .253 .251 .218 .217 .136 .135 .277 .273 .272 .262 .260 .259 .258 .257	الجسم السياسي	.83
.139 .138 .136 .135 .134 .132 .130 .124 .116 .2 .276 .193 .185 .183 .149 .148 .144 .143 .141	الجمهورية	.84
.163 .213 .190 .188 .171 .170 .166 .159 .29 .28 .155 .152 .149 .147 .146 .128 .87 .174 .165 .164 .213 .198 .189 .176 .162 .161 .160 .158 .157 .276 .263	الجند، الجنود	.85
.252 .251 .108 .86 .11	الجوهر	.86

.141 .130 .129 .124 .92 .72 .58 .29 .28 .22 .20 .161 .160 .159 .156 .155 .154 .151 .150 .149 .182 .181 .197 .176 .172 .171 .167 .163 .162 .184	الجيش	.87
.211 .209 .202 .201 .200 .199 .197 .196 .195 .242 .240 .239 .231 .225 .224 .219 .215 .213 .257 .256 .254 .252 .248 .247 .245 .244 .243 .278 .277	الحالة الطبيعية	.88
.240 .238 .231 .230 .226 .213 .209 .208 .207 .277 .257 .252 .251 .250 .249 .247	الحالة المدنية	.89
ورد مصطلح الحرب في الاطروحة أكثر من 959 مرة، إذ نجده في كل الصفحات تقريبا.	الحرب	.90
.262 .252 .1230 .210 .105 .189 .137 .77 .03	الحرية	.91
.123 .100 .31	الحسم	.92
.177 .130	الحصار	.93
.243 .168 .140 .109 .83 .80 .76 .75 .43 .38 .34 .265	الحضارة، الحضارات	.94
.279 .276 .190 .168 .136	الحظ	.95
.265 .263 .262 .179 .50	البقاء	.96
.211 .210 .205 .144 .138 .95 .77 .70 .58 .29 .269 .250 .248 .242 .229 .220 .217 .213 .212	الحق	.97
.115 .94 .81 .79	حقوق الإنسان	.98
.189 .183 .151 .143 .138 .125 .124 .107 .47 .17 .176	الحكمة	.99
.266 .263 .262 .220 .209 .192 .123 .120 .100 .28	الحكومة	.100
.144 .105 .99 .45 . 31. 33 .30	الحلف التحالف التحالفات	.101
.86	الحوار	.102
.154 .141	الخدمة العسكرية	.103
.214 .119 .114 .77	الخطاب	.104

.15	دار الحرب	.105
.15	دار السلام	.106
.109 .105 .101 .98 .96 .90 .81 .71 .69 .54 .33 .275 .132 .123 .122	الدبلوماسية	.107
.145 .142 .141 .140	الدستور	.108
.159 .150 .138 .119 .110 .104 .49 .32 .25 .02 .197 .189 .187 .183 .178 .171 .168 .167 .162 .236 .235 .223 .217 .215 .210 .208 .202	الدفاع	.109
.68 .66 .62 .61 .58 .54 .53 .37 .27 .21 .04 .02 .83 .81 .80 .79 .78 .77 .74 .73 .72 .71 .70 .69 .96 .95 .94 .93 .92 .91 .90 .89 .88 .87 .85 .84 .129 .124 .122 .119 .118 .105 .104 .101 .99 .97 .145 .143 .142 .141 .139 .138 .136 .135 .134 .167 .162 .161 .157 .156 .155 .154 .153 .151 .186 .185 .184 .183 .181 .179 .174 .173 .172 .203 .202 .199 .196 .195 .194 .189 .188 .187 .223 .221 .220 .219 .218 .217 .216 .215 .209 .260 .259 .258 .256 .255 .254 .228 .227 .225 .271 .269 .268 .267 .266 .265 .263 .262 .261 .276 .273 .272	الدولة	.110
.269 .223 .156 .41 .94 .81 .79	الديمقراطية	.111
.73 .72 .58 .54 .49 .44 .41 .29 .19 .18 .03 .02 .145 .144 .126 .125 .109 .101 .98 .93 .83 .77 .210 .198 .183 .170 .169 .168 .148 .147 .146 .266 .237 .223 .221 .220 .219	الدين	.112
.67 .66 .65 .64	الرأسمالية النظام الرأسمالي	.113
.25	الرأي العام	.114
.123 .85	الردع	.115
.255 .217 .215 .214 .168 .165 .163 .162 .157	الرعايا	.116
.214 .194 .184 .76 .53	الرعيّة	.117
.203 .199 .198 .196 .168 .138 .137 .62 .50 .46	الرغبة	.118

.245 .240 .233 .225 .224 .218 .208 .206 .204 .278 .276		
.267 .226 .148 .141 .66	الرق العبيد الأرقاء	.119
.163 .147 .142 .83 .75 .73 .55 .54 .53 .51 .24 .267 .227 .219 .174 .164	السلاح الاسلحة	.120
.107 .106 .96 .81 .80 .69 .48 .30 .26 .22 .17 .04 .146 .145 .140 .122 .121 .117 .116 .109 .108 .202 .199 .198 .194 .170 .160 .159 .155 .150 .211 . 210 .209 .208 .207 .206 .205 .204 .203 .223 .222 .219 .218 .217 .216 .215 .214 .212 .279 .277 .269 .231 .225.226.227	السلام	.121
.233 .214	السلطان	.122
.94 .90 .87 .86 .84 .77 .69 .58 .46 .17 .03 .02 .116 .115 .113 .110 .107 .106 .105 .104 .102 .174 .166 .150 .144 .140 .134 .129 .127 .126 .201 .199 .197 .196 .195 .194 .192 .184 .183 .219 .218 .217 .214 .213 .212 .211 .203 .202 .229 .228 .227 .225 .224 .223 .222 .221 .220 .272 .263 .262 .246 .231	السلطة	.123
.238 .237 .145	السلم الإلهي سلم الله	.124
.175	السلم المسلح	.125
.275 .44 .36 .35 .34	سوسولوجيا	.126
.202 .194 .129 .123 .120 .119 .118 .116 .104 .58 .221 .220 .219 .218 .217 .216 .215 .214 .213 .278 .272 .263 .262 .250 .225 .223	السيادة	.127
.37 .34 .33 .31 .30 .28 .26 .23 .22 .20 .18 .03 .100 .99 .98 .95 .88 .86 .85 .84 .81 .71 .69 .47 .118 .116 .110 .107 .105 .104 .103 .102 .101 .267 .231 .185 .149 .139 .134 .128 .124 .120	السياسة	.128

.275 .268		
.40	السيرورة	.129
.150 .146 .126 .118 .110 .95 .70 .56 .48 .24 .277 .260 .228 .220 .154	السيطرة	.130
.182 .172 .171 .167 .166 .161 .148 .15	الشجاعة	.131
.227 .214 .194 .169 .107 .100 .77 .69 .04 .03	الشرعية	.132
.77 .70 .69 .38	الشرعية الشرائع	.133
.145 .142 .140 .129 .95 .94 .48 .43 .40 .28 .27 .171 .167 .161 .155 .151 .150 .148 .147 .146 .221 .220 .219 .209 .196 .195 .185 .181 .173 .278 .265 .264 .263 .262 .228 .223	الشعب	.134
.61 .49 .41 .37 .11	الشمولية	.135
.170 .49	الشیطان	.136
.220 .219 .218 .217 .216 .215 .214 .213 .194 .278 .272 .263 .227 .223 .222	صاحب السيادة	.137
.83	صدام الحضارات	.138
.36 .30 .26 .23 .22 .19 .18 .17 .05 .04 .03 .02 .83 .74 .70 .56 .55 .51 .50 .49 .46 .45 .41 .37 .108 .107 .104 .102 .101 .98 .97 .96 .89 .84 .218 .216 .211 .197 .194 .123 .121 .110 .109 .276 .275 .256 .254 .224 .220	الصراع	.139
.166 .162 .120 .96 .92 .83 .80 .64 .63 .48 .09 .252 .243	الصناعة	.140
.96	صندوق النقد الدولي	.141
.52 .51 .43	الضحايا	.142
.221 .172 .166 .155 .147 .145 .144 .142 .04 .03 .240	الطاعة	.143
.148 .92 .72 .70 .61 .60 .59 .58	الطاقة	.144
.142 .141	الطبقات الاجتماعية	.145
.241 .209 .197 .174 .137 .136 .62 .24	الطبيعة البشرية	.146

158 .150 .138 .137 .121 .119 .117 .110 .50	الطموح	.147
.268 .266 .265 .264 .263 .80 .53 .38	العادات	.148
.22 .206 .204 .203 .09	العبثية	.149
.180 .91 .30	العبقرية	.150
.172 .163 .92 .87	العتاد	.151
.211 .169 .129 .124 .116 .82 .77 .76 .67 .40 .05 .243 .213	العدالة	.152
.47 .45 .32 .31 .30 .28 .27 .25 .24 .22 .20 .18 .120 .116 .104 .99 .91 .69 .55 .54 .53 .49 .48 .177 .172 .162 .161 .158 .151 .149 .143 .123 .237 .236 .235 .234 .218 .217 .200 .184 .178 .263 .262 .261 .260 .259 .256 .249 .246 .238 .277 .272 .271 .270 .269 .267 .266	العدو	.153
.50	العصية	.154
.275 .183 .154 .133 .114 .113 .05	عصر النهضة	.155
.154	العصر الوسيط	.156
.272 .262 .261 .260 .250 .240 .226 .192 .77 .07 .277 .275 .273	العقد الاجتماعي	.157
.47 .40 .30 .29 .25 .17 .16 .10 .07 .06 .05 .04 .114 .109 .91 .87 .86 .83 .80 .78 .68 .60 .59 .58 .205 .204 .203 .198 .196 .192 .179 .175 .166 .235 .229 .225 .221 .214 .210 .209 .207 .206 .258 .257 .253 .248 .247 .244 .243 .240 .239 .279 .278 .276 .272 .266 .264	العقل	.158
.100 .98 .89 .85 .84 .81 .73 .55 .54 .53 .44 .07 .137 .135 .109 .108 .105 .104 .103 .102 .101 .202 .183 .172 .149 .146 .143 .141	العلاقات الدولية	.159
.41 .38 .37 .35 .34 .27 .20 .19 .13 .11 .10 .09 .73 .70 .68 .67 .61 .57 .49 .47 .46 .45 .44 .42 .126 .115 .114 .113 .98 .95 .89 .87 .84 .75 .74 .173 .169 .147 .146 .145 .134 .133 .129 .127 .266 .235 .221 .220 .208	العلم	.160

.100 .94 .56 .53 .52 .51 .48 .47 .34 .28 .27 .16 .229 .202 .169 .158 .152 .148 .145 .136 .125 .275 .243 .231	العنف	.161
.168 .77	العهد القديم	.162
.279 .243 .137 .28 .25 .24	العواطف	.163
.59 .52 .51 .41 .39 .36 .35 .32 .26 .25 .21 .10 .200 .197 .179 .161 .130 .123 .89 .88 .83 .69 .278 .267 .252 .231 .217 .215	الغاية	.164
.189 .169 .117 .101 .99 .87 .75 .18	الغزو	.165
.254 .17 .16	الفتنة	.166
.250 .240 .225 .224 .219 .199	الفراغ السياسي	.167
.122	الفصائل	.168
.155 .154 .153 .152 .132 .123 .118 .113 .87 .07 .179 .174 .173 .170 .167	فن الحرب	.169
.119	فن الخطابة	.170
.100	الفوضى الدولية	.171
.226 .56 .45	قانون الحرب	.172
.248 .247 .213 .211 .210	القانون الطبيعي	.173
.160 .158 .122 .105 .53 .31 .22 .19 .17 .16 .15 .234 .199 .198 .184 .172 .168 .166 .165 .162 .263 .237	القتال	.174
.68 .65 .62 .60 .59 .58 .57 .47 .13 .12 .11 .10 .100 .97 .96 .94 .93 .92 .90 .88 .86 .80 .78 .70 .179 .165 .163 .162 .161 .138 .136 .127 .126 .261 .259 .222 .215	القدرة	.175
.178 .150 .139 .134 .123 .100 .95 .90 .67 .31 .264 .229 .186 .181 .180	القرار	.176
.214 .19	القرآن	.177
.100 .99 .88 .86 .85 .84	القسر	.178
.51 .39	القصدية	.179
.110 .109 .105 .32	القطب	.180

.38 .37	القهر	.181
.167 .166 .150 .92 .29 .28	القوات المسلحة	.182
ذكر مصطلح القوّة 510 مرة، وورد في أغلب صفحات البحث.	القوّة	.183
.129 .107 .104 .103 .100 .95 .90 .70 .54 .29 .265 .221 .220 .189 .165 .163 .162 .156	القومية	.184
.179 .173 .150 .149 .144 .99 .95 .88 .86 .85 .50 .233 .186 .180	القيادة	.185
.91 .86 .85 .84 .82 .81 .80 .79 .70 .67 .66 .65 .168 .160 .135 .134 .133 .97 .96	القيمة القيم	.186
.94 .192 .169 .148	الكاثوليكية	.187
.179 .172 .162 .161 .93 .90	الكفاءة	.188
.194 .192 .170 .169 .148 .147 .133 .125 .121 .222 .221 .220 .219 .214 .211	الكنيسة	.189
.26	الكيد	.190
.277 .224 .146 .114	اللاهوتي	.191
.197 .89	اللذة	.192
.192 .113	الليبرالية الليبرالي	.193
37 .36	الماركنتيلية	.194
.143	الماهية	.195
.209	المبادئ الإلهية	.196
.207	المبادئ العقلية	.197
.209 .207	المجتمع المدني	.198
.198 .197 .187 .169 .162 .159 .148 .132 .123	المجد	.199
.68	المحكوم	.200
.158 .152 .53	المدنيين	.201
.63	المرأة	.202
.95	مراكز البحث	.203

.95	مراكز الفكر	.204
.149 .130 .128 .127 .125 .124 .120 .118.119 .168 .167 .160 .159 .158 .157 .156 .154 .151 .276 .178 .177	المرتزقة	.205
.244 .210 .196 .192 .103 .102 .77 .67	المساواة	.206
.210 .196 .194 .170 .169 .168 .148 .146 .145 .02 .222 .221 .220	المسيح	.207
.24	المشاعر العدائية	.208
.147 .141 .136	المُشرعُ	.209
.49	المصالحة	.210
.81	المصلحة الوطنية	.211
.231 .229 .225 .222 .221 .220 .219 .217 .192 .27 .278 .240	المطلق	.212
.275 .202 .100 .33	المعاهدات	.213
.150 .118 .99 .92 .91 .75 .55 .31 .29 .28 .21 .15 .235 .199 .180 .178 .177 .173 .172 .171 .158 .277 .269 .248 .237	المعركة، المعارك	.214
.27 .21 .20 .19 .14 .13 .12 .11 .10 .09 .06 .05 .70 .68 .62 .61 .60 .58 .56 .47 .45 .40 .37 .34 .103 .102 .101 .100 .89 .88 .82 .78 .77 .74 .71 .232 .224 .215 .196 .192 .184 .183 .114 .104 .276 .263 .238	المفهوم	.215
.227 .200 .199 .70 .69 .68 .67 .45 .38 .22 .20 .251	المقاومة	.216
.217 .196 .192 .150 .141 .140 .120 .117 .59 .58 .244 .227 .223 .222 .221 .220	الملك	.217
.129	منطق الدولة	.218
.56 .44 .41 .40 .39 .38 .37 .35 .13 .10 .09 .06 .275 .214 .196 .149 .115 .94 .90 .57	المنهج	.219
.143 .141 .135 .134 .129 .124 .118 .93 .69 .55 .246 .231 .211 .198 .194 .192 .157 .149 .144 .250 .247	المواطن المواطنة	.220

.36	مورفولوجيا الحرب	.221
.101 .98 .91 .89 .70 .68 .59 .55 .54 .51 .46 .20 .227 .192 .115	المؤسسة	.222
.277 .224 .42 .41	الميتافزيقة	.223
.260 .259 .212	الميثاق	.224
.117	ميثاق لودي للسلام	.225
.130 .129 .128	الميليشيات	.226
.218 .149 .146 .141 . 140	الثبلاء	.227
.69 .52 .49 .48 .38	النزاع	.228
.115 .114 .113	النزعة الإنسانية	.229
.87	النزوح المهني	.230
.24	النوايا العدوانية	.231
.247 .246 .237 .236 .197 .185 .183 .55 .32 .21 .265 .256	الهجوم	.232
.238 .237 .17 .15	الهدنة	.233
.193 .187 .154 .128 .102 .96 .74 .59 .44 .07 .04 .270 .239	الواقعية	.234
.169 .168	الوثنية	.235
.67 .66	وسائل الإنتاج	.236
.266 .22	وسائل الحرب	.237
.119 .118 .108 .101 .99 .98 .89 .81 .59 .54 .29 .227 .222 .160 .159 .158 .156 .124	الوطنية	.238
.175 .174 .163 .156 .150 .149 .147 .146 .128 .56 .187	الولاء	.239
.198	اليهود	.240

فهرس المحتويات:

الإهداء

كلمة شكر وتقدير

مقدمة

- 08..... الفصل الأول: تماهي القوة والحرب
- 09..... - تمهيد: في صناعة المفاهيم وأهميتها البحثية
- 15..... - المبحث الأول: الحرب
- 15..... 1- المفهوم اللغوي للحرب
- 19..... 2- المفهوم الاصطلاحي للحرب:
- 20..... 2-1- الحرب عند علماء الاستراتيجية
- 35..... - 2-2- سوسيولوجيا الحرب
- 59..... - المبحث الثاني: القوة غاية الدولة

59	1-المفهوم اللغوي للقوة.....
59	2-المفهوم الفلسفي للقوة.....
61	3-المفهوم الفيزيائي للقوة.....
63	4-المفهوم الاقتصادي للقوة.....
69	5-المفهوم السياسي للقوة.....
75	6-أنماط القوة:
76	6-1-القوة الصلبة.....
79	6-2-القوة الناعمة.....
86	المبحث الثالث: القوة في العلاقات الدولية.....
86	1-أوجه استخدام القوة.....
91	2-عوامل القوة.....
94	2-1-العوامل المادية.....
96	2-2-العوامل المعنوية.....
100	3-أسباب تفضيل القوة العسكرية.....
102	4-توازن القوة.....
108	5-أنماط توازن القوة.....

الفصل الثاني: نهضة فن الحرب عند نيقولا ميكيافيلي..... 114

المبحث الأول: الخلفية النظرية والعملية لفكر الحرب عند نيقولا ميكيافيلي.. 115

1- سيرته العلمية..... 115

2- الخلفية السياسية لفكر ميكيافيلي..... 118

3- الخلفية التاريخية لفكر ميكيافيلي:..... 136

3-1- تجربة جمهورية روما..... 141

3-1-1- حكومة روما ودستورها..... 142

3-1-2- نهج روما التوسعي..... 145

3-1-3- التدين الروماني..... 146

151.....	3-1-4- الجانب العسكري لروما
154.....	-المبحث الثاني: فن الحرب عند ميكيا فيلي:
154.....	1- الصلة بين التنظيم السياسي والتنظيم العسكري
157.....	2- طبيعة الجيش
163.....	3- تكوين الجيش
167.....	4- الانضباط العسكري
175.....	5- القائد أو الأمير
185.....	6- الحرب
193.....	الفصل الثالث: تصور الحرب عند فلاسفة العقد الاجتماعي
194.....	المبحث الأول: الحرب كحالة طبيعية عن توماس هوبز
196.....	1- الفرد محور الحرب
200.....	2- الحرب حالة طبيعية
205.....	3- الانتقال من حالة الحرب إلى حالة السلام
209.....	4- عن القوانين في إقامة السلام
218.....	5- آليات منع العودة إلى حالة الحرب
228.....	المبحث الثاني: الحرب في فلسفة جون جاك روسو
228.....	1- الحالة المدنية بين أمل إحلال السلام وواقع الحرب
234.....	2- حالة الحرب
241.....	3- نقد روسو للطرح الهوبزي لحالة الحرب الطبيعية
252.....	4- الحالة الاجتماعية أو الحالة الطبيعية للدولة
262.....	5- الحرب بين الدول: الوسائل والاهداف
276.....	الخاتمة
283.....	قائمة المصادر والمراجع
291.....	فهرس الأعلام

296..... فهرس المصطلحات

310..... فهرس المحتويات